المعضلة الكـــــــبرى

مختارات قصصيـــــــــــة

سعيـــد ســـالم

المعضلة الكبرى

****

يوم غائم وقلبى يرتجف.من نافذة مكتبى أستطلع البحر بنهم وقد كسته شابورة عظيمة.أجنحة النوارس البيضاء تلمع من بعيد متلألئة فى الأفق الرمادى المضبب.يبدو أنه يوم كئيب.تمكن منى هذا الهاجس بلا مبرر فخضعت له ورحت أبتعث من الذاكرة كل ماهو منغص فى حياتى من أحداث وبشر ومواقف وأماكن وأقدار..وقبل ذلك كله تطفو الى الذهن مشكلتى الأبدية مع الحياة،وهى عجزى عن إتمام التصالح فى داخلى بين دينى ودنياى،وسقوطى المتكرر صريع الصراع بين شهواتى من جهة،وسعيى الى طلب المنزلة عند الله من جهة أخرى، مما يجعل منى إنسانا مذبذبا فاقد الاتزان،ملكاته عاجزة عن التجانس مع بعضها فى هارمونية متناغمة متناسقة.

قادتنى تلك الحالة الى شعورى الدائم بالحسد تجاه كامل بك مدير عام الادارة رغم أنه يكبرنى بعشرة أعوام،فكل الشواهد تؤكد على انتصاره على هذا الصراع،انتصارا يجعله يأتى كل يوم الى العمل منتعشا سعيدا،ومهما كانت السماء ملبدة بالغيوم والأمطار،فإنه يبدو متفائلا منشرح الصدر، لاتواتيه ذاكرته إلا بما هو سعيد بهيج،ولا أراه يرى فى الأيام غير الخير والصفاء والأمان،حتى أننى أكاد أجزم أنه يتمنى لو يصل الى مكتبه راقصا منتشيا بالفرحة والحبور،سعيدا بأعوامه الخمسين التى أمضاها راضيا بمعطياتها ومآخذها وأفراحها وأتراحها.

يدهشنى أنه بمقدار ماتتهافت عليه نساء المؤسسة وبناتها ، يتهافت عليه الشبان الملتحون،وكأن كل النقائض قد تصالحت فى ابتسامته الواثقة بالدنيا والآخرة..ولكم تمنيت أن أسأله كيف استطاع أن يتعامل بنجاح مع هذه المعادلة ذات الطرفين المتناقضين.

استجمعت إرادتى يوما بعد أن أمّنا لصلاة الظهر وقررت أن أتوجه اليه بسؤال محدد:

-كيف استطعت التوفيق بين الدنيا والدين ؟

ولكن ما أن اقتربت منه حتى همس لى زميل فى أذنى ساخرا:

-اننى أشك فى استقامة هذا الرجل وأغلب ظنى أنه منافق يظهر غير ما يبطن .

قلت له معترضا بثقة:

- لابد أنك ساخط عليه لأنه أخّر ترقيتك.

قررت أن أقطع الشك باليقين فذهبت الى مكتبه متعللا بدواعى العمل.ولما رأيته يصفر فى سعادة لحنا موسيقيا جميلا، ألقيت عليه بسؤالى دون تردد.نظر الى فى سماحة ثم راح يحدثنى عن الحب والاستغناء والسعادة والرضا وفن الحياة ، وأنا أستمع اليه بنهم الحيران الذى يبحث عن يقين ، وهو منهمر فى الكلام تخرج العبارات من فمه متدفقة متجانسة موحية بالمعانى والأفكار،حتى أننى لم أكن أستطيع ملاحقته عن فهم..ولما تعرض فى الحديث لأسرته قال لى بارتياح شديد:

-ان أهم أسرار سعادتى فى الدنيا هى أسرتى الجميلة وامتنانى للخالق الذى منحنى إياها.
فهمت مما قاله ان المال والمرأة والدين والسلطة كلها عناصر أساسية تدخل فى صلب المشكلة التى طرحتها عليه.لكنه لم يحدد لى مواقفه القاطعة من هذه العناصر،وإنما ظل يتلاعب بها كما يتلاعب البهلوان على الحبال، فلا فهمت من كلامه أنه رجل دنيا ولافهمت أنه رجل دين.ربما يشير هذا التناقض الى أنه قد نجح بالفعل فيما فشلت فيه، بنفس نجاحه فى كسب ثقة رؤسائه وزملائه ومرؤوسيه،وربما يشير أيضا الى أنه مذبذب مثلى تماما ولكنه يستطيع بمهارة فائقة أن يخفى تذبذبه.

اننى أتمنى أحيانا أن أكون رجلا ربانيا خالصا ينكشف عن عين قلبى حجاب الحس،وينفتح من دون قلبى باب القدس،فأرى مالا عين رأت وأسمع مالا أذن سمعت،وأذوق من الحقائق والدقائق والرقائق مالايخطر على قلب بشر..وأجدنى أبدأ المحاولة مرة وراء الأخرى لكنها لاتلبث أن تذوى فى أسابيع قليلة إذ يفتر حماسى بالتدريج فأنجذب من جديد الى فلك الحياة.

وأتمنى أحيانا أخرى أن أظل أعب من نشوة الحياة حتى الثمالة ، وأن أعتصر رحيقها وألتهم جمالها وأذوب فى فتنتها حتى الموت..وأبدأ المحاولة لكنها لاتستغرق أكثر من أشهر قليلة حتى أفيق لنفسى وقد أنهكنى الشعور بالذنب، فأعود مذبذبا من جديد.الخلاصة أننى لم أستطع أن أكون أحد الرجلين حتى الآن.ولما ازدادت حيرتى سألته:

-لماذا لم تجبنى عن سؤالى بوضوح؟

انصرف عنى الى أوراقه قائلا:

-دعنا نستكمل هذا الحديث غدا بإذن الله

*****

ربما كانت المرة الثانية التى يدخل فيها مكتبى على مدى أكثر من عام.أذكر أن الأولى كانت بمناسبة تقديم العزاء لى فى وفاة أحد أقاربى.

انتفضت واقفا بحكم المفاجأة وبوحى من احترامى لشخصه ومنصبه وسنه،فضلا عن إعجابى الداخلى الشديد بشخصه المنطوى على كل ما غمض على من أسرار.وبعد أن تبادلنا نظرات مرتبكة لفترة قصيرة ، جلس فى هدوء يخفى عذابا للروح،ثم تنهد بصوت مسموع .. أشعل سيجارة راح يدخنها بنهم شديد وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة حبلى بمعان مستترة غامضة.شعرت بخوف شديد يهزنى من أعماقى كما لو أن كامل بك قد جاء مفوضا من عزرائيل ليقبض روحى قبل أن يسافر فى بعثة الى أوروبا خلال الأيام القليلة القادمة.تحول جسدى الى ثلاجة وتصبب العرق على جبينى وزاغت عيناى حتى خيل الى اننى على وشك السقوط فى إغماءة بعد قليل.

لست أدرى ما الذى جعلنى أفكر فى الموت فى هذه اللحظات،وهو الشىء الذى لا أذكره إلا عند ذهابى لتشييع جنازة،ثم لا ألبث أن أغفل عنه بعد خروجى من المقابر.

الرجل جالس أمامى يتأملنى فى صمت وأنا أفكر لأول مرة فى معنى أن أموت فأفوت الأهل والأحباء والأصدقاء وسائر ملذات الحياة ومباهجها التى لاتعد ولاتحصى والتى أعشق الاغتراف من ينابيعها بينما يغمرنى شعور متصل بالشكر والعرفان لصاحب هذه النعم،ومعه شعور أقوى بالذنب لأننى كثيرا ما أعصاه بكامل إرادتى..قلت انه يوم كئيب غامض منذ بدايته و قد تحقق ظنى، فهأنا أجد نفسى فجأة على أعتاب مفارقة لذة الطعام والشراب والجنس والقراءة والسهر والرقص والطرب ومشاهدة الغسق والشجر والبحر والنهر والصحارى والسفر فى بلاد الله والنوم فى استغراق عميق.

فى البداية ظننت أنه جاء يستكمل حديث الأمس كما وعدنى،لكنه كان مضطربا شاردا على غير عادته.قال بصوت أشبه بالفحيح أزاد من فزعى:

-أرجو أن تحتفظ بمفتاح درج مكتبى هذا لحين عودتى من البعثة على أن يبقى هذا سرا بيننا.

وضع المفتاح أمامى ثم واصل:

-لو لم أعد فأرجو أن تفتحه وتنفذ ماهو مكتوب فى الورقة المنفصلة.

وجدت نفسى أمام لغز جديد جعل الخوف يزداد منى تمكنا .سألته عن محتويات الدرج والورقة فقال :

-بالدرج أوراق شديدة الخصوصية،أما الورقة فكل شىء واضح بها.

لماذا خصنى بهذه المهمة الغامضة،ولماذا لا يسلم المفتاح الى زوجته وأبنائه وهو الذى يلقى القصائد فى مديحهم،وكيف سأعرف ان كان سيعود من الخارج أم لا؟!

-سوف أبعث اليك ببرقية أخبرك فيها بقرارى النهائى.

-ألا تطلعنى الآن على محتويات هذا الدرج قبل أن تحملنى هذه المسئولية؟

-بل انى أرجوك ألا تفتحه إلا بعد استلامك البرقية التى تفيد بعدم عودتى الى مصر

-وإذا أفادت برقيتك بأنك عائد بسلامة الله،ماذا أفعل حينئذ؟

-لاتفتحه

أن يفكر رجل فى عمر كامل بك فى مثل هذا الانفصال العسير عن الوطن والبيت والعمل والأزقة والمقاهى والملاهى والمطاعم والمساجد والأندية وجذور العمر التى حفرت طريقها فى تربة المكان والزمان والتاريخ وحكايات الحب وصداقات العمر وتلك الانتصارات الرائعة على كدورات الحياة،بل والهزيمة أمامها فى بعض الأحيان،فذلك شىء يثير العجب والاستغراب.لعله تعس فى حياته العائلية وإن أخفى ذلك بمهارة،أو لعله مطالب بدين يفوق طاقته على السداد رغم ثرائه المعروف،وربما أنه يعانى من علة مرضية خبيثة أوصلته الى اليأس ومنعه تكتمه من إعلانها..وهل ظل ينتظر حتى تجاوز الخمسين لينتهز فرصة البعثة فيهرب من مصر وهو القادر على مغادرتها بماله ونفوذه فى أى وقت يشاء؟..أستطيع أن أستبعد وجود أسباب سياسية ، فكامل بك لايهتم كثيرا أو قليلا بالشأن الوطنى أو العالمى.انه لايقرأ جرائد المعارضة أو حتى الجرائد القومية.قراءاته محصورة فى نطاق مهنته،حتى أن كثيرا من الشركات تلجأ الى مشورته كخبير فى مجاله التخصصى.لم يبق فى جعبتى سوى احتمال أخير بأن يكون وراء فراره قصة حب فاشلة لانجاة منها إلا بالهرب..الأمر المؤكد لى حتى الآن أنه يخفى عن أسرته مابهذا الدرج من أسرار.

طال الصمت بيننا وكنت أتمنى فى كل ثانية تمضى أن يرحل عنى ويأخذ مفتاحه معه،فأنا من الأصل غير مقتنع بهذه الثقة غير المبررة التى أولانى إياها،كما أن شعورى بالخوف يتزايد،مصحوبا بشعور مواز بالغم،وكأننى ابتليت بمصيبة لمجرد وجوده أمامى..لقد تنفست بعمق وارتياح حين وقف فجأة وغادر مكتبى كما دخله بقرار ديكتاتورى وهو يقول:

-أراك بخير..

*****

لم تمض دقائق معدودة على عودته الى مكتبه حتى دوى النبأ كالصاعقة فى أرجاء المؤسسة :

-كامل بك مات على مكتبه !

كنت أحس أنه يوم ملعون منذ بدايته.صدق حدسى إذن وانكشف لى سر ما عانيته من الهم والكرب والخوف لحظة رؤيتى كامل بك يتفرس فى وجهى بشدة وهو جالس الى مكتبى وكأنه يصر فى استماتة على أن أكون آخر إنسان يتحدث معه على هذه الكرة الأرضية.

بعد انتفاضة المفاجأة الأولى بموته كانت انتفاضتى الثانية أكثر عنفا حين تذكرت المفتاح. حقيقة الموت أسكرتنى ثم أفاقتنى ثم عادت فأشلت تفكيرى تماما.

فى اليوم التالى شكلت الإدارة لجنة برئاستى لجرد محتويات المكتب.كان من الطبيعى أن ألجأ الى الحل المريح الذى يعفينى من أى مسئولية بأن أفتح الدرج بحضور أعضاء اللجنة..ذلك أنه لم يقل لى إنه سيموت بهذه السرعة ويضعنى فى هذه الحيرة حول أمر لم نتفق عليه ، بل لم يخطر ببال أحد منا لحظة واحدة.

حين تهيأت لاتخاذ هذا القرار ، رأيت عينيه الشاردتين وقد امتزج فيهما العتاب الرقيق باللوعة،وكأنه يتوسل إلى ألا أعرض حياته التى انتهت الى الخطر. شعرت أن فى هذا القرار نذالة،وكان لابد لى من البحث عن مخرج من الأزمة أرضى به ضميرى بتنفيذ وصية

الراحل..لقد كنت أعتقد حتى هذه اللحظة أنه بموت الإنسان تموت معه حياته ولايشعر بما يحدث فى الدنيا من حوله بعد مفارقتها.تبين لى أن حياة الانسان تظل ممتدة بعد موته لفترة طالت أم قصرت،وأن هذا يتوقف على طبيعة ما انطوت عليه حياته من أعمال وأسرار.

تعمدت الانشغال بالعمل حتى أبرر تأجيل عمل اللجنة الى اليوم التالى.بقيت وحيدا بالإدارة بعد انصراف الموظفين حتى يتيسر لى إنجاز مهمتى الغامضة بعيدا عن عيون المتطفلين.تدافعت ضربات قلبى وأنا أضع المفتاح فى ثقب الدرج.لم أتمكن من فتحه فناوشتنى من جديد فكرة الحل المريح.لكن الدرج فتح بعد محاولة جديدة.كان ذلك فى حوالى الثالثة والنصف مساء،أى بعد انصراف الموظفين بنصف ساعة على وجه التقريب.

فى البداية قرأت-لاهثا- الورقة التى أسميتها بالوصية.كان لابد حتى أستوعب ماجاء بها أن أفحص الوثائق جميعا ثم أربط بينها وبين ماجاء بشأنها فى الوصية.

*****

•الوثيقة الأولى:

ورقة زواج عرفى من سيدة اسمها آمال المغربى وبرفقتها صورة فوتوغرافية تجمع الزوجين . كامل بك لايبدو سعيدا بآمال بقدر ما يبدو مفتونا بشخصها.يبدو من ملامحها أنها خليجية أو أسبانية.يتجلى الكبرياء فى أنفها المرتفع الدقيق ، والسحر الغامض فى عينيها السوداوتين الساهمتين..بالنظر فى الوصية وجدته يطلب حرق الوثيقة والصورة فحرقتهما.

•الوثيقة الثانية:

ورقة زواج عرفى من سيدة أخرى اسمها عايدة ابو الفتوح وبرفقتها صورة لهما على الشاطىء بملابس الاستحمام.ملامح وجه عايدة مصرية صميمة أما جسدها فالعياذ العياذ بالله من شدة جماله وانسيابه واتساقه.صورة عقد تنازل-منه لها- عن ملكية شقة بأحد الأحياء الفاخرة بالمدينة.فواتير شراء ملابس حريمى باهظة الثمن..وقد أوصى بحرق كل هذه الأشياء فحرقتها.

•الوثيقة الثالثة:

وصل أمانة بمبلغ ثلاثين ألف جنيه موقع عليه بإسم حاتم الفوال،وبرفقته مسودة مشروع خطاب لم يكتمل.كان ينوى –فيما يبدو- أن يرسله الى حاتم،وهو ملىء بالشطب والتصحيحات.يقول لصاحبه:" لقد ضربت لى مثلا حيا على نكران الجميل.وقفت بجانبك فى شدتك حتى يسر الله حالك ، ولكنك لاترغب فى أن ترد الحق الى صاحبه وكأنك تستكثره عليه.لقد كنت أحبك بصدق فى الله،وأعترف أننى لم أكن أتصور يوما أن يكون ثمن هذا الحب الضائع ثلاثين ألف جنيه.ألا ماأرخصها من صداقة، فلا أنت أعدت الىّ مالى، ولا أنا استطعت أن أحتفظ بحبك.الذى يدهشنى حقيقة هو صمتك ولامبالاتك وكأنك واثق أننى لن أقاضيك بوصل الأمانة لأنك تعلم أننى لا أحب الصراعات والمشاكل..ثقتك فى محلها ياعزيزى، فأنا لم أفكر لحظة فى مقاضاتك ،ولكن ليس لهذا السبب ولكن لأنى لست أرغب فى أن تموت صداقتنا مرة ثانية على أبواب المحاكم مادامت قد ماتت فى قلبى."..

وقد أوصى بحرق الإيصال!!..هذا الرجل يصيبنى دائما بالذهول. لماذا يريد منى أن أدع المجرم يفلت بجريمته؟أوليس أبناؤه أحق بهذا المبلغ الكبير من ذلك الصديق الجبان ؟..أعتقد أنه من حقى التصرف بالوصية كما أشاء مادمت مفوضا من صاحبها.لن أحرق هذا الإيصال وسأسلمه لزوجة كامل بك.أما مسودة الرسالة فهى التى أحرقتها لأن وجودها يكشف عن نية كامل بك المعلنة فى تنازله عن حقه والصفح عن صاحبه.يقتضى العدل أن يعود كل حق إلى صاحبه حتى لو مات.

•الوثيقة الرابعة :

بالمظروف صور للعديد من النساء ومن خلفها كتبت إهداءات تفيض بالرقة والعاطفة وتنم عن تباين شديد بين ثقافات كاتباتها.مع الصور مجموعة من الخطابات الغرامية المرسلة اليه على

أوراق بيضاء وأخرى ملونة .ولم لا والكل يعرف أنه مستودع أسرار نساء المؤسسة وآمالهم وآلامهم وحكاياتهم التى لاتنتهى.

أوصى بحرق الصور والخطابات . نسيت كل شىء وأنا غارق فى قراءة الرسائل حتى أذنى.انفصلت عن الزمان والمكان وعشت هائما فى سحب النشوة والجمال.كلما انتهيت من رسالة قرأت غيرها،وإذا بالساعات تمضى دون أن أنتهى من إنجاز مهمتى.اتخذت قرارا قاطعا لارجعة فيه بمخالفة الوصية فيما يتعلق بهذا البند، ذلك أننى أرى فى حرق تلك الرسائل النابضة بعشق الحياة جريمة لاإنسانية بكل المقاييس،وإذا كانت المشكلة الأساسية هى خشية كامل بك من اطلاع زوجته وأولاده على هذه الرسائل،فأنا سأحتفظ بها لنفسى ولن أطلع عليها أى مخلوق.المهم ألا أحرقها أبدا.

مع كل صورة أحرقتها كنت أشم رائحة الزمن تفوح بحكايات المتعة والانطلاق.. أين أنت الآن ياترى وأين هؤلاء النساء وماذا سيقلن ويفعلن عندما يعلمن بالفاجعة؟..اللهم لاحسد ياكامل بك عليك رحمة الله.

•الوثيقة الخامسة:

مظروف به صورة بمكان عام شديد الفخامة.يتوسط كامل بك مجموعة من النساء والرجال أمام مائدة كبيرة عليها أطباق لاحصر لها من الطعام وزجاجات وأكواب وكؤوس..وفى الصورة ينفجر كامل بك ضاحكا فى سعادة أسطورية لانظير لها وكأنه امتلك الدنيا والآخرة ..لم يذكر عن هذه الصورة شيئا فى الوصية،ولكنى رأيته مجسدا أمامى يقول لى بابتسامة عطوف حانية:

-كلما آلمتك الحياة وداهمك الحزن ، أنظر الى هذه الصورة فالحياة حلوة جدا..

•الوثيقة السادسة: مظروف مغلق ماكدت أفتحه حتى سقطت منه قطعة حشيش تزن مايقرب من خمسة جرامات ملفوفة فى ورقة سيلوفان لفا محكما.تمكنت الفرحة بها من دهشتى لوجودها.وضعتها فى جيبى وأنا أنظر فى حذر يمينا ويسارا خشية أن يرانى أحد، مع علمى اليقينى بأننى وحدى فى الإدارة..صعب أن يحقق الإنسان نجاحا ملموسا فى حل المعادلة الصعبة التى يمكن له أن يجمع فيها بين ملذات الدنيا ونعيم الملكوت الأعلى وهو حىّ يرزق.عجيب هذا فعندى أن ما يؤخذ من الدنيا يخصم من الآخرة وما يؤخذ من الآخرة يخصم من الدنيا.معضلة لم أتوصل بعد الى فهمها.يواسينى على حالى اعتقادى الجازم بأن معظم الناس يعانون مما أعانى، فالظاهرة ليست فردية،وأغلب ظنى-رغم مارأته عيناى حتى الآن-أن كامل بك لم يستطع حل المشكلة حلا جذريا.تفكيره فى الهرب وحده يؤكد على ذلك.."الهى مننت علىّ بالإيمان والمحبة والطاعة والتوحيد ، وأحاطت بى الغفلة والشهوة والمعصية،وطرحتنى النفس فى بحر الهوى فهى مظلمة، وعبدك محزون مهموم مغموم قد التقمه نون الهوى،وهو يناديك نداء المحبوب المعصوم نبيك وعبدك يونس بن متى ويقول لاإله إلا انت سبحانك انى كنت من الظالمين..فاستجب لى كما استجبت له وأيدنى بالمحبة فى محل التفريد والوحدة،وأنبت علىّ أشجار اللطف والحنان فإنك أنت الله الملك المنان"..دعاء مكتوب بخط يده لم يتعرض له كامل بك فى الوصية مثلما لم يتعرض للفافة السيلوفان و التى- بناء على ذلك- قد أصبحت من حقى.

•الوثيقة السابعة:

رواية"الوصول والرحيل" للكاتب اليهودى آرثركوستلر فى طبعتها الانجليزية من سلسلة البنجوين الشهيرة.على ظهر الغلاف كتب كامل بك:"مازلت أسير فى شارع المنتهى..واثق الخطى أحيانا، وبغير هدى فى معظم الأحيان".. لم أستوعب مقصده تماما وإن كنت قد فهمت منه أن صاحبنا يؤكد فى شجاعة على عجزه عن الاستقرار والتجانس والتوازن ، والكتاب غير مذكور فى الوصية ولايلزمنى.

•الوثيقة الثامنة:

مجموعة مظروفات على كل منها إسم مكتوب بوضوح وبداخلها مبالغ مالية يبدو من تباين أوزانها أنها مختلفة القيمة.كانت بعض الأسماء للسعاة وعمال النظافة ، والأخرى لبعض

الموظفين الذين لم أكن أعلم قبل هذه اللحظة أنهم من الفقراء-تحسبهم أغنياء من التعفف- كما لم أعلم كيف توصل كامل بك الي حقيقتهم .

تساءلت وأنا غارق في بقايا حياة هذا الرجل وموته ، هل كان يعلم أنه ميت بعد لحظات ولهذا جاء يكلفنى بهذه المهمة الوعرة؟..وتساءلت أيضا كيف أنشد عنده المساعدة فى حل المعضلة ومساعدة العبد للعبد كمساعدة السجين للسجين!..

•الوثيقة التاسعة:

مظروف كبير من البلاستيك المعتم الذى لايفصح عما بداخله.كان أثقل المظروفات وزنا بالدرج.فتحته متوجسا وقد أصابت جسدى قشعريرة وكأن بداخله قنبلة ستنفجر فى وجهى.وجدته يحوى كمية مخيفة من الأوراق المالية فنتى المائة دولار والخمسين دولار.بحسبة تقديرية سريعة وجدت أن المبلغ لايمكن أن يقل عن خمسين ألف دولار أمريكى"جديد لنج"..نقلت بصرى بسرعة البرق الى ورقة الوصية لأعرف مصير هذه الثروة فلم أجد بها شيئا يشير اليها . أعدت فحص الورقة بشدة وتدقيق وقلبتها فلم أجد شيئا مكتوبا على ظهرها.أخرجت الدرج كله بعصبية من مكانه بغير أن تفارق القشعريرة جسدى.جلست على الأرض ووضعته أمامى . فى لهفة طاغية رحت أفتشه بكل عناية لعلى أجد ولو علامة رمزية تشير الى كيفية التصرف بهذه المصيبة فلم أعثر على شىء. كدت أغيب عن الوعى فى هذه اللحظة حين اختلت المقاييس فى عقلى واضطربت القيم فى ضميرى وتاه كل ماهو نسبى فيما هو مطلق،ووجدت نفسى فى مواجهة سؤال مصيرى معجز يقول:ماذا ستفعل بهذا المال يارجل؟..الذى حدث أننى-بتلقائية شديدة-سارعت بوضع المظروف فى حقيبتى..الأمر الذى لم يحدث مع أية وثيقة أخرى من الوثائق السابقة.أول ماخطر ببالى بعد أن أغلقت الحقيبة أن أوصل هذا المبلغ ومعه إيصال الأمانة الى زوجة كامل بك فى سرية تامة قبل أن تبدأ اللجنة عملها فى اليوم التالى، بحيث لايعلم أحد بالأمر حتى أقطع الطريق على ألسنة السوء التى- حتما- ستجوب أروقة المؤسسة ومكاتبها ودورات مياهها- متسائلة فى خبث عن مصدر هذه الأموال أو مفسرة لوجودها كيفما تشاء.

عدت بعد ذلك ففكرت أن أترك المبلغ فى مكانه حتى تتصرف بشأنه اللجنة التى تضم عضوا قانونيا من بين أعضائها.والحق أننى فكرت أيضا ولكن فى برقة خاطفة من الدهر أن أحتفظ بهذا المبلغ لنفسى فأؤسس به حياة جديدة لى ولعيالى تنقلنا الى العلا دون أدنى شعور بالخطر.

هذه هى المرة الأولى فى حياتى الوظيفية التى أوضع فيها موضع الاختبار الصريح والمباشر أمام إغراء المال.لقد تعرضت كثيرا لإغراء الحرام فى مجال شهوات أخرى،نجحت أحيانا فى مقاومته وفشلت أحيانا أخرى،فماأنا إلا بشر من لحم ودم وأعصاب..يالها من زيارة مرهقة وثقيلة ياكامل بك.زيارة اكتنفها غيم وضباب ومطر وانقباض قلب وخوف من المجهول.لولا زيارتك لما وجدت نفسى ساقطا فى قاع هذا البئر السحيق الذى لاقرار له.أعلم أن قليلا يكفينى خير من كثير يطغينى،وأن من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة،وأن شر الناس من ترك عياله بخير وأقبل على الله بشر،وأن الإثم ما حاك فى القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه أحد،وأن هذا الذى يقهر نفسه أعظم من ذاك الذى يفتح مدينة،وأننى لم أستطع حتى الآن اجتياز المقامات التى توصلنى الى مقام الرضا فتحل المعضلة من جذورها.

قلبى يدق فرحا ورهبة.دقات الفرح تهدينى هذا المال فطول الأمل ينسى الآخرة، ودقات الرهبة تحثنى على إعادته الى أصحابه فاتباع الهوى يصد عن الحق..ومازلت أنشد العتق من رقى ولكنى ظللت أسيرا.

أعدت ترتيب الأوراق داخل الدرج،ثم أغلقته وانصرفت،وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء.

*****

لم تجد اللجنة مستندا واحدا يخص الشركة، وقدفوضت لتوزيع أظرف الصدقات وتسليم وصل الأمانة والرواية الى أهله..أما المظروف إياه ، فمازلت أحتفظ به –بغير أن ألمسه-فى مكان سرى بالبيت، إذ أننى لم أستطع حتى الآن أن أتخذ بشأنه قرارا.

2005/12/5

يوم من الأيـــام
****

● صباح اليوم:
استيقظت فى السادسة ككل صباح.منذ زمن بعيد أتمنى أن أصحو لصلاة الفجر. حاولت كثيرا أن أوفق بين الاستيقاظ فى الرابعة والنصف للصلاة والذهاب الى العمل فى الثامنة فلم أفلح ، ذلك أننى أعجز عن مواصلة النوم بعد الصلاة فأتوجه الى العمل مصدع الرأس معتل المزاج.
ارتديت "التريننج سوت" استعدادا لجولة مشى وهرولة حول"تراك" النادى عملا بوصية الطبيب لتوسيع شرايين قلبى الضيقة ، والتى أساهم فى ازدياد ضيقها بالتدخين والقهوة والشاى، متعللا بأن هذه المكيفات ترفع من ضغطى المنخفض فتحفظ توازنه.
بجوار البيت كان صندوق القمامة الذى وضعته الشركة الفرنسية بعد فشل الادارة المحلية فى تنظيف المدينة. رأيت سيدة تنبش فى الصندوق لتستخرج منه بقايا طعام سكان العمارة ربما يكون صالحا للأكل ، وكان بجوارها كلب يؤدى نفس العمل.أولتنى ظهرها فى خجل حتى لا أرى وجهها. أنا الآخر تظاهرت بعدم رؤيتها احتراما لكيانها الانسانى..بطرف عينى لاحظت أن ملبسها لايوحى بالتشرد قدر مايوحى بالفقر.
ليس من عادتى أن أحمل معى نقودا خلال تلك الجولة ، فالنادى قريب جدا من البيت. أصل اليه وأعود منه ماشيا. ساعة كاملة قضيتها ماشيا تحت سطوة شعور جارف بالذنب، أفقدنى بهجة اليوم ، فلم أستمتع ككل يوم بجمال الخضرة وألوان الزهور وزقزقة العصافير على أشجار النادى. تأملت عصفورا صغيرا يضرب بمنقاره فى النجيل ليستخرج بعد عناء دودة طويلة سمينة من باطن الأرض. ونظرا لثقلها على منقاره فإنه ظل يطوح بها يمينا ويسارا محاولا أن يقطعها حتى يسهل عليه حملها وابتلاعها على مرحلتين دون جدوى. فجأة انقض عليه عصفور كبير فخطفها منه وطار. ظللت أتأمل وجه العصفور المسروق الذى لم يلبث أن طار متعقبا خصمه..ولقد لمحت وجه تلك السيدة فى نفس اللحظة التى توارى فيها كل منا عن الآخر لأسبابه الخاصة. نعم لقد كان وجهها شاحبا حزينا لكنه كان يحمل بقايا جمال قديم شرخته الأيام، ولمدة كسر من الثانية لمحت فى عينيها تلك النظرة الكسيرة المنهزمة ، فانتابنى شعور قوى بأننى وحش كاسر عديم القلب والاحساس والضمير.
عدت الى البيت. بعد خروجى من الحمام أفطرت جبنا وبيضا وزيتونا وبصطرمة ومربى وشربت الشاى ودخنت سيجارة لأؤكد على نفسى ذلك الشعور القوى الذى انتابنى أمام نظرة تلك السيدة.
أثناء الافطار سقطت منى قطعة من الجبن على الأرض فألقيت بها فى سلة القمامة المنزلية الأنيقة لأدعم من تأكيدى على نفس الشعور، وأتلذذ بتعذيب نفسى فأمعن فى التلذذ، انتقاما من هذا المشهد الافتتاحى أمام باب منزلى ليوم من أيام حياتى التى لم أفهم لها معنى محددا حتى الآن. لقد كنت على يقين من أننى أحد المسئولين عن حدوث هذا المشهد ، وأن عاقبتنا جميعا – أنا ومن هم على شاكلتى من المنعمين- سوف تكون سيئة فى الدنيا والآخرة.
ما أن جلست الى مكتبى حتى جاءنى الساعى بالقهوة المحوجة ووضع لى وردا جديدا بالفازة ورش الحجرة بالعطر وأدار جهاز التكييف ، حين أشعلت سيجارتى الثانية وذهنى خال تماما من

الديدان والسيدة والعصافير الصغيرة والكبيرة وصناديق القمامة وحكام العالم الثالث وسياسة الغاب التى صارت تحكم الحياة.تصفحت الجرائد.كان برجى يقول:"احرص على سعادتك من عيون الآخرين"..كانت العناوين الرئيسية فى صفحة الحوادث تشير الى العديد من قضايا الفساد وكان أبطالها جميعا من كبار موظفى الدولة الذين تبلغ دخولهم السنوية ملايين الجنيهات والديدان وقطع الجبن الملقاة فى سلال القمامة الأنيقة وقطع اللحوم الملقاة فى صناديق القمامة الكبيرة.

كعادتى لم أستغرق أكثر من دقائق قليلة فى النظر الى العناوين ثم بدأت العمل بالجلوس الى الكمبيوتر لمتابعة الرسائل الالكترونية الواردة الى الشركة.

● ظهـر اليـوم:

أعدت زوجتى للغداء سمكا مشويا وأرزا بطعام البحر وسلطة خضراء وسلطة طحينة وخرشوف مملح، ولأن أحد الأبناء لايأكل السمك، فقد أعدت له عدة شرائح من اللحم المشوى تكفى فردين.

أكلت بشراهة بعد أن تأكدت تماما - مرة أخرى- من أننى وحش كاسر عديم القلب والاحساس والضمير. اتجهت الى فراشى لأنام ساعتين كالمعتاد حتى أستطيع أن أسهر مع كتبى وقراءاتى المتنوعة التى لاتنقطع ،بينما الموسيقا الخافتة تهمس فى أرجاء المكتب. قبل النوم قلبت "الريموت" على قناة يسب فيها متحدث عربى مصر ، ويتهمها بالتخاذل أمام الهجمة الصهيونية الأمريكية الشرسة على العرب،وفى ركن الشاشة كانت مشاهد تصور اقتحام الجيش الاسرائيلى لبيوت الفلسطينيين بالدبابات والجرافات ، بينما الأطفال يجرون يمينا ويسارا فى غير فزع وهم يقذفونهم بالحجارة.

غيرت القناة فظهر جنود الجيش الأمريكى وهم يقتحمون بيوت العراقيين الأمنين ويفتشون نساءهم وشبابهم وشيوخهم وأطفالهم ، ويضربونهم بكعوب البنادق بقسوة ووحشية وهمجية. سارعت بتغيير القناة فظهرت فتاة نصف عارية تتلوى وتتأوه وهى تغنى بكلمات تافهة لاتعنى شيئا. أغلقت الجهاز ورحت فى نوم عميق.

قمت من النوم متجها فى آلية معتادة الى الثلاجة. التهمت ثمرتين كبيرتين من المانجو ثم شربت أكثر من نصف زجاجة مياه معدنية مثلجة وقلت الحمد لله من صميم قلبى على نعمه التى يخصنى بها ويغرقنى فى نعيمها ، وأنبت نفسى كثيرا على قلة شكرى له على عطاياه التى لاتعد ولاتحصى ، ثم طمعت فى ثمرة ثالثة ما أن قطعتها بالسكين حتى وجدت دودة طويلى تسرح فى قلبها. كدت أتقيأ ما اكلته فسارعت بإلقاء الثمرة فى سلة القمامة الملونة الأنيقة. فى تلك اللحظة ترامى الى سمعى نباح كلب يأتى من الشارع.كنت ناقما بشدة على البائع الذى غشنى ، فأنا لا أسرق النقود التى دفعتها له، وإنما أعمل بها من الثامنة صباحا حتى الثالثة من بعد ظهر كل يوم من أيام حياتى التى مازلت أحاول عبثا أن أفهم لها معنى محددا حتى الآن.

شربت الشاى وأجريت بعض المحادثات التليفونية مع أصدقائى وصديقاتى وهم كثيرون لاحصر لهم، ومعظمهم لايرجى منهم نفع ولافائدة، أما أضرارهم فلا مفر منها ولا مهرب من ضرورة تحملها ، فأنا لا أستطيع العيش بدونهم ، لأنى أكره الوحدة وأمقت العزلة والتقوقع.

جاء البواب ليحمل كيس قمامة المنزل ويضعه فى صندوق القمامة الكبير الموضوع فى الشارع بجوار باب المنزل. كنت قد طلبت منه شراء"قاروصة" سجائر ومزيلا للعرق. أعطانى بقية الحساب ونفحته بقشيشا لابأس به وانصرف غير شاكر لاعتياده واعتيادى على ذلك. والحق أنه لايتبرم عندما لا أعطيه شيا وكأن الأمرين لديه سواء، وهذا مايثير دهشتى أحيانا.. الفارق كبير بين نظرة الاستقرار والطمأنينة الساكنة فى عينيه و نظرة اللوم الدفينة الناطقة فى عينى السيدة ، والتى تبدو كما لو كانت موجهة الى الكون بأسره..كان يحيرنى كثيرا أننى لست أدرى هل كانت تبحث عن الطعام فى صندوق النفايات لنفسها فقط ، ام ان هناك أفواها أخرى كانت فى انتظار هذا الطعام.

شعرت باحترام شديد لشجاعتها وواقعيتها ورفضها الاستسلام لليأس، ومن ثم فقد تعاظم شعورى إياه وتضاعفت حدته، لكنى لم أجرؤ على التفكير فى قتل نفسى قصاصا من أى شىء أو احتجاجا على أى شىء، فعرفت أننى لا أختلف كثيرا عن الدودة التى كانت تمرح فى ثمرة المانجو أو الكلب الذى كان يشارك السيدة فى البحث عن طعام أو الكلب الذى كان ينبح فى الشارع منذ قليل..حقا لقد عرفت ذلك ، ولكنى التزمت الصمت.

● بعد المغـــرب:

جلست فى الصف الأمامى بالقاعة التى عقدت فيها الندوة ، مدفوعا بنهمى الشديد الى مراقبة البشر عن قرب، وتأمل نظرات أعينهم ، والنفاذ قدر المستطاع الى أعماق سرائرهم ، بعد أن يتحولوا الى كائنات أخرى بفعل تحول ظروفهم من فقر وفاقة الى ثراء وجاه ، ومن ضعف وذلة الى قوة وتجبر.. فأنا مجنون بمراقبة فعل الزمن على الناس وأشياهم رغم ثقتى بانعدام جدوى تلك المراقبة على الاطلاق. كل ما أحصل عليه منها هو اشباع مؤقت لحب استطلاع خبيث. كانت الضيفة كاتبة شهيرة تمت الىّ بصلة قربى بعيدة. كان هذا أحد دوافع حضورى ، فضلا عن اهتمامى بعنوان الندوة الذى تزايد بعد حادثة الصندوق.

عرفتها منذ صباها وهى تخطو خطواتها الأولى فى دنيا القلم.كان تواضعها الاضطرارى فى الملبس قرينا لتواضعها الاضطرارى فى التقرب الى أهل الثقافة والفكر وهى تعرض عليهم بضاعتها..اليوم هى نائبة لرئيس تحرير جريدة قومية كبرى. دخلت الى القاعة فى خيلاء تحفها كوكبة من الصديقات والمقربين ، وقد ارتدت فستانا فاقع اللون وإن كان أنيقا فى تفصيله على جسدها. لم تنجح كمية المساحيق والأصباغ التى غطت وجهها فى إخفاء معالم كهولتها، وفشلت فى مداراة جلدها المتغضن وتجاعيده الغائرة. يدور موضوع الندوة حول التكافل الاجتماعى. بين اللحظة والأخرى تزيح خصلة شعرها المستعار بعيدا عن عينيها برقة مصطنعة. بدأت بالتحدث فى زهو ملحوظ عن تاريخها الأدبى، وقد تركت فتحة قميصها عند الصدر عرضة للهواء بحيث ينكشف للناظر عن قرب جزء لا بأس به من ثدييها المخادعين..ولأننى لم أكن قد رأيتها منذ سنين عديدة فإننى فى البداية لم أكد أعرفها على الاطلاق، وحين تقدمت لمصافحتها ترحيبا بها قبل صعودها الى المنصة ، تظاهرت بأنها لاتعرفنى أو لاتذكرنى ، وأنها تبذل جهدا ملموسا حتى تتذكر من أنا!!..

من المستحيل أن أذكرها بأننى ابن السيدة الكريمة الراحلة التى كانت تجمع الصدقات من اخوتى وتعطيها لأبيها وهى فى عمر الصبا.

لما صارحتها بإسمى سألتنى في برود عن أحد أشقائى ثم تجاهلتنى على الفور. لم تستطع النظر فى عينى اللتين كانتا بمثابة مثقابين من فولاذ ينفذان منذ أكثر من عشرين عاما فى قلب صدرها العارى الملتهب بين ذراعى، ومن حولنا كؤوس وزجاجات ولسانها يهذى بكلمات متناثرة عن العبث واقتناص اللذة قبل أن يأتى الفناء. أغلب ظنى أنها تذكرت تلك الليلة بمجرد أن رأتنى..لكن يالها من جبارة تلك السيدة التى استطاعت قدماها أن تحملاها لتنحنى على صندوق القمامة باحثة فيه عن بقايا طعام. انما الجبار الحقيقى هو الزمن الذى يعبث بعيون البشر فينطقها بما يكتمون.. كانت السيدة تغطى شعرها بطرحة سوداء كالحة، وحين تحدثت الكاتبة الكبيرة عن التكافل الاجتماعى أكدت على أن الحب بين أفراد المجتمع هو الحل الذى لابديل عنه لقيام التكافل ، وإذا بأذان العشاء ينطلق من ميكروفون مسجد قريب، فتوقفت على مضض عن متابعة الحديث حتى انتهى الأذان وكف الحاضرون عن الثرثرة.. ثم فوجئت بسيل من هجوم الشباب بأسئلة وتعليقات عن التفاوت الرهيب فى دخول المواطنين وعن البطالة والوساطة فى تعيين أبناء الواصلين وعن اغتراب الشباب وتزايد أعداد المتسولين والمشردين بالشوارع ، الى أن وقف أحدهم قائلا لها

بابتسامة خبيثة وأدب مصطنع:

- حدثينا عن الظلم الاجتماعى لاعن التكافل الاجتماعى لو كانت لديك الشجاعة الكافية !

تعثرت فى الرد وارتبكت فلم تقدم للشاب جوابا مقنعا سواء من منطلق دنيوى نسبى أو من منطلق دينى مطلق. لم أعرف لارتباكها سببا وهى المتمكنة من التلاعب بالكلمات ، لكن يبدو أن قسوة الواقع كانت أشد سطوة من بيانها، كما أننى لاحظت أنها كانت تنظر الى فى غير ارتياح وهى تتكلم من حين لآخر كلما تلاقت الأعين..ولما لم أجد جدوى من مواصلة التواجد فى لجة هذه المهزلة غادرت المكان وكلى دهشة لعدد الصحافيين والمصورين الذين جاءوا لتغطية وقائع هذه الندوة الفاشلة.

فى طريقى الى باب الخروج سمعت تعليقا عابرا من احد الشباب يقول:

- ليتها تموت وتريحنا هى والكذابين من أمثالها

ولعل السيدة كانت تفكر فى حل لمأساتها بينما كنت أعبر أمامها وعلى رأسى "كاسكيت" مكتوب عليها "USA" هى فى الأصل من الممتلكات القديمة لأحد أبنائى بعد أن استبدل بها كاسكيت جديدة بلا شعار.

فى أول الأمر وضعت شريطا لاصقا معتما على الحروف الثلاثة ، لكنه سقط فيما بعد أكثر من مرة، فتركتها غير عابىء بآلاف أطنان القمح التى يلقى بها الأمريكان فى النهر حتى لاينخفض سعره العالمى، وحتى لاتجد السيدة رغيفا طازجا وقطعة من اللحم وطبقا من الخضروات وسكنا آمنا وفراشا نظيفا ووقت فراغ تذهب فيه مع أبنائها الى حديقة عامة ، أو تحضر معهم ندوة عن التكافل الاجتماعى.

● مســـاء اليوم:

فى طريقى الى نادى"اليخت" المطل فى دلال على البحر، كنت أرقب فى فضول صناديق القمامة المرصوصة بطول الشاطىء ، وكان الناس كثيرون جدا.. يأكلون ويتمتعون لاهين بالأمل غير عابئين بشىء، والنساء يدخن "الشيشة" على المقاهى بجوار أزواجهن السعداء، فما الداعى للقلق وعقد الندوات للحث على تكافل ماهم بحاجة اليه ، فكل يتكفل بنفسه ويحصل على طعامه بأية وسيلة حتى ولو من داخل صندوق قمامة.. أنا مثلا مدعو للعشاء مع شلة اليخت على سمك مياس وبلح بحر وما تيسر من مشروبات نختمها عادة بالقهوة "المظبوط" ونظل ننفث دخان سجائرنا فى الفراغ.

انطلقت صهاليل النساء فى أرجاء المطعم الفسيح المكيف فشعرت بنشوة الحياة وبهجتها. أنا لا أحب التجمعات الذكورية المملة الخالية من النساء ، بل انى أرى فيها شذوذا عن طبيعة الحياة السوية التى تجمع بين الرجل والمرأة فى كل شىء.

على استحياء ناعم سألت احداهن طبيب أمراض جلدية عن علاج لحكّة يعانى منها قريب لها فى مكان حساس. أيقنت على الفور أنها تتحدث عن حالتها هى ، إذ يمنعها الحرج من المصارحة أمام الملأ. يجلس الى جوارها زوجها المهندس المعمارى منهمكا فى حديث جانبى مع حسناء مطلقة عن كلب زوجته الذى يقاسمه نصيبه من الجمبرى.قالت زوجة الطبيب ، وهى تتمتع بخفة ظل لاتخلو من خبث جميل:

- تكلمى بصراحه ياسوزان. لاحياء فى الطب. من هو المريض الحقيقى؟

نظرت سوزان من حولها فى حرج غير أصيل ، محاولة كتم ضحكة تلح عليها ثم قالت:

- سأقول اسمه ولكن فيما بعد

استعرض الطبيب أسباب الحكة المحتملة فأوقع سوزان فى حيرة ألزمتها الصمت، حين أصرت زوجة الطبيب على مطاردتها:

- من هو يا سوزان؟

عندما انتبه زوج سوزان الى الحوار حسم الأمر قائلا:

- روكى !!
- كلبك؟!

صاحت زوجة الطبيب بنبرة تفيض عطفا وحنانا وانسانية:

- ياحبيبى

وهنا أكد الطبيب على أن سبب حكة روكى هو أكل الجمبرى ، ثم تبين أن صاحبته تطعمه كميات هائلة من الشكولاتة الفاخرة ،- فحذرها الطبيب من اصابة الكلب بمرض السكرى ، وأكد لها أنه سوف يصاب بالعمى لو استمرت فى تدليله بهذه المأكولات.

ثم انتقل الحديث الى كلب الطبيب نفسه حين هاجمه كلب آخر أضخم منه فطرحه أرضا مما أدى الى كسر ساقه- وقد حدثت الواقعة فى أمريكا- وأجريت عملية جراحية للكلب فتم تخديره وتجبيسه بالفيبر جلاس باللون المفضل للزوجة والمتجانس مع لون الكلب ، وكان جيرانه الأمريكان دائمى التردد عليهم للسؤال عن تطور صحة"هونى"والطمأنينة على حالته النفسية بعد نجاح الجراحة التى كلفتهم ثمنا باهظا.

● آخـــــر الليل:

كانت زوجتى مهيأة فوق العادة لاستقبالى ، وكان مزاجها رائقا ، اما ابتسامتها فكانت موحية بقضاء ليلة سعيدة ، وهذا ماكان.. ثم نمت نوما عميقا فلم أشعر بنفسى الا حين دوت صفارة المنبه معلنة السادسة من صباح يوم جديد.

2003/8/18

تحت البنج
هلوسة قصصية
****
- 1 -

غرسوا حقنة البنج المخدر فى وريدى تمهيدا لإجراء العملية الجراحية التى قد تطيح بى بعيدا عن الوعى الى أجل محدد أو تبعده عنى الى الأبد.. لم أشعر بشىء.

- 2 -

وهو منهمك فى حبها وقد استبدت به النشوة ، لم يكن من الطبيعى أن ينشغل فكره فى تلك اللحظات بكونه مخلوق طينى نفخ فيه من روح الله. عند بلوغه الذروة ألقى بنطفتى فى قرار أمى المكين. ظلمة داخل ظلمة داخل ظلمة وغذائى دم. قيل لى اننى سأعيش حياة بسيطة لا أجوع فيها ولا أعرى. لن أملك قصرا أو ضيعة كما لن أملك ثروة ولا جاها ولا سلطة ولا شهرة. لم أدرك تماما هل يعنى هذا أننى سأعيش سعيدا أم تعسا ، فالأمر كما فهمت بعد ذلك مرهون بقدرتى على التصالح مع الحياة.
ما رأيته ولمسته و أنا فى غياهب الظلمات أن أبى لم يكن سعيدا على الاطلاق، رغم انه كان يتمتع بقدر من المال وبعض من الممتلكات ونوع من الجاه وشكل من أشكال السلطة. كانت أسباب السعادة الحقيقية مسألة صعبة على إدراكى الذى لم يكن قد تشكل بعد، بل و انها مازالت كذلك حتى اليوم .. اننى لم أعرف ان كانت هذه الأسباب ثابتة مطلقة ، أم أنها تختلف من إنس الى آخر. ما كان أغنانى أن أقع فى حبائل مثل هذه المسائل الفلسفية الشائكة لولا أن صاحبنا - بنهاية جولة متعته – قذف بى فى ارتعاشة لذيذة الى خضم الحياة ، ثم نسينى تماما.

-3-

لقد كتب على البحث والتجوال فى عالمى الداخلي فى اللحظة التى تشكلت فيها نطفتى على وجه التحديد.. ظننت أن انتقالى الى طور آخر سيعفينى من المكتوب ، أو يستبدل به مكتوبا آخر أكثر يسرا على النفس والعقل والروح ، لكن تبين لى انه قدر أزلى أبدى يحتوى أطوارى التالية جميعا ، فأبحث وأنا علقة ، وأجول وأنا مضغة ، وأستفسر وأدرس و انا عظام ، وأغوص فى قيعان الفكر وأنا لحم ، حتى أغرق فى لجة الوجود وأنا مخلوق آدمى بطينه وروحه.
العوالم الانسانية التى كتب على أن اجول فيها تحتمل مسميات عديدة ،فهى داخلية وهى سفلية وخلفية وماورائية ، وبنفس القدر فهى منطلقة من الأرض حيث الواقع و الخارج والداخل والعلوى والأمامى والورائى والفوقى والتحتى.. من هنا لم تكن هناك ضرورة لتسلسل

التجوال من طور الى طور ، اذ امتزجت جولاتى بامتزاج أطوار خلقى السبعة ، فانشطر عنصر الزمن الى ذرات مشتتة تسافر حين تشاء الى أين تشاء...

ورغم ضآلتى اللانهائية ، الا أن مددا رهيبا من المعرفة كان يأتينى من مصدر شديد الغموض لم أجرؤ لحظة على التفكير فى ذاتيته ، فقد علمت منه مثلا أن خارج حدود جسد أمى هناك عالم وحياة ودنيا وأرض وسماء وكواكب وبلاد كثيرة تفصل بينها محيطات وأنهار ، ويتحدث أناسها بلغات عديدة ويدينون بديانات مختلفة..كما علمت أن الانسان يحب ويكره ، ويولد ويموت ، ويتشبث بالأرض ويتعلق بالسماء ، وأن قوته الحقيقية فى روحه لا فى جسده.

رغم معرفتى المبكرة بهذه الأشياء ، فقد كان همى الأول أن أكسر حاجز الجسد وأنطلق مستقلا الى فضاء الحياة. وعندما تحقق لى ذلك فوجئت بأننى كائن صغير الجسم لايتجاوز وزنه أربعة كيلوجرامات ، وبأن عدد السنوات التى سأبقى فيها على الأرض أمر مجهول لن يتسنى لى معرفته مهما كانت حصافتى ومهما بلغت قدرتى على التنبؤ.

-4-

ما أن امتلأ صدرى الصغير بأول شهقة حياة أوكسيجينية حتى تناثرت أمامى عشرات الأسئلة: من أنا وماذا أريد، وكيف ولماذا جئت، وهل بى رغبة أصيلة فى هذا المجىء الى هذا العالم، وكيف سأعاشر فيه الإنس والجن، وما الحكمة فيما كتب على من بحث وتجوال؟؟؟...اعتصرتنى الحيرة وشعرت بألم شديد يجتاح كيانى بأكمله، حتى خيل الىّ أن الحياة عذاب لن ينتهى، وأن العودة الى العدم أفضل بكثير من معاناة لاجدوى منها.لكن الفرج جاء مسرعا ، فإذا بصدرى ينشرح فجأة، وإذا بالطمانينة تغمر قلبى، وإذا بهاتف يؤكد لى بنبرات هادئة واثقة مطمئنة أن الأمر كله خارج عن إرادتى، وأننى مهما فعلت فلن أغير من الأمر شيئا رغم أننى مطالب بالاجتهاد والفعل منذ لحظة مولدى وحتى لحظة مماتى.

هكذا تمكنت فى لحظات خاطفة غامضة من التخلص من حمل ثقيل لامعنى لأن أثقل به كاهلى متطوعا دون ان يطلب منى ذلك...ولقد استوعبت الموقف على قدر فهمى المحدود ، وتركت نفسى سائحا فى ملك الله الواسع، وكان معى قلم وبضعة أوراق تحسبا لتسجيل ماقد ينتفع به غيرى من مشاهدات لأحوال وأفعال وأقوال.

ما أن أصبحت كائنا يدب على الأرض بقدمين حتى انقبض صدرى وفرت الطمأنينة من قلبى مرة ثانية، ولم أجد ملاذا لى غير حلم العودة الى ظلمة الرحم من جديد كى استفسر عن أسرار المتاهة التى وجدت نفسى حائرا فى أرجائها اللانهائية الأبعاد..ولما كان الأمر مجرد حلم فقد تعذرت على العودة الى الداخل ، إذ طردت بقوة ضاغطة هائلة الى الأرض مرة أخرى وسمعت صوتا هامسا يقول لى:

- انزل.لقد وجدت ، فلا معنى لأن تغيب

وجلست مع صديقى المقرب نأكل ونشرب ونتمتع ويلهينا الأمل.كان بصحبة كل منا رفيقته. نخوض فى الكلمات باهتمام وكأننا نحاول التأكد من وجودنا وإثبات أنه حقيقة. سمعنا طلقات رصاص خارج الملهى الليلى.خرجت وحدى أستطلع الأمر. المبنى شاهق وعليه عشرات اللافتات تعلن عن عيادات أطباء ومكاتب محامين ومحاسبين وشركات سمسرة وصرافة ومقاولات ومعارض للحاسبات الآلية وأساتذة علم النفس وتجار الأدوات الصحية. تداخل اللافتات أصابنى بالذعر..ما كل هؤلاء الناس المتدافعين للإعلان عن وجودهم وتواجدهم بتلك الكثافة المزعجة والتزاحم الخانق؟..ولما تبين لى أن أمر الطلقات لايهمنى ، هربت من رفاقى وحيدا الى الخلاء البعيد.. وتحت ظل شجرة علمت أن مجيئى الى الحياة لابد أن يكون مرتبطا بالقيام بعمل مؤثر يهم الناس ويفيدهم، حيث لامعنى لأن أولد لآكل وأشرب وأتناسل وأنام لفترة من الزمن طالت أم قصرت ثم أموت طبيعيا أو على أثر حادث.

نظرت فى نفسى فرأيتنى طفلا مرة وشابا مرة وشيخا مرة.عاودت النظر فرأيت الثلاثة وقد تجسدوا فى شخص واحد لكنه لم يكن أنا.. قال لى هذا الشخص بنبرة الناصح:

- انتبه..حياتك نعمة ولكن لامفر من البحث عن معناها!!

-5-

يمتلك هو ثروة هائلة، وتمتلك هى مؤخرة ذات استدارة متميزة . جلس على كرسى العرش فانتفخ واعوج لسانه ونسى أباه الكادح وأمه الغلبانة. فى زمن وجيز ابتلعت بغنجها ثروته بأكملها وجلست تدلك قدميه وهو منتفخ على كرسيه فساح وناح وقال ان الحياة بلا متعة لاقيمة لها، ولكنه لم يفكر فى نهايتها.

غطست فى الماء كى أتطهر. رأيت ثعلبا صغيرا مستغرقا فى الضحك.أمسكت بالوردة ذات اللونين الأحمر والبنفسجى وقد ذابا فى بعضهما بمرور الزمن. زوجها يحبها ويحترمها ويقدرها ولكن المسألة أنه لايحب الممارسة العملية لهذا الحب، ولايرغب فيها قدر رغبته فى عمله الذى يعشقه ويتفانى فيه مستغرقا به كل وقته. كرمه وعطفه وإنسانيته فشلوا جميعا فى القضاء على قلقها الدائم وتوترها العصبى ورغبتها فى ذلك الشىء الغريزى الممتع..الرجل كان ماشيا امامى كالثور منذ ساعات قليلة وإذ به يموت فجأة وكأنه هو صاحب القرار..أمسك الضابط مريض النفس بأدوات التعذيب وراح يتسلى فى ساديّة مقززة بأجساد المعتقلين.اشتهى من بينهم كاتبة شهيرة تجاوزت الأربعين. جمالها أصيل وقلمها سليط . تحرش بها فبصقت فى وجهه فصفعها بشدة على رقبتها..قالت له بثقة:

- ما أنت إلا عبد ، ولكن مايزعجنى حقا هو أنك سعيد بذلك

ولد صاحبنا فى وطن بائس يحوى شعبا بائسا يعيش حياة بائسة. الجمال والفن والديموقراطية والحب والموسيقا والشعر والحق والرخاء والوفرة والثقافة والعدل والمعرفة والحرية، كلها كلمات منقرضة.لم تعد مدونة فى قاموس كلمات هذا الوطن أو منطوقة فى لغته. أوجدنى فوجدت هنا كما قدر لى. سكن موج البحر تماما وتحول سطحه اللانهائى الى بساط أزرق يميل الى الاخضرار، وأجروا لها عملية ترقيع فى السر حتى تعود عذراء من جديد، فصاحبنا كان من ذلك النوع من الرجال الذين يهتمون اهتماما شديدا بذلك الغشاء ، والحق أنى أؤيده ، وإلا أصبحت الحكاية سداح مداح وهذا حرام فضلا عن أنه عيب..علمت أن ساسة الغرب يحتقرون الشعوب العربية ويسخرون من حكامهم. ركبت الجمل وخضت به الصحراء ، حتى انتهى بى الى عيادة طبيب شهير قال ان هناك ثقبا فى قلبى، وانه لابد من نشر أضلعى وتمزيقها حتى تتم عملية القلب المفتوح، وكنت فى غيبوبة داخل غيبوبتى الأصلية حين رأيت أشياء كثيرة تتساقط من قلبى، كل شىء فيها يناقض الشىء الآخر..ولن يكون هناك إخراج فى الجنة كما يقول الشيخ العلامة لأن خلقتنا ستكون فى صورة ملكوتية مختلفة عن صورتنا الآدمية الآن..ولن يكون هناك نهم أو جشع أو شهوة جامحة رغم وفرة الحور العين والكواعب الأتراب..المثير فى الأمر أن تلال الكتب ودوائر المعارف المختزنة فى تلافيف المخ ستؤول فى النهاية الى تراب، أما الروح فتسافر بعيدا الى أجل مسمى، وعندما تلتقى بجسدها من جديد سيكون الزمان والمكان والأحوال فى صورة مختلفة تماما. لن يسمع أحد كلمة أمريكا أو مجلس الأمن أو آبار البترول أو بورصة الأوراق المالية أو حرب الخليج أو الميكروسوفت أو القنوات الفضائية أو حكام العالم الثالث وكلابهم الدائمة اللهاث والنباح. سوف تختلف المفردات تماما. ستنعقد محكمة عادلة يتم تنفيذ أحكامها فى التو واللحظة لينال كل انسان ما يستحقه من نعيم وسط الحور والفواكه والخمر والجنان والأنهار ، أو من جحيم وقوده الناس والحجارة . مهما كانت مدة البقاء على الأرض فالنهاية واحدة وهذا أمر بديهى يعرفه الجميع . ترديدى لهذا الأمر البديهى لايعنى أنى أقدم شيئا جديدا، وإنما أنا أحاور نفسى ممعنا التفكير فى مغزى ألا يعرف مخلوق واحد على الأرض متى تقوم قيامته حتى يصرف أموره الدنيوية على هذا الأساس..وكنت أحلم بنظرة عطف منها فإذا بها تتذلل وأنا أنفر واتعالى ، ولاعجب فإنها دنيا الأغيار المحتشدة بالأعاجيب والأسرار، ومنها أن الشهوة زمنها غاية فى القصر وكلما ازدادت

حدتها انطفأت جذوتها فى لمح البصر ثم أعقبها النسيان ، أما المسرات فهى كالأحزان تماما ، وخيبة الأمل غالبا ماتكون الحصيلة الأخيرة ورغم ذلك فالقتل لايتوقف أبدا بالرصاص والمدافع والغازات السامة والهراوات الغليظة والأقلام والقنابل وأسلاك الكهرباء الصاعقة وباغتصاب النساء وخرق الرجال ، وبالسكاكين والمشانق وبالأحكام المقننة، فهى اليوم اشتراكية وغدا رأسمالية وبعد غد فوضوية والناس تسير فى الشوارع تحمل الطعام لأولادها أو تسعى لأغراض أخرى والراكبون منهم والمترجلون يتوقفون دائما للفرجة وهم يعتقدون أن لكل شىء نهاية ولكن البعض منهم غير واثق من ذلك.

على وجه العموم فإن الغالبية العظمى ممن عرفت من هؤلاء الناس وممن لم أعرف كذابون، خاصة اولئك المهتمون بالاقتراب من السلطان، رغم أن دملا صغيرا فى المؤخرة أو احتباسا مفاجئا فى البول أو ارتفاعا طارئا فى ضغط الدم قد يسفر عن موت مفاجىء..حينئذ لن تكون هناك أهمية لبناء مسجد أو كنيسة أو لاعتداء مسلم على مسيحى أو مسيحى على مسلم ، او دخول ذكر فى فرج أو خروجه منه .

-6-

العربة طويلة جدا ماشاء الله ولكن بداخلها شلل رباعى وزجاجة ويسكى، وصاحبنا أصابه الفكر والتدبر بالعجز ولم يستطع أن يفعل لنفسه شيئا، فيما كانت ذكريات الحياة ضاغطة على أنفاسه ونبضاته . الماضى لايمكن أن يعود. حتى لو حاول اجباره على العودة فسيكون طعمه ماسخا وشكله شائها، وفى أغلب الأحوال سيكون مدعاة للحزن والرثاء وربما لسخرية الآخرين ، وإن من عبادى من لايصلح ايمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، وكيف يمكن لأى مخلوق أن يداوم فى حياته على الشعور بالفرح والبهجة قدر استطاعته ولو لعدة ساعات كل يوم من عمره؟..التقلص والانكماش والتقهقر سنة كل شىء ثم الزوال فى الخاتمة، وقالت لى السيدة إياها ان زوجها كان عنينا ورغم ذلك فقد انجبت منه طفلا وطفلة ، لكنها طلبت الطلاق وظلت سنين عديدة تنتظر الفارس المغوار القادر على إشباعها حتى تجاوزت الخمسين دون أن يصل. انى أرثى لحالها فهى لم تتذوق لذة امتزاج مائها بماء رجل فى لحظة مقدسة هى سر الحياة..تلك اللحظة التى ينفق الخلق عليها الملايين ، ولأجلها تسيل الدماء وتهتز العروش والممالك..وكيف ينصحنى هذا المعتوه بألا أكبر بينما تقدم العمر أمر لاناقة لى فيه ولا جمل ، حيث لامفر من عذابات الشيخوخة وآلامها.. وبعض الذين لايصمدون ينتحرون فلا فرق هنا بين عالم أول وعالم ثالث ولا بين فرح أو الم ولا بين يأس أو امل.

كان ساذجا إذ واجه المرأة بالحقيقة ولم يعرف كيف يطرى محاسنها الوهمية وقدراتها الخارقة الزائفة وجمالها المقدم لها كعهدة مؤقتة من خالقها، بينما يختصر غيره الطريق فيضع لها فى سروالها هدية ثمينة تهيؤها لخلعه فى أقصر فترة زمنية ، وقد قال دستويفسكى انه لاشىء فى الحياة أصعب من التعامل مع المرأة بصراحة ولاشىء أسهل من التعامل معها بالمديح والإطراء.

أروع ما فى الحياة اننا ننسى أنها مجرد حلم لانفيق منه الا عند الموت ، وقال صديق ان الأيام الخراء فائدتها النوم ، ولذلك لاأجدنى أفيق أبدا من حلم الحياة، وما انتفاعى بحياة أولادى وأحفادى من بعد موتى حيث لن أشعر ولن أحس ولن أفهم ولن أتكلم ولن أعمل؟!!!...ولو أوجزت لى القصة بأكملها فى جملة واحدة هى:

- هو مات وهى تزوجت والولد انتحر والبنت هاجرت والبلد رايحة فى ستين داهية!!

- 7 -

قالت لى آمال – والتى لابد أن تكون قد ماتت منذ زمن بعيد - ان الرجال السذج يعتقدون أن المرأة أكثر رومانسية من الرجل لجهلهم بأنها أكثر واقعية منه، ولكنها اعترفت فى الوقت ذاته بأنه ما من مصيبة تحل برجل إلا ويكون وراءها امرأة..وقال جل جلاله :"انى ادير عبادى بعلمى بما فى قلوبهم"..إننى اعانى من ذهول غبى حين أرى رجلا يتبرأ من العدل فيتآمر ويغتصب الحقوق متخليا عن كرامته وانسانيته لمجرد أن يجلس على مقعد معين فى حجرة

معينة بمبنى معين لأجل مسمى رغم أنه لايعرف توقيته..هو يتصور فقط أنه سيد وكبير ومتميز وعال فى الأرض. العبد الحقيقى الطائع لسيد يكفل له قوت يومه يبدو فى رأيى أكثر تعقلا واحتراما منه ، وربما كان أكثر سعادة. حتى الآن أنا لا أعرف ماذ بعد أن اكون أغنى الناس وأشهرهم وأعلمهم وأعلاهم سلطة..ماذا بعد؟.. الناس الذين أحببتهم وماتوا كثيرون ويحز فى نفسى اننى لن أستطيع رؤيتهم مرة ثانية قبل أن أموت مثلهم، وقالت لى عفاف بنبرات حانية وعينين ودودتين تفيضان بالفضول والدهشة:

- أرنى يدك

سلمتها يمناى فأمسكت بها وراحت تتحسس بطنها برفق جميل ثم قلبتها وتحسست ظهرها، وإذ بها تضحك فى حياء صادق وهى تقول:

- ألا تلحظ أن يدك أكثر نعومة من يدى؟
- هذه حقيقة فأنا لا أغسل المواعين مثلك
- سلمت لى أصابعك التى خلقت لما هو أجل من ذلك

ورفعت يدى الى فمها وقبلتها بكل ما فى الدنيا من وداعة ورقة. لم تشفع لحظات الرومانس المتسامية لخيالى أن يكف عن تجريدها فى نفس اللحظة من ملابسها وأن أنصهر معها فى أتون النشوة الحالمة تحت ظل الشجرة قبل أن يتقلص عنا ظلها.

-8-

كان جل همه أن يستدرجنى بكل ما اوتى من حيلة وفطنة ، حتى يستضيفنى فى قصره العظيم بضاحية صحراوية من ضواحى الاسكندرية ذات الهواء الجاف المنعش والهدوء الفائق والسكينة التى تجلب للنفس الطمأنينة والصفاء. كان القصر فخيما تحيط به حديقة أشجارها نادرة مغطاة بأوراق وورود ألوانها تأسر العين، وكان تغريد الطيور على أغصانها يشفى علة القلب..ولقد نجح فى مسعاه، وأغلب ظنى ان نجاحه فى التمكن من إغرائى بقبول دعوته لم يكن راجعا بالدرجة الأولى الى حصافته بقدر ما كان راجعا الى حب الاستطلاع المرضى الذى يستبد بى منذ لحظة مولدى كما أشرت من قبل، فضلا عن نهمى الشديد للرغبة فى الغوص بأعماق كل نفس بشرية التقى بها فى حياتى ولو لثوان عاجلة، وكأن الله لم يخلقنى إلا لهذه المهمة فقط.

راح يقدم لى ما لذ وطاب من طعام وشراب ومخدرات لعلى أرى وأشهد بعينى ما قال أنه استطاع إنجازه فى حياته بعد جهد جهيد وقبل ان يحال الى التقاعد منذ أشهر قليلة.. والحق أننى لم أكن أدرى ، بل ولعلنى مازلت لا ادرى حتى هذه اللحظة ما الذى يفيده أو يفيدنى من رؤية هذا الإنجاز والتحقق من حدوثه. ذلك أمر لايعنينى فى شىء ، فضلا عن أنه عديم الجدوى تماما..ربما يشكل عنده أهمية واهية زائلة لن يلبث أن يكتشف عبثها بعد حين طال أم قصر، خاصة لو علم أننى رغم مرور أكثر من عامين على هذه الواقعة لم يتصادف أن رويتها لأحد، وبالتالى لم يعرف أحد من أصدقائى أو معارفى أنه يمتلك هذا القصر الكبير الذى أفنى حياته كى يتحصل عليه.

كنت أشفق عليه من شعوره الكئيب بالوحدة بعد وفاة زوجته العاقر التى كان يكرهها بشدة..نصحته بالزواج فوجدت لديه قبولا شديدا للفكرة، حتى أنه ظل يطاردنى بالهاتف لعدة أشهر ويسألنى عن أخبار من أعرف من نساء قبل أن اقرأ نعيه فى احدى الجرائد.

بعد عدة أشهر مررت بنفس المكان لظرف قاهر فلم أجد القصر الفخيم ولا الحديقة النادرة ، كما لم أجد نفسى..كان هناك العدم ولا شىء غيره.

-9-

- انتظرنى انى قادمة اليك
-لا تتأخرى انى بانتظارك دائما
- حاضر..أنا فى الطريق
- ستذهلين لروعة المفاجآت التى أعددتها لك احتفاء بقدومك

- ولك عندى أيضا مفاجآت ستسر قلبك

الماضى والمستقبل لايعنيان لى شيئا فى هذه اللحظات. لامبرر للخوف من الزمن أو القدر أو المجهول فلا يد لى فى احدهم، وربما تجىء لتجدنى ميتا، وربما تموت بين يدى قبل أن نعيش معا نعيم الذوبان و نشوة التلاشى.

-10-

عندما بلغت السابعة والثلاثين قبل ميلادى، كان صاحبنا فى الخامسة والثمانين. يحدثنى عن زمن كانت تباع فيه البيضة بمليم- أى بمعشار قرش- فأخبره أنها تباع اليوم بسبعمائة وخمسين ضعفا. يحدثنى عن الدستور والحرية والديموقراطية والأحزاب ، وعن اللافتات التى كانت تتصدر مداخل عشرات البيوت فى الشارع الواحد معلنة عن شقق خالية للإيجار. قلت له اننى لم أستطع حتى تلك اللحظة أن أدبر مبلغا من المال يمكننى من الحصول على شقة، ولهذا كلما تقدمت لخطبة فتاة رفضنى أهلها.

دون أن ندرى تطور الحوار بيننا واحتدم حتى أصبحنا نتكلم فى وقت واحد ، ومن شدة حرقتنا لم يكن أحدنا يستمع الى الآخر. الأحفاد مشغولون بالانترنت وأغانى الفيديو كليب. الأبناء تلتهمهم أسماك القرش البرية فى وطنهم ، فيحاولون الهرب من الحدود الى أوروبا، معتقدين أنها طوق النجاة وباب الأمل للحصول على عمل. يغرقون وتلتهمهم أسماك القرش البحرية. الفنانات المحجبات تقدمن لمشاهدى القنوات الفضائية دروسا فى الدين والفضيلة، والسيدات أنصاف الحرائر يمارسن الشات على الكمبيوتر مع رجال لايعرفونهن باستخدام الكاميرات الشرعية التى سجلت عناقا حارا بين الرئيسين المصرى والاسرائيلى. سأل الرئيس المصرى أحد وزرائه عن البلدة التى ولد بها فأجابه الوزير بابتسامة عذراء ورأس منكسة الى الأرض فى حياء قائلا: كما تحب ياريس.. وهناك قانون مصرى يحدد مواصفات بدلة الرقص الشرقى بحيث لاتكشف الراقصة عن مفاتنها المخبوءة كلها فتسبب للشباب الوقوع فى الخطيئة وللشيوخ التهاب البروستاتا، ولكنه يقول إنه فقد الرغبة فى النساء بحكم التشبع والاعتياد والعجز والملل، كما أن كل الأشياء المتاحة بما فيها البنى آدميين لم تعد تجلب له سرورا أو طمأنينة. تعجبت كيف سيكون حالى لو عشت حتى هذا العمر ، فيأتى على يوم لاأفكر فى شىء غير انتظار الموت.

-11-

على شاطىء سانتا مونيكا المطل على المحيط الهادى سوف أجلس يوما لآكل السمك ، بينما تعاكسنى الأمريكية بالعبث بين الحين والآخر بمكان حساس من جسدى أخجل من ذكره، وسوف تشتعل النيران فى البيت المتهالك بالحى الشعبى، لكن سلم المطافىء الحكومى العتيق لن يستطيع الوصول الى الشقة التى اندلع فيها الحريق، ولن يكون أمام رجال المطافىء الشجعان إلا أن يقتحموا هذه الشقة من خلال نافذة شقة أخرى مقابلة. أجادت سناء البيسى وصف الواقعة بأسلوب عبقرى حين ذكرت أن رجال الاطفاء اكتشفوا أن هناك سيدة فى تلك الشقة المقابلة ميتة فوق سريرها وتحت غطائها منذ عدة سنوات حسب تصريح الطبيب الشرعى ، وأن أحدا من اهلها أو أصدقائها لم يسأل عنها أو يزرها خلال هذه السنوات، ورغم ذلك كان هناك رجل يحدثنى بلغة اعتراض غبية عن صديق مشترك ، قائلا انه أصبح اليوم يمتلك أموالا طائلة فى البنوك وعقارات لاحصر لها فى مدن مختلفة بعد أن كان متواضع الحال، وكنت أستمع اليه فى غيظ شديد، وفى النهاية لم أستطع أن ألتزم الصمت فنهرته مختارا كلماتى بعناية شديدة قائلا له:

- وانت مالك ياعرص.. امش من قدامى..

وكانت هذه فرصة مناسبة ليعرف رواد الخمارة الرخيصة الفارق بين التحديث MODERNIZATION والتغريب WESTERNIZATION ، كما عرفت الراقصة الشهيرة انشراح الفرق بين الأصالة والمعاصرة، إذ انعكست معرفتها على ارتعاشات بطنها والتواءات خصرها واهتزازات مؤخرتها وانهيال أوراق البنكنوت على نهديها، وكان عوّاد

الفرقة ينظر فى سخرية الى تساقط الأوراق على خشبة المسرح وريشته تتقافز بخفة على الأوتار متنقلا بين المقامات بخبرة عمره ليبعث فى الكون بأنغام شجية تذيب أحزان الدنيا فى أفراحها، وأنا أستبعد تماما أنه كان يفكر فى تلك اللحظات بانسداد ماسورة الصرف الصحى وطفح القاذورات على أرض شقته، وياسلام لو ربنا أكرمنا ، ويااليل الصب متى غده، وياعينى عليك يامن تفهم للزمن معنى وللأيام مغزى وللحياة منهاجا.. دعنى أرثى لحالك ياشيخ وأخلع ملابسى وأرقص عاريا ابتداء من غروب الشمس وحتى طلوع الفجر لتسعة أيام متواصلة بلا انقطاع، فالواقع أننى على يقين من أن كثيرا من الناس جبناء..كينونتهم خواء. رجال بالشكل دون مضمون. يقبلون الظلم ويرضون بالذل ويستمرءون التسلط والقهر، وعلى قدر ثقتى بصفاتهم تلك ، فأنا أشك فى قدرتى على التوصل الى الأسباب التى تبرر قبولهم بهذه الدرجة الدنيا من الحضيض الانسانى واعتيادهم ذلك دون اهتزازة تململ واحدة بسيطة ، وكذلك أشك فى قدرتى على العثور على ذلك الكائن الانسانى المخلوق من آدم ، والذى يمكنه أن يستوعب الدنيا بأكملها فى عقله وصدره وقلبه وروحه استيعابا يجعله قادرا فى لحظة على استحضار خرابة جرداء تعوى فيها الكلاب فى منطقة مهجورة بأطراف مدينة قديمة فقيرة قذرة منهارة قبيحة ظالمة مظلومة، ويستحضر معها نقيضتها"جاملاستون"- المدينة القديمة باستوكهولم- حيث تبرق الشوارع - ذات البلاط البازلتى الأسود العتيق – بالنظافة ، وتحيط بها وتتخلل أزقتها الحدائق ، وترقص الزهور فى أوانيها المرصوصة على النوافذ والشرفات ، لتسرق العيون وتغمر النفوس بالمتعة والنشوة والانسجام..لو عثر علماء الحفريات على هذا الكائن فسيكتبون فى تقاريرهم أنه مات منتحرا وسيدللون على ذلك بأساليبهم العلمية، لأنهم لن يعرفوا أنه قد ترك ورقة مطوية كتب فيها أنه لم يستطع احتمال الحياة بعد أن قطع فيها شوطا طويلا..الأمر الغريب أن هذا الرجل نفسه جلس الى جوارى بصعوبة متناهية على مقعد من مقاعد صالة الانتظار بعيادة التأمين الصحى الضخمة الذى أنشأه جمال عبد الناصر. كانت أصابع يديه محروقة وملتصقة بعضها ببعض، وكان وجهه أيضا محروقا، وكلها حروق قديمة بقيت بعد إجراء العديد من العمليات الجراحية، رقد خلالها بالمستشفى ثمانية أشهر متعاقبة.كان يستند الى عكازين وكانت احدى ساقيه صناعية.. قال انه لم يستطع الحضور للحصول على علاجه منذ شهرين بسبب سوء حالته. سألته لماذا لم يرسل ابنه بدلا منه.قال ان الأبناء يختفون بعد زواجهم. من النافذة المطلة على فناء المستشفى رأيت شابا يحمل أباه الشيخ المشلول ليضعه داخل عربة أجرة كما لو كان يضع قفصا من الخضروات..قال لى جارى كلاما عن الوحدة والوحشة والخوف والموت والمرض والحياة قبل أن يصف لى تفاصيل الحادثة التى حطمته. كان يقود سيارته وبجواره صديقته التى يشتهيها ولكنها لاتمنحه جسدها خشية الحرام.اصطدم بعربة مسرعة فانفجر خزان الوقود واشتعل وانفتح الباب المجاور له بسرعة عن آخره. ما أن طارت منه رفيقته الى الأرض حتى قفل الباب من تلقاء نفسه بسرعة البرق ليبقى هو محبوسا وحده داخل العربة المشتعلة. أحاطت النار بالعربة مع تدفق البنزين من كل مكان . لم يتمكن من فتح أى باب من أبوابها الملتهبة.اضطر الى كسر الزجاج والقفز من داخله عبر سكاكين زجاجية حادة مشرشرة مدببة.كان تفسيره لما حدث أنه عقاب الهى لأنه كان يتخيل رفيقته خلال نومه مع زوجته.

استدرجته فى حوار طويل مراوغ حول مقولته حتى أتأكد إن كان صادقا أو معتوها فتهرب منى وخرج الى الزحام حيث تجرى كل الأجيال رجالا و نساء الى مصائرهم، وأجده يوما جالسا الى أحد الأرصفة يبيع أكياس الحلوى للأطفال مسندا عكازيه الى الحائط..أمنحه ورقة مالية كبيرة فيقبلها وهو لايكاد يصدق عينيه.بعد دقائق كنت أعانى الخوف والقلق والتوتر من كل الأشياء المجهولة فى حياتى، وكنت أشم رائحة الجنس والخمر ودخان السجائر والموسيقا والليل والنهار والشمس والقمر والرقص والغناء والحزن والبكاء والفراغ الجهنمى بداخل الصدر والقلب والنفس والروح وما يتولد عن ذلك كله من رغبة فى الفرار من الحياة لشدة حبى لها.

- 12 -

حين أفقت من أثر المخدر بعد انتهاء العملية استطعت بتركيز شديد أن أسترجع معظم الهلاوس والأحلام والأفكار والأحداث التى تراءت لى ، فتبين لى أن الأمر برمته لايستحق بذل الجهد لأجله فما حدث قد حدث ، وما سيحدث لا أعرف عنه شيئا ، وأنا إن كنت مخدورا أو غافلا أو نائما فلن أنتبه إلا اذا مت ، ولكنى أحمد الله على نعمة الحياة التى أعيدت الىّ بعد أن كنت على وشك الانتباه.

****

مارس 2007

الولايات المتحـــدة العـــربية

****

-1-

أرهقنى تكرار الحلم حتى كرهت نومى وبت أخشى مواجهة الفراش. ما أن أستغرق فى النوم حتى أرى نفسى وسط محفل من محافل الملوك والرؤساء العرب.أجلس على مقعدى صامتا أرقب حواراتهم ومناقشاتهم بعينين زائغتين قلقتين وقلب واجف ملؤه الرجاء والأمل أن يتفقوا يوما على تحقيق حلمى العظيم بالوحدة.لم يحدث فى حلم واحد أن عرفت كيف أو بأية صفة كنت أدعى الى هذه المحافل، لكنى كنت فى كل مرة محل قبول وترحيب، بل إن بعض الملوك والرؤساء كانوا يبتسمون لى أحيانا مما يقطع بأن وجودى مرغوب فيه، وبأننى سوف أدعى يوما ما الى الاشتراك فى الحوار لإبداء الرأى والمشورة.

ولأن أحدا لم يقدم لى هذه الدعوة ولو مرة واحدة ، فإننى كنت أجلس متأهبا والكلمات على لسانى، أستحث نفسى على الوقوف طالبا الكلمة..وكلما نجحت فى الوصول الى لحظة الذروة، وأصبحت على وشك اقتحام خجلى وترددى، أفاجأ بأنى أجلس حافيا فأنظر أسفل مقعدى ومن حوله فى هلع باحثا عن حذائى ولا أجده أبدا. يتصبب العرق على جبينى ورقبتى وظهرى ويعتصرنى الحرج وتصبح مشكلتى الدنيوية الوحيدة هى البحث عن مهرب من الاجتماع قبل أن 0يلحظ أحد حفائى المزرى.

عند هذه المرحلة من الحلم أصحو من نومى مذعورا ثقيل الرأس محمر العينين موجوع القلب، داعيا الى الله تعالى أن يخلصنى من هذا الكابوس الكريه.

غيرت مكان نومى أكثر من مرة ، ثم إنى نمت يوما على جانبى الأيمن ويوما على جانبى الأيسر ويوما على ظهرى ويوما على بطنى، لعلى أفلت ولو لليلة واحدة من قبضة تلك الرؤيا المقبضة التى لاتنتهى إلا بالحفاء والتسلل كاللصوص، ولكن دون جدوى.

وذات ليلة أصابنى أرق شديد فقررت أن أستسلم له وألا أحاول النوم علنى أستريح مرة من عذاب كل يوم.كانت زوجتى قابعة فى غرفة الأطفال للسهر على أحدهم وقد أصابته سخونة مفاجئة.جلست القرفصاء على الفراش اتأمل سبب اهتمامى غير العادى بمسألة الوحدة العربية، وأنا ليس لى فى الثور ولا فى الطحين-كما يقول المثل الشعبى- وليس لى باع فى شئون الحكم أو الزعامة السياسية أو حتى فى مجال العمل الاجتماعى العام، فما أنا الا موظف مدنى أعمل بإحدى المصالح الحكومية وأشغل بها منصبا عاديا لاهو بالصغير ولا بالكبير..ذلك النوع من المناصب الذى لايتأثر فى شىء بموت صاحبه أو احالته الى التقاعد..كل ماهنالك أننى أهوى قراءة الكتب السياسية الى درجة الإدمان ، مع تخصص شديد فى منطقة الشرق الأوسط.

وبينما انا غارق فى تأملاتى ، سعيد بأرقى ووحدتى ، إذ بى أراها واقفة أمامى فى منتصف الغرفة وعلى وجهها ابتسامة حنون لم تحظ عيناى برؤية مثلها على مدى حياتى من قبل. انتفضت واقفا لشدة ذهولى وفزعى وكدت أصرخ كالنساء، فباب الغرفة لم يفتح ، وحوائطها لم

تنشق ، وسقفها لم يقع ، ورغم ذلك فهاهى امرأة تقف أمامى بلحمها وشحمها وقوامها البديع ونظرتها الآسرة.

استعذت بالله من الشياطين ثم سألتها بصوت متحشرج وقد جف ريقى وكدت أغرق فى بولى:

- بحق الله من أنت ومن أين دخلت؟
- اطمئن ولا تفزع فمجيئى اليك أوله خير وآخره خير
- لن أطمئن قبل أن اعرف من انت وكيف تمكنت من اقتحام غرفتى
- أنا من بنات الجن الأجاويد المؤمنين بالله وكتبه ورسله واسمى"ضــدّ ".

تماسكت عن ذى قبل إذ شعرت بارتياح نسبى لتوصيفها المختصر، وسألتها:

- وماذا تريدين منى ؟
- أخلصك من الكابوس

رغم المفاجأة فقد زال خوفى وتغلبت علىّ فرحتى متناسيا أن هذه ال"ضد" ليست من عالمى.

- غير معقول
- ليس هذا فقط، بل انى أحمل اليك المزيد من البشرى
- لو استطعت فقط تخليصى من الكابوس أكون لك من الشاكرين ولن أنسى لك صنيعك مدى حياتى.

قالت فى ثقة شديدة وأنا مشدود بقوة سحرية الى ابتسامتها المعسولة:

- وسوف نساعدك أيضا على تحقيق حلم حياتك الكبير

سألتها وقد استبدت بى الدهشة من جديد ، فأنا على يقين من أنه لايعلم الغيب إلا الله وحده

- ماذا تقصدين؟!
- الحلم الذى تراه كل يوم فى منامك ثم ينقلب الى كابوس
- وكيف يكون ذلك؟
- لقد أمضيت عاما كاملا حتى نجحت فى إقناع زعيمنا الأكبر بمنحك التفويض
- أى تفويض؟!!
- لقد وافق الزعيم على إعدادك وتأهيلك لتكون رئيسا للولايات المتحدة العربية..واحدة من أقوى دول العالم اجمع، وسوف يتغير اسمك من"ناصر" الى "يعرب"، اسم جدنا العربى الأصيل.

تلفتّ يمينى ويسارى خشية أن يسمع أحد ذلك الحوار-لو كان حقيقة- إذ اختلط الحلم عندى بالواقع ، بحيث أصبح من المتعذر على عقلى أن يفصل بينهما.

- أنا ورحمة أمى لا أفهم شيئا مما تقولين
- لاتقاطعنى كثيرا..إنى احبك فى صمت منذ كنا أطفالا وقد آن الأوان أن أتزوج منك
- الله أكبر ماشاء الله
- ولأنى اعلم أنك تحب زوجتك، فضلا عن خشيتك منى-كأى إنسى- فإنى أعاهدك امام الله ألا اتسبب لك أو لأسرتك فى أى ضرر أو أذى ، والله على ما أقول شهيد
- يابنت الحلال..ألا يكفيك الحب وتعفينى بالله عليك من الزواج؟
- لايمكن، وإلا بقى الكابوس جاثما على صدرك واستحال تحقيق حلمك الكبير

حقا انه حلمى الكبير الذى أفديه بروحى، ولو استفادت منه كل نملة تدب على أرض العرب فيما عداى.

- إذن فالمسألة مشروطة بالزواج !
- انه قرار الزعيم الذى كافأنى بك بعد أن أقنعته بإمكانية تحقيق الحلم على يديك، لأنك العربى الوحيد الذى تسيطر فكرة الوحدة على قلبه وخلايا دمه مثل زعيمنا تماما.

يا الهى!!..اللهم انى أبرأ من حولى وقوتى الى حولك وقوتك.إنى فقير المعرفة الى علمك بكونك العظيم.اللهم ان كان زواجى من هذه الجنية المؤمنة بك وبكتبك وبرسلك خيرا يحقق حلم

الوحدة فعليك أتوكل وبك أستعين، وإن كان شرا فبك أستعيذ واليك أتوسل باسم حبيبك محمد نبى الرحمة أن تصرفها عنى يا أرحم الراحمين.

-2-

جلست بينهم فى صورتى الجديدة غير المرئية على أحد المقاعد الخالية بغرفة العمليات الخاصة الواقعة فى شمال الأطلنطى، والمجهزة بأحدث الوسائل العلمية ضد الاختراق والتصنت، حين رنت فى أذنى كلمات"ضد" وكأنى أسمعها لأول مرة:

- " نحن ننتهز فرصة المغامرة الخائبة التى قام بها رئيس عربى مجنون لاحتلال دولة متاخمة له..إفهم دورك جيدا كما يريده لك الزعيم..عليك بالتنقل السريع المتعاقب بين موائد اجتماعات القمم الأمريكية والأوروبية والعربية أو أى قمم أخرى حسبما يقتضى الحال ، فقد منحناك ظاهرة الاختفاء دون خصم من ظواهرك الانسانية التى يحق لك الاستمتاع بها وقتما تشاء..استمع جيدا الى مايقوله هؤلاء القمم.دون ملاحظاتك واستنتاجاتك أولا بأول ، حتى تخلص منها فى النهاية الى الأسباب الكابوسية التى تحول دون بقاء الحذاء فى قدميك وتجعل تحقيق حلمك مستحيلا.وفقك الله".

قال الرجل القمة لمن حوله:

- فلندع هؤلاء الهمج يقتلون بعضهم البعض ولكن بشروطنا بحيث نضمن أمن اسرائيل، كما نضمن تدفق البترول الينا بالأسعار التى نحددها.

وقال آخر يبدو ان منصبه دون رجل القمة رغم انه يفوقه فى الطول والعرض كثيرا:

- وبعد انتهاء الحرب تقوم شركاتنا الكبرى بإعادة تعمير الدولتين المعتدية والمعتدى عليها.

كدت أصيح غيظـــا:

- يابن الأبالسة !!

لكن "ضد" همست فى أذنى بضرورة الصمت والتعقل وإلا فشلت الخطة وفشلت معها الزيجة التى انتظرتها طويلا. التزمت الصمت لكنى لم أستطع ان امنع نفسى من دفع سبابتى اليمنى فى قفاه بسرعة خاطفة، حين جفل الرجل فزعا ينظر من حوله فى ذهول وقد تشتت ذهنه تماما.

وقال ثالثهم - وكان عسكريا – ملونا وهو يضحك مقهقها

- انه من العدل أن نشعر نحو العرب المسلمين بالامتنان، فلولا تجدد صراعاتهم الحدودية على البترول لتوقفت مصانعنا عن انتاج السلاح.

****

لم أصبر على البقاء طويلا حتى لاأموت كمدا، فانتقلت فى طرفة عين الى جزيرة يعرب حيث فوجئت بالرئيس العراقى يتسول إبلاغ رسالة سرية منه الى الرئيس الأمريكى بواسطة نائب السفيرة الأمريكية، يطلب فيها فتح قناة مباشرة للاتصال بالبيت الأبيض بعد أن بات واثقا من اقتراب موعد الضربة الانتقامية الساحقة.

تعجبت من التناقض الحاد بين خطاباته الثورية اليومية فى الإذاعة، والحافلة بالسباب والشتائم لكل الحكام العرب، وبين نعومته الزائدة وأدبه الجم فى حضرة نائب السفيرة. أوجعنى الألم وأردت أن أنصحه بسرعة الانسحاب من الكويت حتى يفسد على الغرب مخططه، لكن تفويضى كان مشروطا بألا أكشف عن نفسى أو صوتى لمخلوق من خارج نطاق حياتى السابقة طوال فترة تكليفى بالمهمة.

بعد انصراف النائب تركت للرئيس على مكتبه صورة عليها سلاحف النينجا وقليلا من قشر البصل والثوم وزجاجة كبيرة من زيت الخروع وزهرة بيضاء كأقصى ما أستطيع أن أفعله فى تلك اللحظة عله يفهم شيئا..تفحص الرئيس متروكاتى فى دهشة وأرسل فى استدعاء أحد نوابه وصاح فيه غاضبا:

- هسا..ماهذا؟!!

ارتعش الرجل وتخلخلت ركبتاه واصطكت أسنانه وكاد يبكى وهو يقول:

- لا ادرى سيدى حفظك الله ورعاك ونصرك على عداك بصعوبة تمكنت من الضغط على أمعائى حتى لا أتقيأ.

****

تركتهما على الفور- قبل أن يموت النائب رعبا – الى المنتجع الصيفى للرئيس الأمريكى، حيث تنازل ووافق على لقاء الملك حسين خلال إجازته، ولقد سمعته بأذنى الطويلتين يقول له فى حسم واستعلاء:

- "اننى ترددت قبل أن اوافق على مقابلتك ، فأنت كنت فى بغداد قبل أربع وعشرين ساعة من اتصالك التليفونى بى ، وكان ترددى فى تحديد موعد لك هو خشيتى من أن تظهر زيارتك وكأن بينى وبين هذا الرجل وساطة، وأنا لاأريد ذلك.أنتم أيها العرب تعيشون على برميل من البارود ، وهذا الرجل مازال يهددكم ، وهو يستطيع أن يفعل ذلك معكم وليس معنا ، فنحن بعيدون عنه ، ولكن لنا فى المنطقة مصالح حيوية ونحن هناك لحمايتها".

****

فى ثوان كنت فى أعقاب الملك حسين الى فرنسا حيث سأله ميتران فى دهشة:

- أليس فى استطاعة العرب أن يقوموا بدور؟!!..ثم اين هو العنصر العربى فى الأزمة؟

وسألت نفسى لماذا يتلذذ العرب بإذلال أنفسهم ولم انتظر الاجابة، بل وضعت فى جيب الملك حسين زهر نرد لابد انه اكتشفه فيما بعد وفهم مغزاه ولكن بعد فوت الأوان.

****

عدت الى أمريكا وكان القائد الرمز والزعيم الملهم والرئيس المفدى قد انتهى من إعلان خضوعه لإيران، وتنازله عن ثمانى سنوات من حرب أزهق فيها مايقرب من مليون روح بشرية مسلمة..وكنت اعتقد جازما أن رابطة الدين هى أولى الأسباب التى سوف آخذ بها لتحقيق الحلم، لكنى رأيت بعينى الأمير السعودى وسمعته بأذنى وهو يقول لرؤساء المنظمات اليهودية:

-" اننى نصحت الأمريكان باستخدام حق الفيتو ضد قرار يدين اسرائيل بسبب عدوانها على المسجد الأقصى لأن أية إدانة لإسرائيل تعتبر فى جزء منها انتصارا لصدام حسين".

ومع ايمانى بأن السياسة كر وفر ومكر ودهاء ، بما قد يبيح للأمير قدرا من التمويه، الا اننى تجرعت مرارة الذل من جديد وشعرت أننى بحاجة الى الاسترخاء.. وقبل أن انتقل الى منزلى همست فى أذن الأمير قائلا:

- ألم تسمع عن المثل الشعبى القائل"أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب"؟

- 3 -

منذ زفافى على "ضد"- فى حفل أسطورى محظور علىّ الحديث عنه – لم أغير شيئا من طقوسى العائلية الإنسية، الا ان زوجتى أصبحت تنظر الى أحيانا نظرات شك وريبة حول أمر غامض لاتدرك كنهه..تريد أن تقول لى ان شيئا غير عادى قد ألم بى، وأنها تلحظ ذلك ولكنها لاتعرف ما هو ولا كيف تعبر عنه، فتتذرع بالسكوت وتكتفى بالنظرات الحيرى؟.. وكان بإمكان "ضد" أن تحيل حياتها الى جحيم من الشك والغيرة وأن تقلب عليها البيت رأسا على عقب، لكنها أوفت بعهدها خير الوفاء. رغم ذلك فقد سألتنى زوجتى أخيرا بوحى من فطرتها وبشجاعة طبيعية:

- أراك غير طبيعى هذه الأيام

- فى أى شىء؟

قالت فى جرأة لم أعرفها عنها:

- فى كل شىء حتى فى الفراش

حاولت الخروج من المأزق بنعومة وقد اعتدت الكذب والتحايل منذ ازدياد خلطتى بالدبلوماسيين فقلت لها:

- معك حق..عليه اللعنة ذلك الكابوس المقرف
- أشك فى انه السبب
- فيم تظنين إذن؟
- ان كثرة حديثك معى فى السياسة مؤخرا يقلقنى
- لماذا؟
- لأنى أخشى أن تفقد وظيفتك فنفقد الطعام والمأوى..مالنا نحن بهذا البلاء؟..اقرأ وأنت ساكت وكفى

همست "ضد" فى أذنى أن أقول لزوجتى كلاما فى الغزل يصرفها عن هذا الموضوع الشائك.اعتدلت فى جلستى واقتربت منها ملاطفا. قلت لها وأنا أداعب خدها بسبابتى التى زغدت بها الرجل الأطلنطى الطويل:

- ألا تلاحظين شيئا؟

قالت متسائلة فى دهشة:

- أى شىء؟!!
- انك اليوم رائعة الجمال

همست فى سعادة فتاة مراهقة:

- أتقول الصدق ياناصر؟
- ولاشىء غيره
- لكنك لم تقل لى ذلك منذ زمن طويل
- كنت أعمى وأبصرت فجأة
- أما زلت تحبنى كما كنا أيام الشباب؟
- وأكثر
- لست أدرى لماذا لا أصدقك
- أقسم لك بأولادنا

عاودتها جرأتها المستحدثة من جديد مع ليونة موحية

- فلتثبت لى صدقك الآن..وفورا !!

عجزت "ضد" عن إخفاء غيرتها فهمست لى بلهجة منذرة:

- العدل يقتضى أن تثبت لى اليوم أنا الأخرى أنك تحبنى

فقلت لنفسى لك الله ياناصر..اعانك الله يا يعرب.

-4-

أمام تاتشر جلست فى لندن أراجع حساباتى تجاه هؤلاء الناس الذين تتفجر خدودهم بالحمرة الدموية الرائعة، وبنوكهم بأموال السوق الأوروبية الموحدة، فقرأت قل أعوذ برب الفلق لأمنع نفسى من الحسد، وكانت تستقبل المبعوث الروسى الى آل يعرب..قالت رافضة وساطته بعنف:

- نحن لا نريد لأى طرف أن يتدخل الآن لعرقلة هدفنا، وليس هناك خيار آخر غير الحرب،كما أن صدام حسين يجب أن يحاكم كمجرم حرب.

حاول المبعوث أن يشرح لها رأيه قبل أن تبدأ العمليات ضد العراق فقاطعته قائلة بحدة:

- لا..لا أريد ان أسمع شيئا

فى غمرة حرج المبعوث الروسى وارتباكه أمام المرأة الحديدية اللاذعة قلت له بلغة روسية متقنة:

- أليس من الأولى بك أن تهتم بشئون بلادك الخربة التى انضمت الى قائمة المتسولين من الغرب؟

ازداد ارتباكا وهلعا ، فغادر الغرفة مسرعا ينظر من حوله فى رعب.

****

تعقبت ياسر عرفات وهو يدور حول نفسه مرة وحول الملك حسين مرة ثم حول صدام مرة أخرى، ولم أفهم ماذا يريد، حتى عندما قال للمبعوث الروسى:

- ان الشعب الفلسطينى يرفض أن يحقق سلامه على حساب الشعب العراقى

سألته:وماذا عن الشعب الكويتى يا أبا عمار؟.. فلم يجبنى، وتذكرت كم من مرة امتدح فيها مصر على أرضها ثم سبها بمجرد مغادرتها الى أرض أخرى، وقال حكيم عربى قديم ان الشرب من ماء دجلة يضعف شهوة الرجال ويزيد من شهوة النساء، ثم قال طبيب عربى معاصر ان أطفال الكويت قد دمرتهم أهوال الغزو الهمجى فأصيبوا بفقدان الشعور بالأمان وانعدام الثقة بالنفس وتساقط الشعر والميل الى التخريب، والخوف والتهتهة والتبول اللارادى وتوقف النمو العاطفى وتشويه الوجه بالأظافر وانفصام الشخصية، ورغم ذلك فسوف تؤكد وزارة التربية والتعليم الكويتية فى بيان تنشره جريدة الأخبار القاهرية بعد مرور أربع سنوات أن أزمة الاحتلال العراقى قد عززت الشعور الوطنى لدى الأطفال بمرحلة الرياض بنسبة71% وفى المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية بنسبة 76% وسوف تصدر محكمة أمن الدولة برئاسة المستشار صلاح الفهد أحكاما بالإعدام على خمسة متهمين عراقيين وكويتى واحد فى محاولة الاغتيال الفاشلة للرئيس الأمريكى أثناء زيارته لكويت بعد التحرير، وسوف تنقل اذاعة اسرائيل-متباكية على التضامن العربى الضائع- الهتاف الكويتى:"بوش بوش..خوش خوش" صبيحة الغزو البرى للقوات المشتركة لاستعادة الكويت..حينئذ يصحو عبد الكريم قاسم-صاحب الدولاب الزجاجى المشهور- من موته ليسب جمال عبد الناصر ويلعنه إذ سبق أن أوقفه عبد الناصر عند حده حين فكر فيما فكرفيه صدام، وحال بينه وبين شهوته فى ابتلاع تلك البلدة الكائنة فى جواره، وسوف تنفتح شهية كتاب الغرب للسخرية من قومى فيصفونهم بأنهم همج متخلفون يرتدون الملابس المتنافرة وأغطية الرأس المختلفة ويركبون الجمال والحمير ويقتلون السياح ويأكلون طعاما لايهضمه إلا الوحوش، ويغلب عليهم الكسل والوخم والخوف من شىء ما، ويحبون البكاء فى المساجد ويعيشون فى الفوضى والقذارة ويحبون الكذب والمساومة والتدخين والبقشيش وشرب الشاى والقهوة، ولايعرفون ماذا يريدون ويحبون المبالغة فى كل شىء ويكثرون من ترديد كلام بلا معنى، ويصيبهم التدين بازدواج فى الشخصية فيتذبذبون بين الحلال والحرام وبين الأصولية والليبرالية وبين الفرد والجماعة وبين الوطنية والقومية وبين الأصالة والمعاصرة، وبين الخصوصية والعالمية، ويستثمرون فى بنوك الغرب مايقرب من ألف مليار دولار، لو أنفقوا ثلاثة بالمائة منها على أنفسهم لزرعوا الصحراء وقضوا على البطالة والفقر والإرهاب والتعصب والأمية وفتحوا أبواب الأمل أمام الشباب العربى فى حياة كريمة هانئة..وتظهر لى"ضد" لتحذرنى من خطورة التمادى فى الشرود والشطط.

- لاتغفل عن الخطة والتزم بجمع أسباب الفرقة وسجلها كمرحلة اولى

وكان مجلس الأمن قد أنذر العراق بضرورة تنفيذ قراراته السابقة بالانسحاب الفورى غير المشروط قبل 15 يناير1991

****

- أحبك

- أعلم هذا..وأنا أيضا أحبك

- لم يعد يكفينى هذا

تمتمت فى سرى"اللهم استرنى فى الدنيا والآخرة يارب".. وسألتها منافقا:

-ماذا تريدين بالتحديد يابنت الأجاويد الطيبين؟

- أريد أن أستأثر بك لنفسى ولو لفترة قصيرة جدا

آه..هى المرأة..إنسا كان أم جنا..سبحانك يامالك الملك

- لم نتفق على هذا يا "ضد"..ثم ماذا أقول لزوجتى ، وكيف...

- لاتكمل، لقد اعددت العدة لكل شىء

ان كيدكن عظيم..

- ولم هذا العناء ياحبيبتى؟..ألم أعدل بينكما؟!
- بل عدلت حقا، ولكن ماذا أفعل بغيرة تنهشنى..تقتلنى؟

ضعفت أمام نظرتها المستضعفة الحنون ولم أسألها كيف ستنجح فى ترتيب أمور بيتى حتى لا تكون سببا فى خرابه، وفى فضيحتى أمام الزوجة والأولاد والأهل والجيران والأصدقاء وأمة خلقه..شعرت بما يعتمل بنفسى فصاحت فى فرحة:

- أنت موافق
- نعم

اندفعت نحوى تحضننى وتقبلنى فى مودة بالغة ثم قالت:

- واليك مكافأة فورية
- أنا لم أستجب لك حتى أحصل على مكافأة يا"ضد"..لقد احببتك حقا
- لاتنزعج ياحبيبى، فالمكافأة ماهى إلا دعم لإنجاز خطتك فى أسرع وقت ممكن
- وما هى؟
- دبر لك الزعيم الأكبر وسيلة جهنمية لتعاصر عمليات "عاصفة الصحراء" وتشهد بنفسك كل ثانية من احداثها، وسوف يفيدك هذا فى تجميع العديد من الأفكار الهامة عن أسباب فرقة آل يعرب واختلافهم.
- ان مايهمنى قوله الآن اننى مازلت-للأسف- أعانى من كابوس الحفاء مثلما أعانى من أن الآخرين مازالوا يكتبون لنا تاريخنا، رغم استجابتى لشرط الزواج

-5-

اتفق الخواجات مع العرب المعتدى عليهم على أن كلمة السر هى سليمان ملك الجان. قبل أن ينطقوا بالكلمة أمعنوا فى إذلال صاحبنا وسحق أنفه فى ورطته بحيث صفق العالم بحماس لمائة وثلاثين ألف طن من المتفجرات ألقيت عليه فى اليوم الأول من العاصفة وحده، ولما ثار العالم على عشوائية قنابل الخواجات التى لم تفرق بين الأهداف العسكرية والمدنيين الأبرياء، قال القائد الأمريكى:"اننا بحاجة الى تعريف جديد لمعنى المدنيين الأبرياء مادامو قابلين بحكم صدام سعداء بغزوه للكويت".. ولقد أشفقت على سذاجة هذا القائد السمين، إذ يعتقد المسكين أن كل الشعوب العربية تختار حكامها وتقبل بقاءهم أو ترفضه..ولما وسوست له بالحقيقة صرح لرئيسه الجنرال الأسود بأن هذه الحرب قد أكدت الشرعية الحاكمة الكويتية تأكيدا ساحقا، فالشعب متمسك بأميره وحكامه وهم فى المنفى، اما انا فأكاد أجزم ان تمسكه بهما بعد التحرير سيزداد قوة وسيكون سببا فى حسم خلافاتهم البرلمانية القديمة.

قبل الهجوم السليمانى بيومين أو ثلاثة جلست بين صدام ودى كويلار رئيس الأمم المتحدة العجوز.كدت أظهر بجسدى وأعرض نفسى للقتل حتى أحثه على أن يستجيب لنصيحة الرجل العجوز ويبطل مفعول خطة خصمه بتدمير جيشه وصناعته وبنيته الاقتصادية والمدنية تدميرا ساحقا، لكن شعب العراق كان- والله أعلم- مساقا الى قدره على يد تيمورلنك جديد.

بانتهاء تحقيق الخطة تحول آل يعرب الى فتات مبعثر من المواقع الجغرافية المتناثرة والموارد البشرية المشتتة بغير نظام، والثروات المهددة بالخطر الى أبد الآبدين. سجلت هذه الملحوظة فى أوراقى باهتمام شديد وقلت فى ختامها:" انتهى العراق تماما".

وأثناء تجوالى فى بلاد العالم خلال تلك العاصفة- التى دامت مايقرب من اثنين وأربعين يوما- وتصنتى على حوارات القمم والسفوح فى هذه البلاد، توصلت الى حقائق أخرى أشد خطورة عن آل يعرب المعاصرين ، سوف تفرح بها "ضد" فرحا شديدا، وأكون بذلك قد اقتربت من شاطىء النجاة من كابوس الحفاء اللعين.

****

عدت الى بيتى يائسا حزينا لما حدث، وكان توترى شديدا لعجزى عن العثور على حجة مقنعة أبرر بها لزوجتى غيابى عنها فى الفترة القادمة.فوجئت بالبيت خاليا من أعضاء أسرتى جميعا. وجدت مظروفا مغلقا على مائدة صغيرة بالمدخل. علمت مما فيه انها اضطرت الى اصطحاب الأولاد معها والسفر الى قرية أبيها الذى يعانى من سكرات الموت ويلح فى طلبها ومعها أحفاده.حمدت الله على ما حدث ولم أتذكر قول"ضد" أنها قد اعدت لكل شىء عدته، وإذ بى أجدها امامى فجاة.

- هأنا ياحبيبى، مهيأة لحبك مستأثرة به لنفسى عشر أيام متواصلة
- يامعين
- مابك؟..هل تخاف منى أم تحن الى أم العيال؟!
- أنا لم أعد أفكر الا فى مصيبتنا الكبرى..لقد انتهينا يا"ضد"
- لاتجزع وكن على استعداد للقاء الزعيم الأكبر
- وماذا يستطيع أن يفعل بعد أن وقعت الكارثة؟
- هو لن يفعل.أ نت الذى سيفعل بأمر الله

-6-

بعد أن تجرعت حتى الثمالة من فنون لم أعرفها من قبل عن العشق والهوى، أفاضت "ضد" فى الحديث عن زعيمهم المحبوب المرهوب عبد الله المسلم. قالت ان عمره ثلاثمائة وعشرون عاما وانه يسكن فى قصر ضخم يقع أسفل جبل المقطم بالقاهرة بما يقرب من خمسمائة ألف فرسخ، وهو يجمع فى شخصيته بين طيبة الأرواح ووداعتها ، وبين قوة العفاريت وجبروتها، ولكنه من خير الأجاويد وأعلاهم شأنا فى عالم الجن، غير أنه محب للنساء ولوع بهن وله فى كل بلد من بلاد الدنيا زوجة، ونسمع أن احبهن الى قلبه تلك التى تعيش فى الكويت وتستأثر بمعاشرته عددا من المرات كل عام يفوق ما تحظى به نظيراتها من زوجاته الجميلات فى أرجاء الدنيا..وقالت لى "ضد" ألا أخشى مما سوف يتبدل عليه حالى مابين ظهور واختفاء طيلة فترة مثولى بين يديه.

فى المساء جهزت أوراقى للقاء الزعيم وكنت متعجبا لجرأتى التى تزايدت الى حد ملحوظ منذ أن تزوجت من جنية واندمجت فى عالم الأجاويد وتعارفت على أصدقاء عديدين منهم، أكاد أجزم انهم أفضل بكثير من معظم أصدقائى من الإنس.

حرصت "ضد"على ألا تضعنى فى صورتى غير المرئية أمام احد من أصدقائى من الإنس ولو لمرة واحدة على سبيل المداعبة. ولما طلبت منها ذلك عنفتنى وقالت ان فى ذلك خطورة على حياتى، لكن شيئا ما فى نظرات هؤلاء الأصدقاء لى كان يؤكد أنهم يفكرون فى شىء محير..شىء غريب يتعلق بى ، ولايمكن أن يخطر على بال أحد منهم مهما شطح به خياله ، فمن منهم يمكنه أن يتصور أننى دخلت فى حراسة ألف من الجان الى مجلس الزعيم عبد الله المسلم فحييته وحيانى، وأجلسنى عن يمينه وربت على صدرى بحنان أبوى جميل؟..قال لى صديق عمره ونائبه الأول:

- ان هموم آل يعرب تأخذ الأولوية فى اهتمامات الزعيم، ولقد توسم فيك خيرا فأرجو أن تكون عند حسن ظنه.

أجبت ومازالت آثار الرهبة جاثمة على صدرى:

- بإذن الله
- هات أوراقك

استخرجت الأوراق وكانت أصابعى ترتعش.كان الزعيم يبتسم فى صفاء لكنه لم يتكلم.قال النائب بصوت مطمئن:

- اهدأ يابنى واقرأ على مهل

- بعد كل ماقمت به من جولات فى شتى بقاع الأرض بفضل جهودكم الخارقة لخدمة قضية الوحدة العربية، فإن كل ملاحظاتى واستنتاجاتى عن أحوال آل يعرب تتلخص –مع شديد الأسف- فى استحالة قيام هذه الوحدة!

التزم الزعيم الصمت وإن بدا على وجهه انفعال حزين قلق.نظر متسائلا الى نائبه الذى قال لى:

- أكمل يابنى..وضح لنا الأسباب التى دعتك الى طرح هذا الاعتقاد
- أما الأسباب فهى وحدة الدين واللغة والجوار والتاريخ والمصير المشترك !
- لكن هذه الأسباب تجمع ولا تفرق
- الواقع الذى شهدته ولمسته بنفسى يؤكد أن الوحدة هى سبب الفرقة

بدت علامات الحيرة على وجه النائب ، ولأول مرة يتحدث الزعيم قائلا فى هدوء مشوب بالقلق:

- وما الرأى الذى توصلت اليه فى النهاية؟
- يقول المنطق انه اذا كانت هناك أسباب معينة تحول دون تحقيق الحلم، فمن الطبيعى أن تكون الأسباب العكسية هى الوسيلة المعقولة لإمكانية تحقيقه.

صـــاح النائب:

- أكرمك الله يابنى..هذا عبقرى عظيم

هز الزعيم رأسه مؤيدا ثم قال:

- على بركة الله ابدأ فى المرحلة الثانية..حاول أن تحقق الحلم بالأسباب العكسية، ومن اليوم لن تعرف كابوس الحفاء حتى الموت، فأنت الآن رئيس الولايات المتحدة العربية.

كدت أتخلى عن وقارى أمام الزعيم فأرقص على الواحدة والنصف طربا لما سمعت.وددت أن أنقل البشرى ل"ضد" ولزوجتى أيضا، لكن الأولى لم تكن مدعوة لحضور هذا الاجتماع لسبب لم تذكره، والثانية إنسية لاتعلم عن أسرارى المعفرتة شيئا. لم يبق إلا أن أجرب النوم فى أى مكان وبأية وسيلة حتى أتأكد من صدق وعد الزعيم قبل أن أفكر فى مسألة رئاستى لآل يعرب ، أو فى سلامة عقلى قبل أى شىء آخر.

لم أدر كيف نزلوا بى الى باطن الأرض بعمق خمسمائة ألف فرسخ، مثلما لم أدر كيف صعدوا بى الى سطحها مرة ثانية، ولكنى ما ان رأيت شجرة صغيرة فى ناحية هادئة تكاد تخلو من السكان ، حتى قررت النوم تحتها للصباح.

حلمت بملك مصر وإمام اليمن يتحدثان فى مرارة عن مستقبل الكويت الذى أصبح محفوفا بالمخاطر بعد تجربتها المريرة مع العراق.قال الملك ان المشكلة فى الجيران أولا ثم فى الجيران ثانيا ثم فى"الخواجات" ثالثا، وقال الإمام وهو يمضغ القات بشراهة، ان حجم البلد جغرافيا وبشريا لايسمح بتكوين جيش كبير ذى فاعلية مؤثرة،وقلت أنا بجرأة بعد أن تأكدت تماما من ثبوت حذائى فى قدمى ان الكويت التى كانت واحة للخير والعطاء لم تكن لتستحق بأى حال أن يتم تغيير جنسية مواطنيها وتراخيص عرباتهم بجرة قلم خائب الى جنسية أخرى بين يوم وليلة.

****

صحوت من نومى لأجد نفسى بين أحضان "ضد".لم يكن لدى وقت للتفكير أو الدهشة بعد تكليفى بزعامة آل يعرب.

- مبروك ياسيادة الرئيس
- أنا لا أصدق مايحدث..مازلت اتصور أننى احلم
- والآن ياصاحب القدم الثابتة فى حذائها، عليك بإعداد قراراتك الرئاسية حتى نسخر لك جن الأرض بأكملها لتنفيذها.

-7-

فى محفل رهيب لم أعرف كيف اتسع لهؤلاء الآلاف من الأجاويد، وجدت نفسى أتصدر مائدة الرئاسة. ألقى النائب خطابا رحب فيه بالزعيم عبد الله المسلم وهنأنى فيه نيابة عن الجميع

بتولى رئاسة الولايات المتحدة العربية، ثم قدمنى الى المجتمعين لأقرأ عليهم قراراتى..وقفت فى ثبات أقول:

" بسم الله الرحمن الرحيم.رئيس الولايات المتحدة العربية.بعد الاطلاع على شئون آل يعرب المزرية ومقارنتها بنظائرها فى سائر أرجاء الأرض ، حيث توحدت البلاد ذات اللغات والديانات المختلفة، والمواقع الجغرافية المتباعدة، وشكلت فيما بينها كيانات اقتصادية وسياسية جبارة، بينما بقينا نحن فى قاع صندوق قمامة التاريخ، قررنا ما هو آت:

أولا- نقل الأقطار العربية جميعا من أماكنها بالتبادل، بحيث يشتمل النقل على البشر والأرض والبحار والمحيطات والجبال والأنهار والغابات والوديان والقرى والمدن، على ألا يقل الحد الأدنى للمسافة الفاصلة بين كل قطر وآخر عن مائة ألف ميل.

ثانيا- حصر جميع اللغات المتداولة على الكرة الأرضية وتوزيعها على الأقطار العربية بالنسبة والتناسب بحيث لايتحدث قطران عربيان نفس اللغة.

ثالثا- توزيع جميع الديانات الابراهيمية من يهودية ومسيحية وإسلامية، وجميع الديانات الهندية من هندوكية وبوذية وغيرها، والديانات الصينية من كونفوشيوسية ولاوتزووية وغيرها، والديانات اليابانية من الشنتو والبوذية المطورة وغيرها، وسائر الديانات الوثنية المتبقية فى العالم ، على جميع الأقطار العربية بحيث لايدين قطران عربيان بدين واحد.

وبذلك نكون قد اتخذنا الخطوات الجوهرية الأولى لتحقيق الوحدة أسوة بالغرب، وإنى أتوجه الى الزعيم الأكبر عبد الله المسلم برجاء أن يسخر كل مايمكنه من إنس وشياطين وعفاريت ومردة لوضع هذه القرارات موضع التنفيذ فى أقرب فرصة ممكنة".

****

ضجت قاعة الرئاسة بالتصفيق الشديد وهتفوا جميعا بحماس رهيب:

-عاشت الولايات المتحدة العربية..عاش الرئيس يعرب

ثم قام الزعيم وصافحنى وعانقنى وقبلنى بحرارة وألقى الكلمة الآتية:

" اخوانى الأجاويد..السيد رئيس الولايات المتحدة العربية..لقد انتظرت هذا اليوم عمرى كله، وأقول لكم الحق اننى كنت على وشك الاستسلام لليأس من تحقيق الحلم ، لولا أن أكرمنا الله بيعرب الذى رأينا فيه هذا الحلم حقيقة ممكنة، وكأننا امام معجزة الهية، لهذا فإنى أعده أمامكم أن أضع كل إمكانياتنا بين يديه، ولكنى أحذره من أعداء الوحدة من بنى الإنس ، فهم كثيرون جدا، وسوف يقاومونه ويقفون له بالمرصاد ليتمكنوا منه،فعليه أن يتذكر دائما أن حمايتنا لشخصه قاصرة على وجوده غير المرئى محذرا اياه من الغفلة حرصا على حياته الغالية..واعتبارا من هذه اللحظة فكلنا مجندون لخدمته لتحقيق هذا الهدف النبيل.وفقنا الله وإياكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

-8-

عادت زوجتى الى المنزل وكانت قد أوحشتنى كثيرا. ما أن لمستها حتى صرخت فى وجهى وجرت بعيدا عنى وقد انتابها ذعر شديد.قرأت فى أذنها آية الكرسى ونهاية سورة البقرة حتى هدأت. عندما عاودت ملامستها عاودها الصراخ والفزع وقال لى بعينين جاحظتين:

- أنت لست نـــاصر!!

سألتها فى ذهول:

- من أكون إذن؟
- لست أدرى..ابتعد عنى أرجوك

وبقينا على هذا الحال لأيام عديدة. استنجدت ب"ضد" لكنها أقسمت لى أنها لم تمسها، كما لم يمسها أحد من الجن، وأنها لاتملك لحالتها علاجا ، وربما كان سببها موت أبيها قبل أن يراها، اذ كان ارتباطهما ببعض عظيما.

فى ظل هذه الظروف الصعبة المربكة أصدرت تعليماتى لجنود الجن بالبدء فى تنفيذ قراراتى الثلاثة.

فى لمح البصر تحولت الكرة الأرضية الى كتل هائلة من البراكين والحمم وعمت بها الزلازل والانفجارات، حتى خيل للبشر انها اهوال القيامة، فسعد أهل الوصل باقتراب القرب، بينما أصبح اهل الدنيا فى كرب عظيم.

اختلطت صنوف البشر من كل الأجناس والألوان والملل، وراح البعض يجرون فى اندفاع ساحق الى الجهات المجذوبين اليها، بينما وجد البعض أنفسهم طائرين فى الهواء على ارتفاعات مختلفة.

ما ان شعرت زوجتى بالزلزال حتى ازدادت حالتها سوءا وراحت تدفعنى بقبضتيها فى صدرى بغل شديد وهى تقول:

- ماذا فعلت بحق الله؟..قل لى ماذا فعلت؟!!

أما اولادى فقد اختفوا تماما، ورغم انى كنت على يقين من أن شمل أسرتى سيلتئم فى غضون أيام، إلا ان حالة زوجتى أدمت قلبى.فقدت قدرتى على التركيز بين مخاطبتها ومخاطبة الجن المحيطين بى فى نفس الوقت وهم يطلعوننى على مايحدث أولا بأول.كنت مضطرا الى الاختفاء ثم الظهور ثانية، مرة وراء الأخرى بحسابات دقيقة..لكن القدر الذى لايعرف الحساب جعلنى أظهر فى لحظة خاطئة حين وجدت نفسى فى مواجهة مثقف عربى ملحد يكره كل شىء حتى نفسه.قال لى متشفيا:

- كان غيرك أشطر يا أستاذ ناصر

وأطلق على الرصاص.سارعت بالنظر الى قدمى قبل أن أسلم الروح فوجدت نفسى حافيا ولا أثر لحذائى على الأرض.

****

مارس 1993

ملاحظة:المرجع السياسى للأحداث هو كتاب"حرب الخليج"للأستاذ هيكل.

عنبر الأكيـــاس

****

يتوجه عم عيسى كل صباح الى ربه.يصلى ركعتين، ثم يغادر مسكنه الصغير بعزبة التيرو الى شركة الاسكندرية لتصنيع الورق. يجلس على مقعده الخشبى العجوز ليعد يوميات حضور العمال وغيابهم؟تتدلى من فمه سيجارة هى فى معظم الأحيان منطفئة.يرتشف الشاى الثقيل ويتلذذ بمصمصة شفتيه بين الرشفة والأخرى ، ويقول:

- اصطبحنا وأصبح الملك لله..عفوك ورضاك ياكريم

ايمانه بربه يخضع لاعتبارات عديدة يتسم معظمها بالغموض. الغيب عنده قدس مقدس، أما التأمل فعبادة.عشرون عاملا بالعنبر.كلهم من ذوى العاهات وخريجى معاهد التأهيل المهنى. منهم أيضا مجموعة من العميان يطلقون عليهم فى المصنع لقب"المشايخ".يقتصر عملهم على تحزيم الأكياس وربطها بالدوبارة.

قبل السابعة بقليل تصل أم عادل، مصطحبة فى يمناها ولدها عادل.نصف مشلول. يسح من أنفه وفمه سائل لاينقطع مدده طول النهار. على فمه ترقد ابتسامة بلهاء يداخلها شىء من الخوف. تسلمه أمه الى عيسى وتذهب مسرعة الى عملها فى العزبة. عند انتهاء العمل لاتحضر لأخذه، وإنما تتركه لأية مصادفة قد تجمع بينه وبين عامل يلقاه متوقفا فى عرض الطريق..أما فى أول الشهر فلابد أن تحضر لتتسلم راتبه حيث يبصم عادل بإبهامه فى سعادة بالغة على كشف المرتبات.

يجلس عادل أمام مائدة لصق الأكياس.بصعوبة معتادة يتمكن عم عيسى من اخراج يد عادل اليمنى من جيب سرواله المثقوب والتى يعبث بها فى أى مكان. ما أن ينجح عيسى فى ذلك حتى يبدأ عادل فى صف الأكياس بطريقة خاصة ثم يقوم بلصق قواعدها بفرشة مغراة.يتركه عيسى ويتفرغ للتأمل باهتمام فى وجه جمال عوض الله ومراقبة تحركاته بينما يتمتم فى اقتناع:

- حكمتك يارب

يتوالى بعد ذلك وصول العمال ثم المشايخ فى مجموعة مصطفة يقودها مبصر. أما خديجه فهى دائما آخر من يصل من العاملين بعنبر الأكياس الخاضع لرئاسة الاسطى عيسى محمد نجم ذى الخمسين عاما.

يبتسم عادل حين تجلس خديجة بجانبه، وكذلك يفعل جمال عوض الله الذى يجلس عن يسارها.خديجة سمراء البشرة ، خفيفة الظل مخروطة الساقين مبرومة القوام ناعسة العينين ، يطلقون عليها اسم"السمره".

يتعمد عيسى – بحكم خبرته – أن يجلس بين عادل وجمال حتى يحفظ التوازن النفسى والأمنى لمائدة اللصق. تتسم عاهة جمال بشىء من الخطورة لأنها تكمن فى عقله ، فهو يعمل أحيانا بحماس شديد لساعات سبع دون أن ينطق كلمة واحدة، وأحيانا يمتنع اطلاقا عن العمل حيث لايمكن لأحد أن يقنعه بالعدول عن قراره. فى أحيان قليلة تنجح خديجة فى ذلك.

****

يستيقظ جمال من نومه – ان نام – مابين الثانية والثالثة من صباح كل يوم. يغادر فراشه الذى ينام عليه أولاده الثلاثة وزوجته. يدور على المساكن الشعبية المحيطة ساحتها ببدروم سكنه الأرضى العتيق. يصيح بأعلى صوته:

- الصلاة ياموٴمنين الصلاة

أحيانا يتجرأ فيطرق بقبضته الخشنة نوافذ مساكنهم الأرضية ولايعبأ بالشتائم واللعنات التى يتلقاها منهم. أحيانا يصل الى العنبر بوجه ملىء بالكدمات وآثار الدماء، لكنه يبتسم دائما ابتسامة تنم عن شعور عظيم بالانتصار. يسأله عيسى:

- ماذا فعلت بالأمس ياجمال؟
- ثمانى مرات !
- أيووه؟!!..ولم تتعب ياجمال؟
- كنت سأزيدهم الى عشر لولا أن أخذ أولاد الحارة يقذفون خصاص نافذتى بالطوب
- وما الذى دفعهم الى هذا؟
- صراخ زوجتى وصياح أطفالى
- أتحب الأطفال ياجمال أم تحب أمهم أكثر؟
- بالعكس أنا أفكر فى تطليقها
- لماذا؟
- لأنها باعت الكنبة دون إذن منى يوم أن منعت عنها مصروف البيت لأنها تعصانى وتمتنع عنى
- الطيب أحسن ياجمال.. أتحب أن أصلح بينكما؟

يهب جمال صائحا فى عنف:

- أبدا.. انا لايمكن أن أسمح لرجل –مهما كان- بدخول بيتى
- أنت حر ياجمال..رح الى مائدتك
- هات سيجارة أولا

****

اجتمع المشايخ وقرروا ترشيح" الجريشى" لعضوية مجلس ادارة الشركة. الجريشى يبصر بنصف عين ويعشق القراءة. قالوا انه سوف يصبح عظيما يوما ما. أكد لهم بنبرة الواثق من الفوز أنه لو تحقق له النجاح فى الانتخابات فلن يتنكر لهم ، بل سيقدم لهم العون وسيرقيهم جميعا بلا استثناء قبل النظر فى ترقيات المبصرين. أبدى بعضهم تشككا فى ذلك، وتحفظ البعض الآخر فى إبداء رأيه، ورغم ذلك فقد سمعه أحدهم يؤكد لمرافقيه بثقة شديدة أنه سيفوز بأغلبية كاسحة. حصل البجريشى على ستة أصوات من المصنع بأكمله بينما يبلغ عدد المشايخ بالعنبر سبعة!!. صار الجريشى ناقما على الدنيا بعد أن خاب أمله. هدد عم عيسى بضربه بحديدة على رأسه لأنه لم يمنحه صوته. تدخل جمال وفض بينهما التشابك. صاح فيه عيسى:

- لاشأن لك بمشاكل العمال. تفرغ لعملك على سكينة قطع الورق فقط
- ومن غيرى يدافع عن حقوقهم الضائعة؟
- أنا كفيل بذلك فهذه مسئوليتى
- هه؟!! كيف تستطيع ذلك وأنت عاجز عن الدفاع عن حقك؟
- لاشأن لك بى..انصرف الى عملك
- كل الأسطوات رقوا الى الدرجة الثامنة وأنت مازلت على العاشرة منذ سنوات طويلة

زمجرت عاصفة مدوية من الغضب فى نفس عيسى نجم. ألب عليه هذا المعتوه همومه. أيقظ مشاعره النائمة على الظلم.جعله يحس بضعفه وضآلته أمام مديره المستبد. تذكر حوارا دار بينهما منذ سنوات حين قال له المدير بعد تمهيد خبيث:

- أريد خديجه
- أستغفر الله ياسعادة البيه
- لاتتصنع الوقار فمثلك لايرد على جنة
- يا سعادة البيه .. أنا..
- لاتضيع وقتى وحاول أن ترضى مديرك فتكون الرابح
- ياسيدى انها..ليست..من..مقامك
- لاشأن لك بهذا
- ان رائحتها عرق وغراء
- سأغسل جسدها بنفسى
- ان العبيطان عادل وجمال يعبثان بجسدها أثناء العمل كل يوم
- هذا لايعنينى فى شىء
- ان أجمل نساء المصنع تتمنى اشارة من سعادتك..هذه جربوعة
- من الواضح انك رجل غبى..ابعث بها حالا الى مكتبى
- حاضر
- اسمع..لاترنى وجهك القبيح هذا مرة أخرى..فاهم؟
- فاهم يا سعادة البيه

****

أجريت حركتان للترقيات ولم يرق عيسى نجم. شعر بمرارة الظلم والاضطهاد وتحدى فى قرارة نفسه أن يجد ذلك الجبان مباشرا غيره بالمصنع يقبل أن يشرف لسنوات عشر على تشغيل مجموعة من المعتوهين وذوى العاهات لينجز بهم عملا عظيما مثله ، أو يرتضى أن يتعرض لمخاطرهم ويتحمل تقلباتهم ويحل مشاكلهم التى لاتنتهى.. تساءل : أهكذا يكون جزائى لأننى رفضت أن أعمل له قوادا؟

أشعل سيجارة وصب نظره على خديجه السمره. هام فى أطياف الماضى فاختلطت بذهنه رؤى الغيب ودهمه شك محير. انه لم يبلغ خديجه حتى اليوم برسالة المدير. ترى أتم كل شىء بينهما فى الخفاء دون اللجوء اليه، بينما لم يصبه من جراء شهامته سوى ضياع الترقية؟..خديجة بنت طيبة وغلبانة. لكن لم لايشك؟..ألم يشع بالمصنع نبأ علاقتها المشروعة بأحد المشايخ؟..ألم يقولوا انها حين حصلت على اجازة لمدة شهر فإنها أمضته عند أحدى قريباتها حتى يتم الاجهاض؟..تتبنى قضايا عمالك التعساء فتدفع الظلم عنهم وتحول بينهم وبين من يحاول أن يمسهم من العنابر الأخرى بسوء أو بسخرية؟.ثم لاتستطيع أن تدفع الظلم عن نفسك. النساء ملعونات خلقن من ضلع أعوج. أتجرؤ أن تسألها يا عيسى؟.. فماذا تفعل لو وشت بك اليه؟ثم لو سألتها فكيف يكون شكل السؤال أو مدخله؟

- هل قابلت سعادة المدير؟

سؤال ساذج يمكن الاجابة عنه بما لايفصح عن سر ولايشفى غلة

- أتذكرين فى العام الماضى حين...

حين ماذا ياحمار؟..انك لم تبلغها الرسالة حتى هذه اللحظة

- ما رأيك فى سعادة البيه المدير؟

رأيها؟..رأيها هو رأى أى عامل أو عاملة بالمصنع. انه البك الكبير الجالس الى مكتبه الضخم فى الغرفة المكيفة، والذى ينبغى على من يود مقابلته أن ينتظر أولا عند سكرتيرته الحسناء.

أخفت سحابات الدخان وجهه وقد لمح شيئا عجيبا: عماله قد أصابهم مسّ من التعقل المفاجىء..يتبادلون نظرات سريعة جادة حذرة. عيونهم متجهة نحو الباب الواقع خلف مجلسه باهتمام. يهمهمون..العقلاء منهم نسبيا يقفون فجأة..يومك اسود ياعيسى يابن نجم..ما الذى جاء به الى هذا المكان المنكر من المصنع والذى لم يزره مدير من قبل ؟!

- كيف حالك ياعيسى

انتفض مذهولا. ألقى بالسيجارة على الأرض دون أن يشعر. جاء الجبان يبحث لى عن أذى جديد.

- أتدخن فى العنبر ياعيسى؟

شل لسانه عن الحركة.اصفر وجهه واسود وازرق.

- ألا تعرف ياعيسى أن التدخين فى العنبر عقوبته الفصل بدون مكافأة؟!

- .....

- عليك بالحضور الى مكتبى ياحيوان بعد أن أنهى جولتى بالمصنع

أخذ يمر بين موائد تصنيع الأكياس وعيسى يهرول من خلفه فى ذعر. أبدى بعض الملاحظات التافهة.نظر بتعجب الى عادل الذى لحس بلسانه ما تساقط من أنفه وابتسم. غادر جمال مقعده فجأة وابتسامة الظفر تعلو شفتيه. دفع المدير بيده فى لامبالاة تلقائية ومرق الى خارج العنبر وقد ألجمت الدهشة ألسنة الجميع.

قال عيسى:

- لامؤاخذه ياسعادة البيه أصله مجنون

توقع عيسى رد فعل حادا من جانب المدير.فوجىء به يتجه فى ثبات الى حيث تجلس السمرة ثم أشار اليها متسائلا:

- ما اسم هذه العاملة ياعيسى ؟

غمغم عيسى فى ضميره:

- ألا تعرف اسمها يابن ال...؟!

انتفضت السمرة فى ذعر قائلة:

- خدامتك خديجه بيومى يا بيه

آه..لم يحدث شىء اذن. واضح أنها المرة الأولى التى تخاطبه فيها، لأنه لو كان شيئا بينهما قد حدث لبانت على وجهها أية إمارة. لكنها فى حالة يرثى لها من الرعب.ان سعادة البيه المدير بحاله يخاطبها من دون الجميع..حسنا ياعيسى. الفريسة لم تسقط بعد .

- أنت تعملين بمهارة عظيمه ياخديجه

- ربنا يخليك ياسيدى

قال لعيسى بسرعة البرق:

- قدم لى مذكرة عن هذه العاملة حتى أمنحها مكافأة

يابن الأبالسه!! توزع أموالنا على نزواتك، وتريد أن تفصلنى لأننى أنفث دخان همومى منك فى الهواء.

ابتسمت خديدة ملء شفتيها بينما اندفع جريشى كسهم طائش.

- نريد الدرجة يابيه

- قل هذا الكلام لرئيسك ياولد

- قلناه لطوب الأرض ولم يسأل عنا أحد

قال المدير لعيسى:

- هذا الولد قليل الأدب. اخصم يومين من راتبه.

على باب العنبراصطدم المدير بجمال فى طريق عودته. استوقفه جمال صائحا فى وجهه:

- الصلاة ياموٴمنين الصلاة

دفعه عيسى فى صدره ليبعده عن طريق المدير وينتهز الفرصة ليتوسل اليه فيصفح عنه ولا يفصله ، لكنه تراجع حين لمح على وجهه علامات معينة توحى بشىء من التسامح وان كان غير منزه عن الغرض. رمقه المدير بنظرة تعج بالمعانى الصريحة غير المستترة..

هاهى الفرصة تلوح أمامك من جديد. عليك الآن باقتحام سر خديجة.الدرجة ياعيسى. الدرجة قبل أن تصبح أضحوكة المشايخ والمعتوهين.دعه لخالقه يحاسبه كيف يشاء.لكنك ستكون شريكا فى الذنب. لابأس. عليك بالاستغفار والاستزادة من الصلاة وطلب الرحمة. أهكذا

تتراجع وتسقط يباعيسى فى ثوان؟!.. أين خوفك من الله؟.. لاتسأل نفسك كثيرا فلقد مللت انتظار الأجوبة. توكل على الله واقتحم السر.

****

تناثر اللغط غى أرجاء العنبر. اجتمع المشايخ فى ركنهم يتهامسون حول نبأ ذهاب خديجه الى مكتب البيه المدير بناء على طلبه. قال كبيرهم:

- **الحكاية أكبر من المكافأة التشجيعية**

وعلق الآخرون:

- **صدقت ..فعينه زائغة وتندب فيها رصاصة**
- **وكيف عرفت ذلك وقد ولدت ولامؤاخذة أعمى؟**
- **ياغبى أنا خبير بفتنة النساء، وصوت البنت وحده يؤكد على أنها بطة بالصلاة على النبى**
- **بسم الله ماشاء الله..يا أخى ان بعض الظن اثم**
- **دعك من كلام الله يانجس**
- **بعد قليل سنعرف كل ما نجهله**
- **ترى هل تبوح الأفعى بسرها؟**

صلى عيسى ركعتين فى مسجد المصنع ثم توجه الى خديجه، وفى الطريق اليها قال لنفسه ان ما هو مقدم عليه ليس بذنب عظيم كما تصور من قبل ، وأن الغيب يخفى له أمى نديا لم يكن فى الحسبان. قال لخديجة:

- **تشجعى يابنيتى فحظك عظيم**
- **ألا تأتى معى ياعم عيسى؟**
- **من الأفضل أن تكونى بمفردك وألا تعصى له أمرا**
- **انى خائفة**
- **حذار من مجادلته. لاتجيبى عليه الا بحاضر ونعم**

****

مرت ساعة كأنها دهر.حرق عيسى نصف ما بعلبته من سجائر. عادت خديجه وعلى وجهها غيم وبنفسها كدر.بدت وكأن عمرها قد ازداد سنينا. سألت لعيسى فى عتاب حزين غاضب:

- **أكنت تعلم؟**
- **ماذا حدث؟**
- **أجبنى ياعم عيسى. اكنت تعلم بنيته؟**
- **ماذا طلب منك؟**
- **أنت تعرف. ولو أخبرتنى من البداية ماذهبت**
- **أعصيت أوامره ياسمره؟**

بكت خديجه. كتم عيسى انفعاله وقد تذكر واقعة الاجهاض والشيخ الفاعل. قال لها بخبث غلفه بحنان زائف:

- **لست وجه نعمة**
- **كأنك تعلم وتوافق**
- **ياخديجة كونى عاقلة ، فالقيامة لن تقوم قبل موعدها لو أجبتيه الى طلبه**
- **أنت لاتفكر الا فى مصلحتك**
- **لاتسيئى بى الظن ياسمرة . انا فى مقام أبيك**
- **أو ترضى لابنتك بما رضيته لى؟**
- **أف..عليك اذن بانتظار ماسيحيق بك من ظلم واضطهاد. انه رجل كافر**
- **ليس هناك ظلم واضطهاد أكثر من وجودنا على قيد هذه الحياة**
- **سوف ينتقم منك ومنى وسوف ترين.**

جن جنون عيسى. ترضى بالشيخ العجوز وترفض سيادة المدير؟..ياعجبى من عقلية النساء وعواطفهن الغبية. ذلك آخر ما كنت تتوقعه ياعيسى بعد أن رضيت لنفسك بالمهانة والقيام بذلك الدور الحقير.رضينا بالهم والهم لم يرض بنا. أيتجزأ مفهوم الشرف أحياناويصير كلاّ فى أحيان أخرى؟.. عموما ليس الذنب ذنبك. هو الذى طلب وهى التى رفضت. صحيح أنك لم تقم بالدور اياه بشكل مباشر ولكن الأعمال بالنيات. طول عمرك تحمل أطيب النوايا تجاه الناس. تعيش عمرك بين بقايا آدميين ورائحة كريهة وعمل قذر. يطحنك الفقر.يعشش الظلم على حياتك وحياتهم.من المسئول عن ذلك كله؟ الأرض أم السماء؟.. لامفر من مواجهة الحقيقة فأنت مسئول وكل هؤلاء الجبناء مسئولون بما فيهم عادل وجمال. أنظر الى مجموعة المشايخ. انهم لايكفون عن النميمة والتهامس. صوتهم لايعلو أبدا، وكأن كل ما فى الدنيا من ظلم وجبن وسخرية قد تعنكب فى نفوسهم بنسيج معقد فى أركان هذا العنبر الكئيب.

تساءل العاملون بالأقسام الأخرى فى المصنع:

- ماذا جرى لعم عيسى؟
- عمره ما كان هكذا
- يوقع الجزاءات على عماله بالجملة
- انه بدأ يضربهم بلا رحمة
- العجيب أنهم لايقاومونه
- ان تأثيره عليهم لعجيب
- لقد رفع مذكرة الى الادارة العليا يطلب احالة معظمهم الى التقاعد واحلال عمال أصحاء محلهم
- لعلها بوادر الجنون بالعدوى
- قالوا فى الامثال من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم
- لم يقدر على الحمار فقدر على البردعة

راح عيسى يتأمل ماوقع حوله. شعر بفقدان واضح لتوازنه الداخلى والخارجى، فقرر أن يحصل على إجازة ريثما يسترد أنفاسه ويستعيد ثبات جأشه. قال ان مافعله بعماله لن يقدم ولن يؤخر ، وفسر انفلات زمامه منه بأنها حالة انتفاخ ذاتى عارضة وان حملت فى أحشائها ثمرة عمل عظيم ينبغى أن يقوم به، لكنه رفض أن يسمح لنفسه بالتفكير فى أسباب هذا العمل أو نتائجه.

ركز علاقته- بعد انتهاء الاجازة – بجمال عوض الله تركيزا مكثفا. تودد اليه. مسح على رأسه.أعفاه من الأعمال الشاقة. طلب له أكوابا عديدة من الشاى على حسابه. منحه بقايا عديدة من سجائره قبل أن يكتمل احتراقها. مرة أخرى منحه سيجارة كالملة ثم قال له:

- كيف احوالك ياجمال؟
- زفت..المره عند امها ومعها العيال
- لماذا؟
- قالت لى اننى حيوان فضربتها بخشبة على رأسها ونزفت كثيرا
- حلو..يمكن اذن ان نلتقى اليوم فى بيتك بالمساء
- لم؟
- لأنى أريد محادثتك فى أمر هام
- خلاص..نتقابل عند "طق الليل"
- بمنزلك أفضل يا جمال
- قلت لك أننى لا أسمح لأحد بدخول منزلى حتى لو كانت امراتى غائبة
- اذن فبمنزلى
- ألم تسمع ياغبى؟قلت لك عند طق الليل فى جنينة محطة مصر

لافائدة. مصمم على مابرأسه الخرب.. وينتهى بك المطاف ياعيسى الى السهر مع مجنون فى وكر رجل مشبوه- حتى من اسمه – بصحبة مجموعة من المخنثين ومحترفى الشذوذ يصفقون له ويرقص لهم.. ثم أنا غبى أيها العبيط؟!!..ياسبحان الله.

- موافق ياجمال. نلتقى عند طق الليل

****

نزلت ياعيسى وصعدت خديجة ، والحال باقية على ماهى عليه.فلتكتب لك السماء نجاحا فى محاولتك الجديدة. جمال معتوه رسمى رغم أنه يعمل بشركة حكومية.مهما فعل فلن يحاسب. سيقولون فى النهاية انه مجنون.. ويموت الظلم ياعيسى..يموت.

****

تساقط المطر فى غزارة. اسودت السحب وخيم على المصنع صمت غامض. قبع عمال عنبر الأكياس فى أماكنهم ولم يغادر أحدهم العنبر الا جمال. صنع لنفسه قرطاسا كبيرا من الورق. وضعه على رأسه وراح يجرى فى طرقات المصنع وهو يصيح:

- أعوذ بالله من غضب الله. اعوذ بالله من غضب الله

تأمله عيسى بقلب واجف وقد علت وجهه صفرة كالحة. كان غافلا تماما عما يجرى بعنبره، فالمشايخ يفطرون الفول المدمس ، وعادل يلعب فى جيب سرواله المثقوب محركا يمناه بسرعة ملحوظة وعيناه على فخذى خديجة ،وابتسامته البلهاء تغمر وجهه، والسائلان المتساقطان من أنفه وفمه يمتزجان فى هدوء ، وخديجه تشرب الشاى مع الجريشى على الأرض كاشفة عن فخذيها فى لامبالاة. سكينة القطع متوقفة . أما بقية العمال فمشغولون بثرثرة جوفاء حول الدرجات والترقيات. بوجه عام يكاد يكون العمل فى العنبر متوقفا تماما وعيسى هائم فى وساوسه الغامضة.

****

فوجىء المدير بجمال واقفا أمامه بالمكتب. ضغط على زر أمامه فلم يحضر الساعى . ضغط مرة أخرى بغضب على جرس السكرتيرة التى حضرت وقد فوجئت بوجود جمال الذى انتهز فرصة وجود الساعى بدورة المياه واندفع الى الداخل بسرعة البرق. أفهمت المدير باللغة الفرنسية أنها خافت اعتراض طريقه لأنها تعلم أنه مجنون. أشار اليها بالانصراف ثم تمالك نفسه وسأل جمال:

- نعم ؟

ظل جمال ينظر اليه بنظرته البلهاء دون أن يفتح فمه ، فبادره بسؤال آخر:

- ماذا تريد؟
- أنا جمال..ألا تعرفنى؟

تصنع الابتسام وهو يقول:

- أعرف ياجمال ، لكن لماذا جئت الى هنا؟
- جئت لأقتلك!!

اهتزت مفاصل الرجل وأصابته رعشة فزع من هول المفاجأة ، لكن ابتسامة جمال البلهاء أمدته بطمأنينة مؤقتة فاستعاد ثباته وقال وهو يضحك بصوت عال مخفيا خوفه:

- يارجل..دعك من هذا الهذر.. تفضل. اجلس واشعل هذه السيجارة

على الفور جلس جمال وتمطى على المقعد الاسفنجى الفاخر. وضع ساقا فوق ساق باعتزاز شديد فسقط قبقابه الأيمن على الأرض وبقى بالرجل الحافية مرفوعة فى خيلاء. انحنى المدير ليشعل له سيجارته فنفخ دخانها فى وجهه بسرعة عجيبة ، حين تراجع صاحبنا الى مكتبه متقززا.سادت فترة صمت قصيرة قطعها جمال بضربة قوية بقبضته على زجاج المكتب قائلا بحدة :

- أنا لا أعرف الهذار. سأقتلك يعنى سأقتلك

تبخرت طمأنينته مرة أخرى وعاد الى حالته الأولى من الفزع.

- لماذا ياجمال؟..ماذا فعلت بك حتى تفكر فى قتلى؟
- لأنك تريد أن تفصل عم عيسى

زاغت عيناه فى كل اتجاه. أعمل خلايا مخه بسرعة

- أهو الذى قال لك ذلك؟
- بل أنت الذى قلت وأمامنا جميعا
- كنت فقط أهدده ، لكنى لا أوذى احدا وخاصة عم عيسى

أخرج جمال من جيبه مدية. وضعها بهدوء أمامه على المنضدة الصغيرة صارخا فجأة:

- لماذا لاتصلى معنا فى الجامع ياكلب؟

أخذ الرجل بالمفاجأة مجيبا بما يشبه التوسل:

- أنا لايفوتنى فرض واحد ياجمال. وبهذه المناسبة أتحب أن أصحبك معى فى العمرة على نفقتى هذا العام؟
- لاينفع أن أذهب الى الحجاز مع كافر
- سامحك الله..أنا أحبك ياجمال
- كذاب..أنت تحب خديجه السمرة

امتزج الخوف بدهشة وقد تغلب الغضب على نبراته المرتعشة:

- خديجه السمره؟ من الذى قال لك هذا الكلام الفارغ؟
- أتظننى لا أفهم ألاعيبك؟..عيب عليك. ألست متزوجا
- أمامك صورة أطفالى تحت زجاج المكتب

وقف جمال يتأمل باهتمام شديد صورة المدير مع أولاده الثلاثة. ازدادت ابتسامته اتساعا بينما وضع المدية فى جيبه وأطفأ سيجارته قالا بحرقة:

- أوحشنى أولادى..هات سيجارة

استعاد المدير رباطة جأشه وتنفس بعمق. فى لمح البصر أشعل له سيجارة محاولا التودد اليه، سائلا فى حنان زائف:

- وما سبب غيابهم ؟ ..ما رأيك فى أن نشرب الشاى معا ؟

قال بثقة وهو يبدل وضع الساق فوق الساق:

- ماشى..شاى ثقيل

ضغط على الزر فحضر الساعى وتلقى منه نظرة غاضبة حافلة بالوعيد والتهديد بعقوبة مؤجلة وطلب الشاى . خرج الساعى مذهولا لهول ما رأى.. قال جمال فى حزن وبصوت خفيض:

- الأولاد مع امهم عند جدتهم
- هل تحب أن أصحبك معى فى عربتى لنعيدهم اليك؟
- وهل تقدر على اقناع أمهم بذلك؟
- هذا مؤكد
- أنت رجل طيب.. أنا افتقد جسدها الطرى
- لاتحمل هما. ستهنأ به الليلة وتفعل ما تشاء
- عشر مرات!!

****

طالت غيبة جمال. كادت ضربات قلب عيسى أن تتوقف حين لمح مدير المصنع قادما الى عنبر الأكياس ، مصطحبا جمال، واضعا يسراه على كتفه. انتهزعادل فرصة الارتباك الذى حدث بالعنبر لدى مشاهدة المدير ،فاختطف قبلة من السمرة. ضربته على قفاه ثم مسحت بقرف معتاد ما التصق بخدها من سائل.

كان المطر قد كف عن التساقط. سار جمال رافعا رأسه فى شموخ وابتسامة الظفر تعلو وجهه. يتلفت فى خيلاء الى اليمين واليسار ليراه عمال المصنع بصحبة المدير.

فى رفق وئيد ، تسللت خيوط الشمس من بين السحب الداكنة واستشاع فى الجو خدر دافىء لذيذ ..لكنه كان واضحا أنه لن يلبث حتى يزول.

****

1982

النقطـــــة

****

وهو يقدم لى فنجان القهوة اليومى فى نفس الموعد من صباح كل يوم ، قال لى النادل الماكر :

- لقد نسيت ولاعتك بالأمس ، وكذلك لم تأخذ بقية حسابك

لم أهتم كثيرا بما قال حسن،لأننى فى أيام أخرى أنسى علبة السجائر أو النظارة أو سلسلة المفاتيح لأجده محتفظا بها فى اليوم التالى.كما أننى عادة ما أنسى أين ركنت عربتى وأظل دائخا أبحث عنها فى الشرق والغرب. لكنى تجرأت على حسم ترددى فيما دار بذهنى فقلت له وأنا أشك تماما فى صحة ما أقول:

- النسيان نعمة يابو على..هات الولاعة

انصرفت عنه متناسيا وجوده الذى لايشكل بالنسبة لى أهمية تذكر- وهذا كبر لا أغفره لنفسى – ثم لم ألبث أن تناسيت وجودى أنا الآخر ولكن عن غير عمد، ذلك أنه حمل ثقيل موجع مقلق مشحون بالعذاب والتعذيب،غالبا مادفعتنى الفطرة فى سنواتى الأخيرة الى التخلص منه كلما أمكننى ذلك.ولكنى ما أن أفعل حتى أجد نفسى غائصا فى غياهب الماضى البعيد والبعيد جدا،فأتذكر أشياء غريبة وعجيبة تجذرت فى أرضى.صحيح أنها حدثت لى وأنها ذات صلة حقيقية بوجودى،ولكنى أنظر اليها كما لو كانت قد حدثت لشخص آخر لايمت لى بأدنى صلة..أشياء قد تبدو غير متصلة ببعضها،لكنها تشكل فى ظنى عالما طينيا متكاملا..وقال لى الصول مرسى وهو فى غاية من الدهشة:

- يا أخى أسهل حاجه عند عزيزة خلع هدومها

من هو الصول مرسى؟..اسمه يبعث فى ذاكرتى ترعة وعشة ريفية مهجورة وعربة فارهة وامرأة صارخة الجمال،وطقس شديد البرودة وأمطار ورعود وعواصف، ومظاهرات تطالب

بالحرية والديموقراطية وعصى غليظة وكلاب مسعورة وقنابل مسيلة للدموع..وأبذل جهدا فائقا لأتذكر من هى عزيزه،فأنا واثق أننى أعرفها تماما كما أعرف الدنيا- فالاثنتان فى صفاء الحليب ونعومة الأفعى وتقلب الدهر،ولدغتهما لا تؤدى الا الى القبر- ولكنها لا تجىء أبدا.أنا واثق أيضا أننى قلت لمرسى فى ذات الليلة:

- ابعد عن السلطة وغنى لها

ثم لم ألبث أن أضفت متراجعا:

- لا..حتى الغناء خسارة فيها

ولكن ما علاقتى بالسلطة وأنا أعيش على معاشى ولايقف على بيتى حارس من طرف لاظوغلى وليس لدى كرش كبير أو رصيد فى بنك أجنبى؟..ولطالما كنت أفضل الجلوس على الرصيف عن الجلوس على المقعد،والنوم على الأرض عن النوم على السرير،والرقص عاريا فى خلوتى على أنغام الموسيقا عن الرقص كاسيا مع امرأة فى ملهى ليلى،والفرق بين الحليلة والخليلة نقطة،وسبحان من حلل الحلال وحرم الحرام..ذاكرتى لم يسرقها الزمن وإنما سرقها الكلاب فحولونى الى نقطة بعد أن كنت مساحة.

قيل لى فى مجلس غيبوبة هابط ان أحد زملاء الدراسة قد حصل على الدكتوراه فى مساحة النقطة،وأنا لم أعد أستبعد حدوث أى شىء فى هذا الكون المختل بفعل فاعل،رغم أنه خلق منضبطا متوازنا منتظما..فى النقطة ضربونى وعذبونى، والنقطة عندنا تعنى قسم الشرطة.عجبت لأن هذه النقطة كائنة فى مدينتى التى هى كائنة فى بلدى،ولذلك كنت أضحك من شدة الضرب وكان هذا يثير جنونهم ويضاعف من قسوتهم ..وكانت زوجة رئيسى نقطة سوداء فى حياتى الرمادية بلون التراب. ما كان أسهل من إجابتها الى مطلبها دون أن تدفع فيه ذلك الثمن الباهظ الذى رأته بخسا،فهى لم تحبنى كما لم تحب زوجها ،وأغلب ظنى أنها لم تحب أحدا.عشقها كله كان موجها الى السلطة وزوجها كان خادما لهذا العشق،فقد اختارته من دون غيره لما رأت فيه مطية طيّعة لعشقها..من المؤكد أنها ليست عزيزة،فعزيزة لايمكن أن تشى بى أو تستعدى علىّ مباحث أمن الدولة، وإن كنت لا أعرف شيئا عن مصدر هذا التأكيد أو هذه الثقة فى عزيزة. المهم أن زوجها اختلس لأجل إرضائها – وكان يضحك كثيرا هو الآخر – فكان مصيره السجن..آه من جدرانه الكئيبة ورفاقه التعساء وأيامه السوداء فى لون الكحل.. أما هى فقد تبوأت أعلى المناصب السياسية والحزبية وصارت تمتلك الشقق والأراضى فى كل مكان ولم يعد من السهل مقابلتها..هذه هى الحقيقة"والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى"، والحقيقة لايمكن أن نغيرها ولو بطربة حشيش،لكنها يمكن أن تغيرنا لمجرد كونها حقيقة،والعنكبوت رغم وهنه وهشاشته شديد الشراسة فى اصطياد

ذبابة،والحب يعقبه الوصال والوصال أعظمه نكاح وفناء الشهوة فى اللذة ولايعقب ذلك كله إلا التطهر والعودة الى رحاب الحق الجدير بالفناء فيه وحده لتحقيق اللذة الروحية من جميل وصله،فما أحلى الاغتراب عن الوجود ياعزيزه ولو تحول انسان الى نقطة..واقتحمنى حسن فى آلية كريهة وهو يغير مطفأة السجائر بأخرى فارغة:

- فيم تفكر يامولانا؟..لقد التهمت علبة سجائر كاملة!

أنظر الى عينيه المنطفئتين بحكم الحاجة والعجز والرغبة التى يراها مشروعة فى ابتزازى.

- اشتر لى علبة جديدة ولا أريد أن أراك بعد الآن

فى السابعة من عمرى اصطدت يوما سمكتين كبيرتين أثارتا دهشة الصيادين من حولى.لم أكن أعرف اننى حين أكبر سأخوض تجربتين فى الحب وأنصهر فى أتونهما الملتهب حتى يتبين لى فى النهاية – مع طرقعة الكرابيج - أن كل شىء الى زوال.توجهت بالسمكتين الى عم درويش صعلوك رأس التين الملتحى ، القابع فى خيمته المهترئة على أقصى طرف الشاطىء. كان كعادته يشرب صوت الموج والريح والكحول الأحمر الرخيص ويأكل الترمس والخيار.أعطيتهما له ليشويهما ويأكلهما. على وجهه كانت تتجسد آيات غضب أسطورى من الوجود والعدم معا فى ابتسامة غامضة مستقرة لا تفارقه.كل الأطفال يخافون منه ويكرهونه ولايجرءون على الاقتراب منه فيما عداى.كنت أستشعر فيه معنى كبيرا غامضا وإن كنت لاأدركه.قال لى بحنان كثيف:

- عفارم عليك ياولد..أنا ميت من الجوع

وفى المساء أعطتنى أمى بعض الملابس القديمة.قدمتها له حتى يستبدلها بملابسه الممزقة وسألته فى براءة:

- لماذا لا تحلق لحيتك ياعم درويش؟

أجابنى فى هدوء وبنفس البراءة:

- ولماذا أحلقها؟

وبينما نجلس معا قال لى كلاما كثيرا غير مترابط،أكاد أذكره جيدا رغم أننى لم أفهمه فى حينه.قال ان معظم الناس كلاب وإن الإنسان مخلوق شرير بطبعه، وصمت قليلاثم قال:

- أنا لا أريد أن أعرف أحدا ولا أريد شيئا من أحد،فأنا غنى عن البشر بالله والبحر رغم أن قصر الملك فاروق لايبعد كثيرا عن موقع خيمتى!

سألته فى دهشة:

- وما شأن الملك بك؟!

أجاب فى ثقة رائعة:

- **ألا تعرف أنه صديقى؟**
- **نعم !**
- **لقد مر بى أكثر من مرة وهو يتنزه بقاربه البخارى،ويوما بعث إلىّ بطبق كبير من اللحم المشوى وزجاجتى نبيذ مستورد..انه يحب مصر**
- **لابد أنك تحبه كثيرا**
- **قلت اننى لا أحب أحدا غير الله وبحره الواسع**
- **ومصر..ألا تحبها؟**
- **لو كانت احبتنى لأحببتها**

كنت معجبا بغرابته وتناقضاته، خاصة حين أسمعه يرتل القرآن بصوت خاشع،وقد علمت أن صوفيا من الغابرين قال انه ليس الى البغية سبيل ولا على درك الرضا دليل،فللعقل صلف شديد،وللحس برق ظاهر،والإنسان بينهما أسير..وقلت لنفسى كيف تغرق يابنى آدم فى مثل هذه الهلوسات وأنت لم تتعاط شيئا يغيبك عن وجودك،فأنت حاضر ووجودك غائب عنك،وأنت موجود وحضورك غائب عنك..والحق أننى منذ شرعت فى البحث عن هذه القضية الترابية المعضلة باهتمام شديد،قرأت النسخ الثلاث على التوالى قراءة جيدة.كانت الأولى مادة فاحترمتها.كانت الثانية روح فطرت معها الى السماوات الملكوتية العالية..وكانت الطبعة المنقحة الثالثة عدلا فعشقتها واعتنقتها وعرفت نشوة الإيمان وحلاوة الحرية.لكن المشكلة فى أن الذاكرة تخوننى بفجر فأنسى وينكسر قلبى وأتساءل لماذا خلق الله الشر والأشرار ، رغم أننى أعرف الإجابة التى تنطوى على مزيج مبهر من الكوميديا والتراجيديا وملايين علامات الاستفهام، فأغرق فى تاريخ الحروب الصليبية وفتح الأندلس وسقوطها،واختلاف الزعماء والمشايخ المصريين على ولاية مصر حتى فضلوا رجلا ألبانيا على أنفسهم،وأتذكر قصة سيدنا يوسف مع زليخه الداعرة – زوجة الهكسوسى المحتل – وكيف أدخل اليهود الى مصر فخرج بهم سيدنا موسى الى سيناء ودخل بهم يوشع بن نون الى فلسطين فشتتهم نبوخذنصر الى بابل فأعادهم قورش الى فلسطين فدمرهم طيطوس،حتى انتهى المطاف الى أن ساد بهم شارون عالم عزيزه ودرويش والصول مرسى والملك فاروق ومحمد نجيب وجمال عبد الناصر وجورج بوش وأنفاس الحشيش والقنوات الفضائية والدماء التى غطت الكرة الأرضية..وحتى يحقق شارون سيادته فإنه التزم حرفيا بمعكوس تعليمات أبى بكر الصديق لجنوده الفاتحين حين قال لهم:

"لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا أو شيخا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحواشاة ولابقرة ولابعيرا إلا لما أكل،وسوف تمرون

بأناس قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".. وهكذا أصبحت عزيزه تمتلك السلطة والثروة والشهرة،أما فاروق فقد سلب منه ملكه وطرد من مصر شر طردة ومات فى ايطاليا شر ميتة،ونشأ حزب جديد قوى اسمه الحزب الناصرى، وكنت أسكر بغير خمر وأسكن الجنة وأجول فى حدائقها حين أضع رأسى على صدر حبيبتى وأهيم فى عطره المعطاء،ومازلت عاجزا حتى اليوم عن اتخاذ قرار باستخراج بطاقة انتخابية،خاصة بعد صدور وثيقة الاسكندرية للإصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى عام2004 فى طبعة أنيقة وضعت نسخة منها على أحد رفوف مكتبتى بالبيت ثم نسيت مكانها،ولما قيل انهم سيعدلون الدستور ليكون الرئيس منتخبا من الشعب أدركت بفطرتى- لابفطنتى- ان هذا لايحدث فى مصرنا إلا لغرض فى نفس يعقوب،وبحثت عن الطبعة الأنيقة فلم أجدها،وأما العم درويش فمات غرقا وبذلك استحالت القحبة ومعها الملك والصعلوك الى ذرات من التراب متناهية فى الصغر يدوس عليها الغادى والرائح من أمة خلقه كما داسوا علىّ هناك،وأعتقد أننى كنت صحافيا شهيرا ولما سرق الكلاب حلمى، هاجمنى السكر والضغط وتعجبت لوقاحتهما فكيف يجرآن وأنا رجل صاحب مزاج يستمتع حتى النخاع بصوت أم كلثوم وهى تغنى فى رفق حنون:"ان هذا الثرى من أعين ساحرة الاحورار فامش الهوينى"،وكانت انشراح حوراء العينين وكان حورها يتحول فى ذروة شبقها الى حول.لقد علمتنى فى شبابى أفانين اللذة رغم أنها لم تكن تعرف القراءة أوالكتابة ولكنها لاشك حاصلة على الدكتوراه فى مساحة المتعة.. وفى الثامنة ضربنى مدرس الدين بالخيرزانة على يدى لأننى تلعثمت فى تسميع سورة الرحمان،وقال لى جدى الفرعون ان الموت مقدس فهربت من جنازة عمى وذهبت لأستحم فى البحر عاريا،ورغم عشقى للنور فأنا لا استطيع أن أذكر أين أمضيت ليلتى بالأمس،لكن ما الفائدة حتى لو تذكرت وتيقنت ودفعتنى شدة الألم الى الانفجار فى الضحك،وقد عصى حسن أوامرى وجاء يقول فى حماس غبى:

- نسيت أن أخبرك أن عمر بك سأل عنك بالأمس
- ومن هو عمر بك؟

صاح متسائلا فى دهشة استنكارية لا تحق له:

-نعم؟..أتسألنى عن صديق عمرك؟!

ماذا يعنينى من أمر صديق عمرى إن كان أولادى قد سافروا وتركونى لوحدتى وضياعى بعد اختفاء أمهم ياعزيزة؟..

عيال عزيزة لم يتركوها كما تركنى عيالى،لكنها هى التى أهملتهم فأمرهم لايهمها فى شىء..أنا الآن أستاذ فى فن الضياع ولافخر، فقد تناوب على حكمى عبد ومخصى وامرأة..

يعتقد أبنائى الأوغاد ياعمر أننى سوف أستجدى عطفهم ورعايتهم لكن هذا لن يحدث فأنا وريث حكمة عم درويش الذى أكله السمك الذى أكله الناس،فلست أريد شيئا من أحد ولست أريد أن أعرف أحدا أو يعرفنى أحد مهما أطلت علىّ من غياهب الماضى وجوه بادلتنى العطف والمودة والحنان،فما أقسى النسيان وما أعظمه و"ادلعى يانشرح اللى راح راح" ،ولقد كان خلع الملابس أكثر سهولة عند عشرات ممن عرفت غير عزيزة ويبدو أن تلك السهولة غير مرتبطة بغريزة الإنجاب،والغرائز لايد لأحد فيها،لكنى لم أعد أذكر احداهن، وقتل الذاكرة يجعل الأمور متساوية فكأنما ليست هناك خسارة فى غياب الوعى بأننى لم أعرف فى حياتى امرأة غير زوجتى التى نسيت معالم وجهها منذ اختفت قبل أن أخبرها بما حدث بينى وبين زوجة رئيسى لعلها تسامحنى وتصفح عنى فأنا أكره الخيانة ورغم ذلك مارستها مرارا وتكرارا ومن المؤكد أن عزيزة كانت بينهن،الا أننى لاأستطيع أن أتذكر شيئا عن ملابسات لقائى بها منذ أن فعل بى العبيد من أمثال الصول مرسى ما فعلوه باوامر أسيادهم من كلاب المقاعد الوثيرة،وما يذهلنى الآن فوق ذهولى المرضى هو أن عزيزة تحتل اليوم تفكيرى بحيث أصبحت محور حياتى الماضية والحاضرة،وأنا أستبعد أنها كانت تعرف زوجتى أو أن زوجتى كانت تعرفها والله أعلم،وهاهو رجل غريب يقف أمامى قائلا:

- الحساب ياباشا

- أى حساب ومن أنت؟

شهق الرجل تعجبا..

-أنا حسن ياباشا..ليس هذاوقت فقدان الذاكرة

-عظيم جدا.عرفت أنك حسن،لكن ..أنا...؟

أنا معدوم رغم أنفى.كان لابد أن أدرك ذلك منذ البداية،خاصة وأننى شهدت إعدامى من الخارج بحرمانى من حقوقى كافة،كما شهدت إعدامى من الداخل حين أشهرت يأسى وجبنى وتخاذلى أمام الكلاب،فلو أدمنت قرع الباب لفتح لى،لكنى استعذبت الإذلال واستمرأته حتى لم أعد قادرا على تذكر اسمى،فأصبحت الطريقة الوحيدة لتذكّره هى أن أخرج بطاقتى الشخصية من حافظتى لأقرأ بياناتها.

فتحت الحافظة ونظرت الى البطاقة فوجدت صورة لامرأة..كما أننى لم أجد إسمى مدونا بالبطاقة.آه..أدركت الآن فقط أن الحياة أكذوبة كبرى.

أصابنى فزع وارتباك أمام حسن وعزيزة وعمر والصول مرسى ودرويش وانشراح ذات الحور والحول.تصبب العرق على جبينى وتحت إبطى،ثم تطور الأمر الى ذهول تام حين

اقتحمت الآيات ذاكرتى"ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون"..وصرخ حسن:

-ألا تعرف حتى من أنت؟!

انكمشت أمامه وانفتح فمى عن آخره وأنا لا أدرى ماذا أقول وماذا أفعل.

****

لحظـــة التوقـــــف

****

فى قلب هموم النهار وفى بؤرة الصراع اليومى الدامى ، سقطت حزمة من أشعة تائهة من عينيه فى اتجاه غير مقصود.امرأة ذات ملامح لاتنسى ، جالسة الى مائدة فى بهو المقهى الكبير المطل على الشارع مباشرة. تدخن سيجارة بثقة هادئة.وجه أسمر هندى الملامح وشعر أسود طويل لامع.

بلا أدنى تفكير ، وفى لحظة خاطفة كومض البرق سرقت من الزمن ، قرر أن يبحث عن أقرب موقف للعربات. لابأس أن يتوقف السعى وراء الحياة الهاربة أبدا ولو لمدة ساعة. ركن العربة فى مكان قريب. حاول استجماع ذاكرته قدر المستطاع.أين رآها؟..كم يتسرب العمر بخبث شديد. أين التقى بها؟.لامهرب من انكماش الذاكرة بفعل الزمن.هذه المرأة زمن من تاريخ حياته الطائر وقطعة منه فكيف لايذكرها؟.استعرض فى عجالة علاقاته بمجتمعات العمل والفن والثقافة والأصدقاء والأقارب ، فلم يذكر أين التقاها من قبل. كان من الممكن ألا يلمحها ، فإشارة المرور كانت خضراء ، ومع ذلك لمحها بسرعة العربة. كان من الممكن أيضا ألا يستوقف الذهن صورتها من الذاكرة فيستمر وراء سعيه اليومى المنهك. الذى حدث أنه بمجرد رؤيتها اهتز فى كيانه شىء ما.شىء دفعه الى ضرورة التوقف. التوقف عن كل شىء فى الحياة عدا الرجوع الى هذه السيدة.

****

- من يلعب المساكه؟

- حسن وبهجت ونعمه ووحيد والديبه

عشرة سنوات فى الحارة الضيقة الوديعة ، حيث البيوت واطئة متلاصقة فى ود شديد. معالمها الواضحة عندنا – نحن أبناء العاشرة – تتمثل فى انتهائها قرب شاطىء البحر. ملمح خطير يجمع شمل عالمنا فى سهولة ويسر ونقاء، فنحن متحابون جدا كما لو كنا اخوة حقيقيين.أنا ابن كامل افندى الموظف بالسكة الحديد. بهجت ابن الحاج حسين تاجر القطن. وحيد ابن عبده السمكرى.الديبه ابن العربى الصياد..ثم نعمه بنت عم على البواب.صنعت قلوبنا هذا الملمح دون تدخل من الكبار.الصيف لنا والشتاء وكل الأيام والسنوات. عالم يخلو من الغم والكدر، وحياة لايغشاها الخوف من أفاعيل الزمان.أحب أن أكون المسّاك لأبدأ باقتناص نعيمه من مؤخرتها الكبيرة. دائما تشد اعجابى وتلفت نظرى اليها بحبل من غموض. البنت الوحيدة بين أربعة من الصبيان، شخصيتها آمرة ناهية ، تغرى بالانقياد وراءها دون تفكير. تزيد قليلا عن العاشرة. قبل أن يحضر عم على تكون قد سبقته الى

البيت بالطابق الأرضى حتى لايراها تلعب مع الصبية وقد غابت الشمس فيغضب منها ويحرمها من اللعب فى الحارة.

****

علمته الحياة أن الجرأة الشديدة هى أقصر الطرق لاقتحامها. بعد القنبلة النيوترونية لم يعد الزمن يسمح بانتظار. تقدم أمام مائدتها بثبات:

- صباح الخير يفندم

قدمت له ابتسامة لطيفة مصحوبة بشىء من الدهشة. ما أحلى النساء. على وجهها بانت علامات الاستفسار. ما أروع الاقتحام.

- هل تسمحين ؟

لم ينتظر السماح وجذب مقعدا.ركزت بصرها على سبابتها التى نفضت بطرفها جزءا من رماد السيجارة بالمنفضة. تأملته بنظرة أخفت وراءها كبرياءها.. وما معنى الحياة بلا رغبة فى استكشاف المجهول؟..

- أوقفت عربتى خصيصا لأجل أن أعرف أين التقينا من قبل

ابتسمت. لاتبتسم الدنيا الا لغازيها. مطت شفتيها بلا مبالاة. صمتت قليلا. خلق الله الدنيا فى ستة أيام. عادت وأخفت عدم اكتراثها. نظرت اليه محاولة التذكر.

- هل انت واثق انك تعرفنى الى هذه الدرجة؟

- لو لم يكن الأمر كذلك لواصلت طريقى الى لقاء هام

قالت بابتسامة امتزجت فيها الطفولة بالأنوثة:

- وماذا لو اتضح أنك كنت تعرفنى؟..هل سيغير هذا من مسار حياة أى منا؟

- هو داء حب الاستطلاع اللعين وليس أكثر من ذلكد

تفرس فى معالم وجهها. كاد يقول شيئا ما لكنه تراجع. ثمن الثوب الذى ترتديه لايقل عن ألفى جنيه. لايمكن ان تكون هى..لم يصل الاسم الى خاطره. اللعنة على الزمن.التزمت الصمت.نفثت دخان سيجارتها فى الهواء وهى تنظر فى اتجاه مخالف لاتجاه حسن. تجاهلت – عن غير قصد- وجوده أمامها. كانت طبيعية جدا فى كل حركاتها وسكناتها. بدأ يشعر بالحرج بعد أن طالت فترة الصمت.

****

لحظة أذان المغرب تمكنت من اقتناصها. الجميع يختفون خلف البيوت المجاورة وفى حناياها الضيقة. تظاهرت بتتبع بهجت بينما أرقب بطرف عينى مكان اختبائها.انزوت فى ركن مظلم ببدروم سراى البشوتى ، واثقة أننى لن اهتدى اليها فى هذا المكان الذى لايجرؤ طفل على الاقتراب منه خوفا من حارس السراى الذى كان بالمصادفة غائبا فى ذلك الوقت. يشدنى حبل الغموض السحرى اليها. يرتجف جسدى بنشوة مبهمة امتزج فيها الخوف بالرغبة.الرغبة فى الامساك بنعمه بالذات وليس بأحد غيرها. نظرت يمينا ويسارا. ببطء شديد وحذر أشد تسللت الى بدروم السراى.أذان المغرب يبدد سكون الزقاق.رائحة الجو توحى بالتوجس والظنون. حفيف الأشجار يناجى نسمات الخريف بوشوشات غامضة.

لحظة أن ارتميت عليها لم تصرخ بمرح كعادتها حين تتعرض للمسك. قال لى شعور خفى انها كانت تنتظر هذه اللحظة حتى تستسلم لعاقبتها دون مقاومة. أكبرها بعام واحد. لم أمسكها من مؤخرتها ككل مرة. احتضنتها تماما. لم تنطق. لم أتحرك. ران صمت طويل وتبودلت أنفاس ساخنة حائرة لفحت الوجهين. اقتحم الصبية المكان لأول مرة يزفهم صخبهم وضجيجهم. بإحساس فطرى مبهم انفصلت عنها على الفور. مضت لحظة صامتة غامضة، لم نلبث بعدها أن اندمجنا فى المجموع.

****

لم يجد بدا من تبديد جو الحرج الذى سيطر على الموقف. سألها بلهجة قاطعة:

- هل أكون متطفلا لو سألتك عن اسم والدك؟

أجابت بنغمة موحية:

- سؤال تعرف اجابته

- تقصدين أننى متطفل؟..معك حق

- بل أقصد أنك تعرف اسم أبى

سألها بلهفة الاستطلاع المستبدة به:

- عم على؟؟؟؟؟؟؟

- نعم

- نعمـــــــــه؟!!!

- نعم

وابتسمت فى سعادة لم ترغب فى اخفائها.

****

فى اليوم التالى لم تظهر نعمه. سأل الجميع عنها ولم أسأل.انزويت فى ركن أفكر بذهن يغلفه ضباب كثيف.مزيج من الخوف والنشوة يغذى قلقى المتزايد عليها. لماذا لم تحضر لتلعب معنا ككل يوم.استرعى انتباهنا جميعا- وأنا بصفة خاصة – وقوف عملاق ضخم أمام باب بيت نعمه. طوله مخيف. بنيانه عريض. وجهه مدجج بعلامات القوة والقسوة. يرتدى جلبابا فضفاضا فوقه معطف خفيف أصفر. عم على يفتح الباب ويستقبله باحترام زائد. يتكرر المشهد نفسه لعدة أيام متتالية دون أن تظهر نعمه.. ثم بدأ التكرار يأخذ طابع الانتظام مساء كل خميس.

التقطت أذناى حديثا عابرا بين نسوة الزقاق لم أفهم مدلوله. قالت احداهن:

- البنت فايره من يومها

وقالت أخرى:

- يعمل مخبرا سريا

لم أفهم شيئا ولكنى أحسست بصدق أن هذا العملاق قد اختطف منا نعمه الى الأبد. لم اعرف لماذا يعاملنا الكبار بهذا الاستبداد الكريه ، فيفسدون علينا حياتنا الجميلة. خطفوا نعمه. تأكد صدق احساسى حين فوجئت الحارة بالكهربائى يعلق المصابيح حول شرفات المنزل.

أخيرا ظهرت نعمه. لم نتبين ملامحها التى نعرفها. كانت ملونة الوجه والملبس وبدت كامرأة صغيرة مخيفة غريبة عنا. دب فى روحى شعور عميق بكراهية العملاق، وأحسست بنقمة عارمة على نعمة التى اختفت من الزقاق الى الأبد.

****

- أما زلت زوجة للمخبر؟

اجابته بابتسامة ساخرة:

- مـــا كنـــت أحســـب أن رجـــال الأعمـــال المتـــأنقين تنقصـــهم دقةالملاحظة

أمن على قولها بالنظر الى الثوب الثمين الذى ترتديه. تذكر أيام الحارة. عاوده شعور الصغار تجاه الكبار حين يخطفون احلامهم..فأين ذهب العملاق؟

- الطـــــلاق؟!..

- بل الموت المفاجىء العاجل بلا سبب

إذن فقد اختطف القدر خاطف نعمة واقتص لنا.

- كيف ؟

أجابت باستسلام للقوة التى لاتقهر:

- لعله تخطيط علوى ، وربك وما يريد

كم أنت خادعة أيتها السنون.

- من تزوجت بعده؟
- ضابط كبير كان المرحوم يعمل في حراسته وخدمته
- هكذا أنت دائما.. لاتقعين الا واقفة

أطلقت ضحكة كشفت عن سعادتها بالاستسلام للقدر وقالت :

- زوجى انسان طيب جدا ومحب للناس والحياة

استعاد هدوءه. امتص سنوات عمره المنسحقة فى لحظة التوقف عن السعى.. مجنون من يحاول فهم كل أسرار الحياة.

تأهب للانصراف. قالت له ببساطة واثقة:

- هو على وصول الآن.. يمكنك البقاء قليلا لأعرفك به

نظر الى ساعته فى قلق. فكر فى عربته. انتهت لحظة التوقف.

****

نشرت بمجلة حواء فى 1983/4/30

رحلة الصعود والهبوط

أغلق عم على مصحفه وقال صدق الله العظيم. رفع نهاية جلبابه البلدى الذى عادة ما يرتديه على اللحم وجلس مسترخيا على الكنبة. أشعل سيجارة وراح يفكر فى ذلك الخاطر الذى طالما ألح عليه فى الأيام الأخيرة. كانت تبدو على وجهه آيات الدهشة والسرحان الطفولى ، وكان فى الوقت نفسه مقتنعا بإمكانية تحول الخاطر الى حقيقة واقعة. ولم لا يتحرك فيحول الحلم الى حقيقة متخذا قراره الخطير؟..

ألقى بنظرة تأملية على فخذى زوجته وهى جالسة على الأرض تصب له شاى العصر. هبت نسمة هواء خفيفة من نافذة شقته الأرضية. جذب نفسا عميقا تسربت مع هوائه أتربة الزقاق محملة برائحة السردين والعطن، لكن يبدو أنه لم يشعر بشىء من هذا..البيت هادىء تماما. صدفة لايجود بها الزمان الا مرة أو مرتين كل عدة أشهر. كل الأطفال والصبية بالخارج. البعض عند الخالة والبعض يعبث بكوم القاذورات على ناصية الحارة السد ، والبعض يعمل بالوردية وجميعهم سبعة أبناء وبنات. آه أيها الزمن. كم تمر مسرعا دون أن ندرى.

عبقت الغرفة برائحة الشاى. جلست أم ابراهيم الى جواره. كان جسمها بضا صريح الطراوة ، طالما حرمه الأولاد الملاعين من الاستمتاع به.مرة يراه أحد أطفاله فيظن أنه يعتدى على أمه فيسأله مذعورا:

-حرام عليك تخنق أمى يابا

ومرة يضبط احدى ابنتيه تتلصص عليه فتطير أبراج عقله وترتخى عضلاته..ومرة يسهر الولدان الكبيران يلعبان الورق فيمكثان حتى الصباح ، ثم يتشاجران على النقود.

أم ابراهيم دائمة الابتسام والطاعة. تثير الآن فى نفس عم على بركانا من الحب الجياش. أى طمأنينة مقدسة تلك التى توحى بها دائما الى قلبه بقسمات وجهها المليح واستكانتها المحببة الى الحياة. ضمها الى صدره وقاتل لها:

- سلامات يا ام ابراهيم

تضحك بسعادة نابعة من القلب. تقول بدلال غريزى لم تدخل عليه المدنية أى تعديل:

- وحشتنى يابو ابراهيم

أغلق خصاص النافذة الوحيدة. بقى باب الشقة. آه.. المزلاج مكسور منذ سبع سنوات. أصبح مكان المعيشة كطريق عام يدوسه كل من هب ودب. لكن لابأس. هناك حل.

دفع الباب. وضع من خلفه زيرا قديما نصف مكسور. لو دفع الباب أحد سيتحرك نصف الزير محدثا صوت الانذار المطلوب. فكر مرة ثانية. أيغامر ويفعلها أم أن أوان تحقيق الحلم لم يحن بعد؟..أطفأ السيجارة على عجل ، ثم تباطأ قليلا مع انطفاء الجمرة حين دهمه شعور مفاجيء بالأسى ، لأن عنصرى الخوف والسرعة سيبددان من سعادته باللحظة فيسلبان الخاطر طبيعته والحلم بهجته، لكنه كان فيما يبدو قد اتخذ القرار:

- تعالى يا ام ابراهيم

وكان من نتيجة الطاعة والابتسامة الدائمتين عند ام ابراهيم ، أن بدأ على عصفور – شيخ المخدمين بالحى – يلهث بشدة ، ثم ازداد لهاثه حين تجردت ام ابراهيم- وهى تبتسم – من آخر قطعة من ملابسها. قال بخبرة العمر وهو فى ذروة التركيز:

- بسم الله الرحمان...

قبل أن ينطق بالرحيم تحرك نصف الزير مزمجرا ، فقفز من الكنبة وارتدى جلبابه فى لمح البصر، دافعا بالغطاء فوق جسد زوجته آمرا اياها أن تدعى النوم.. كانت احدى البنتين. أغلقت دورة المياه بعد أن أبدت تأففها من الرائحة.وقفت تخلع ملابسها فى الغرفة الوحيدة.رمقت بحدة قطعة من ملابس أمها الداخلية ملقاة على الأرض.لمحها عم على.بسرعة تفوق البرق ألقى بجريدته فوقها وهو يرتعد من الضيق والحرج ، فلسوء الحظ لم تسقط الجريدة بكاملها على القطعة التى بدت أكثر وضوحا لحدوث تضاد واضح بين لونها ولون الجريدة.

فى الخاطر رأى نفسه مختليا بأم ابراهيم فى غرفة مغلقة عليهما وحدهما. يحتضنها ويضم ثدييها الكبيرين الى صدره ، ثم ينظر بسعادة الى المزلاج السليم المغلق بتمام الاحكام. فى الخاطر كانت النافذة تطل من ارتفاع كبير على بقعة خضراء رائعة فى قلب المدينة.

فى الواقع كان جسد البنت شبيها بجسد أمها. قال لها على عجل:

- لاتخلعى ملابسك ، واشترى لنا ربع كيلو جبنة من عمك غنيم البقال

خرجت البنت ، لكنها تركت الباب مفتوحا. قامت ام ابراهيم تصهلل ضاحكة وهى تعاود ارتداء قميصها قبل أن يقذفها عم على بالقطعة اياها فى ضيق شديد. أوحت اليه ضحكات زوجها بأن الأمر لايكاد يعنيها ، فاستنكر ذلك فى قرارة نفسه. أشعل سيجارة أخرى وقرر أن يحيل الحلم الى حقيقة، واللعنة على النظام والتدبير والأبناء السبعة وكر السنين. ماوراء الأولاد الا الهم والكدر وشقاء كل يوم بين متاعب الخادمات وشح أثرياء المدينة وضآلة الأجر الذى يتقاضاه من عمله النهارى بأحد المصانع الحكومية.. لن تكلفه المغامرة سوى جنيهات قليلة قيمة اشتراكه وزوجته فى الرحلة التى سيقوم بها المصنع الى العاصمة. توكل على الله يابو ابراهيم. العمر واحد والرب واحد ورزقك على فيض الكريم. ليلة واحدة من ليالى العمر يا على يا عصفور ولو انقلب عالى الدنيا واطيها.

رفع غطاء الكنبة. أخرج الجنيهات المطلوبة لشراء التذكرتين مضافا اليها جنيهات قليلة أخرى للشبرقة والبعزقة والفانتازيه.

فى صباح

اليوم التالى كانت أم ابراهيم واضعة يدها فى يد زوجها وسط مجموعة متناثرة من العمال وزوجاتهم ، والجميع يقفون – لأول مرة - فى شبه ذهول أمام الفندق السياحى الكبير.

لايستطيع على عصفور أن يجزم بأنه نام بالأمس. ذلك لأن الأفكار الكثيرة التى كانت تطارده بطول الليل وعرضه قد بددت حلاوة الخاطر وأجهضت حماس الحلم.. كيف ينام وهى المرة الأولى فى حياته – وحياة زوجته بالتبعية – التى يزور فيها العاصمة الشهيرة، ثم يبيت فى فندق عظيم به غرف مستقلة، بها دورات مياه خاصة يسمع أنها تبرق من شدة النظافة؟.. لعلها أول ميزة كبرى يستفيد بها من الاشتراكية التى فلقوا بها دماغه فى الدورات التدريبة ، ولم يفهم منها شيئا. لكن كيف سيصعد مع ام ابراهيم بالمصعد الأوتوماتيكى الذى قيل أنه يفتح ويقفل من تلقاء نفسه؟.. وماذا يحدث لو أقفل من دونى على أم ابراهيم أو العكس؟..كيف نلتقى بعد ذلك دون أن يضحك منا أكابر البلد؟..أغلب الظن أن أم ابراهيم سترقع بالصوت الحيانى فتثير منا قرف الأغنياء ونفورهم. لاتقلق ياعلى. المسألة ليست مزعجة الى هذا الحد. خذ الأمر ببساطة. نم واسترح حتى الصباح ويحلها ألف حلال.. لكنه لم ينم على وجه التأكيد.

أمام الباب نسى عم على كل شىء ، وصارت مشكلته الوحيدة هى حيرته فى كيفية مواجهة الموقف. كان يرتعد خوفا من داخله، وإن نجح فى إخفاء مشاعره بمهارة ، بحيث بدا أمام زوجته واثقا من نفسه تماما. استمدت أم ابراهيم من هذه الثقة ثقة أكبر منها ، فاتسعت ابتسامتها وبدت كأنها طفلة فرحة باستكشاف الحياة منبهرة بغموضها.

خيل اليه أنه قد لايستطيع النوم خلال هذه الليلة أيضا كما حدث بالأمس لأنه خائف ، وهو يعرف أن كلا من الخائف والبردان والجوعان لايستطيع النوم. آه.. ما أجمل النوم على الكنبة ساعة العصرية ياعلى. ما الذى أتى بك الى هذه المدينة التى تبدو كوحش غريب متعدد الأفواه والأنياب ، يشع من عيونه العديدة شررا حارقا؟..

أدرك أن أزمة المصعد ستمر بسلام حين قام موظف بتوصيل العمال الى غرفهم على مجموعات متعاقبة. كان عم على وزوجته ضمن المجموعة الثالثة، فقد آثر الانتظار حتى يدرس الموقف على الطبيعة بالنسبة لغيره قبل أن يمارس التجربة بنفسه. لاحظ أثناء وقوفه مجموعة من السياح ينظرون اليه بتعجب شديد ، لم يفطن الى سببه ، وقد ازداد خجلا وارتباكا. عدل من وضع جلبابه البلدى الواسع الذى كان بغير حاجة الى تعديل.

عم على فى السابعة والأربعين ، أى بزيادة فى العمر على زوجته قدرها سنوات سبع. تزوجها وهى صبية لاتعرف عن متاهات الدنيا شيئا ، وهو على العموم يظن أنها مازالت كذلك حتى الآن..أجمل ما فيها أنها تخشى غضبه وتجتهد دائما فى ادخال السرور على قلبه.

التصقت به داخل المصعد وقد التقى بصره ببصرها على صدر سائحة شقراء يكاد يكون عاريا. بصحبتها رجل يضع يده فوق كتفها المستدير مربتا عليه بإيقاع ثابت مصاحب للصفير الذى يخرج من فمه. اندفع المصعد مسرعا فهبط منه قلبه . أراد أن يصرخ من شدة الرعب نادما على مغامرته أشد الندم. لكن الاطمئنان ما لبث أن عاوده حين رأى جسد زوجته مختفيا بتمامه داخل ملاءتها السوداء الفضفاضة.

صحيح أنه دخل بيوت الأكابر وأتحفهم بالكثير من الخادمات الوفيات اللاتى لاتمكثن فى العادة لأكثر من شهرين فى بيت واحد ، حيث رأى عشرات المصاعد ، لكنه لم يفكر مرة فى استخدامها بل كان يفضل الصعود والهبوط على قدميه رافعا طرف جلبابه بفمه. كان مبعث استقراره النفسى الدائم فى سكنه أنه لصيق بالأرض ، لذلك فإنه لم يكن يستمع بأذن صاغية ، أو حتى بأدنى قدر من الاهتمام الى

تطلعات أبنائه بالسكن فى دور علوى ، بل كان يرثى لحالهم فى أعماق نفسه لقلة تدينهم ولجهلهم بمصير ابن آدم الحتمى كما يعرفه عن يقين.

وقف معها فى الشرفة الملحقة بغرفتها الخاصة المطلة على قلب المدينة. لم تكن ام ابراهيم منبهرة بمشاهدة المدينة من الشرفة بقدر انبهارها بجو الغرفة ومحتوياتها. راحت تتأمل كل ما فيها من أثاث ومرايا ودواليب وأرفف. ألقت بجسدها على الفراش فغاص بها فى هبوط رقيق وليونة مريحة لم يعرفها خيالها من قبل. استرخت بنشوة عميقة وجالت ببصرها فى السقف المدهون اللامع ، ثم ألقت بحذائها الى الأرض وراحت تتقلب يمينا ويسارا لتضاعف من متعة الاهتزاز والليونة. تذكرت الخاطر الذى أسر به زوجها اليها ذات ليلة ، فنادته بصوت له مغزاه:

- تعال يا بو ابراهيم

لم يسمع نداءها. كان فاغرا فمه دون أن يدرى. لأول مرة فى حياته يرى الدنيا من فوق. بنو آدم يهرولون فى الشوارع بطريقة عجيبة كما لو كانوا يهربون من شىء ما. يبدون له صغارا جدا من هذا الارتفاع. قال انه حتى لو كان أحدهم رئيس الوزارة نفسه، فإنه سيبدو من الشرفة صغيرا مثلهم تماما.. بعد تفكير قليل تعجب من قوله لكنه لم يستنكره.كان ينظر الى العربات وهى تجرى فيخيل اليه انها علب كبريت صغيرة يشدها مجموعة أطفال بخيوط متشابكة غير مرئية. فى النهاية شعر بدوار حين استحال انبهاره الى شىء من الخوف.

- تعال يابو ابراهيم

تنبه هذه المرة الى نداء زوجته.دخل الغرفة.يراها الآن لأول مرة.تحسس بيمناه أحد المقاعد. جلس عليه متربعا كما يجلس على الأرض. قال بحرقة:

- البيت وحشنى يا ام ابراهيم

- تعال متع نفسك بهذا السرير

-بعدين..بعدين يا امرأة..تعالى نعمل جولة بالمدينة أولا

- تجول وحدك ياعلى..أنا لن أفارق هذه الجنة

ولما كان السبيل مسدودا أمام عم على لمقاومة ابتسامتها الساحرة ، والتى أحالت بالأمس مشاعره نحوها الى فيض جارف ومفاجىء من الرغبة ، فإنه انحاز فى النهاية الى وجهة نظرها فتمدد بجوارها على الفراش.

- والعشاء يا ام ابراهيم.. ألم تجوعى؟

- والشاى أيضا.. كيف سنتصرف؟

- يبدو ألا مفر من النزول الى الشارع

فوجىء بطرقات رتيبة على باب غرفته. انتفض واقفا وفتح الباب بسرعة وقد شل الفضول تفكيره..من؟..السيد عثمان؟.. وهنا أيضا؟!!..

- الرزق يحب الخفة ياعم على

بحركة سريعة قام السيد عثمان بتقليب كوبين من الشاى ووضعهما على المائدة دون أن يطلب منه على شيئا. كان على مندهشا لجرأة السيد وهو يمارس داخل أروقة الفندق الفاخر نفس مهنته الاضافية التى يمارسها فى عنابر الشركة الى جانب عمله الأساسى فى غفلة من الرؤساء. ارتشفت أم ابراهيم جرعة كبيرة من كوبها دفعة واحدة وقال بسعادة بالغة:

- ياسلام..جئت فى وقتك يا سيد يا عثمان ربنا يبارك لك

انتبه على لحقيقة الموقف. انصاع للأمر كما هو واقع فاستوعبه ثم تجاوزه وسأل بلهفة:

- معك أكل يا سيد ؟

- طبعا ياعم على..خير ربنا كتير

انصرف السيد ليحضر المأكولات من غرفته،وقال على لزوجته وهو يشرب الشاى بنهم:

- الحمد لله..كله تمام..كأننا فى الفابريكة بالضبط

- لم يعد هناك داع للنزول وترك هذا النعيم

- طبعا

جاء السيد بعد ذلك وبيده لفافة. وضعها على المائدة. قال بصوت محدد الأحرف:

-حسابك مائة وخمسين قرش ياعم على

تناول النقود من عم على ووضعها فى جيبه بسرعة دون أن يحصيها. أخذ الكوبين الفارغين. حياهما واتجه الى غرفة أخرى.

بعد تناول العشاء أطفأ على عصفور النور.كانت حيرته شديدة.كيف تتلاشى الرغبة فى الوقت الذى ينبغى أن تحتد فيه؟..ما السبب؟..لماذا تبدد الحلم وتوارى الخاطر الملح بعيدا حتى ذاب بين ضوضاء هذه المدينة المفجعة كما رآها من فوق؟..

- مالك يا على ؟

- لاشىء..لا شىء

تماوجت الأمور فى ذهنه، وانقلبت طبائع الأشياء فصارت أم ابراهيم سيدة الموقف. تضاءلت ابتسامتها حين بدت علامات التفكير والقلق على وجهها. تحررت من ثوبها وراحت تداعبه بطريقة لم يألفها من قبل ، وكأنما قررت أن تنشله من حالته الطارئة التى لم تلحظها عليه من قبل أبدا.

- ايه يا على جرى لك ايه؟!..

خلعت قميصها الداخلى وعاودت المحاولة. نجحت قليلا فى التأثير عليه. لمعت عيناه ببريق مفاجىء. ابتسمت له برقة. سحبت الغطاء فوقهما..ضجة شديدة بالخارج. نظرا الى بعضهما فى تساؤل محير. قام على يستفسر. طرقات على الباب.رجال أمن الفندق يبحثون عن السيد عثمان. علموا بوجود موقد كيروسين فى غرفته. داهموا الغرفة. تقرر طرده من الفندق. حدثت ضجة وساد هرج ومرج.. قال لها على بلهجة تشبه الرجاء:

- ما رأيك لو خرجنا لجولة بالمدينة ثم نرجع بعد أن ينام الجميع؟

أجابته بقلق عفوى :

- يبدو أنه الحل الوحيد

أصرت على النزول باستخدام المصعد. ضغط على بيد مترددة على الزر الأخير كما تعلّم. بدأ المصعد فى الهبوط. بمجرد النزول عاش فى سكنه الأرضى فشعر بنشوة عارمة تنساب بقوة فى جسده وتراءى له الخاطر بقوة من جديد..فكر فى معاودة الصعود الى الغرفة. وقعت عيناه على عينيها المنتظرتين. احتضنها بلهفة شديدة فكاد يعتصرها بين يديه. ألجمتها الدهشة. قالت بلا وعى:

- نطلع ؟؟

أجابها على الفور

- ننزل .

****

نشرت بمجلة الثقافة فى أغسطس 1980

الكـــــــــــــــــــذاب

****

فى المساء عاد الى الفندق منتشيا بأوهام نصف الغائب.المعطف والكوفيه والبيريه والقفاز ودرجة الحرارة تقترب من الصفر. تزداد النشوة بمصافحة نسمات الهواء المثلجة لجلد الوجه الساخن المتفجر بالحيوية. الوجوه باسمة. الهدوء حالم والصخب لذيذ والسعادة حقيقية. الانطلاق فى فضاء الحياة اللانهائى يقتل الهموم ويبدد مخاوف الغيب.

ولأنها لحظات نصف غيب ، فإنها لحظات نصف وعى أيضا، وكم هو ممتع أن يتأرجح بينهما على حافة الحضور. استلقى بالغرفة على مقعد هزاز. أدار الموسيقا بالضغط على زر صغير. دار بالمقعد دورة. الستائر مرفوعة. الميدان فسيح. تمثال أورفيوس – الموسيقى الحالم - يعزف ألحانه الهائمة ومن حوله الملائكة تغنى وترفرف بأجنحتها الصغيرة. فى بؤبؤ عينيه يتجسد احساس وثيق لصيق بالحضارة. رسخ الانسان فى الأرض وسادها وأسعد نفسه. هناك على بعد آلاف الأميال لا تعرف العين هذا الاحساس. منذ تسعة أشهر لم ير أسرته. الوطن بعيد جدا. الزوجة والأولاد والأقارب والأصدقاء والجيران. اكتشف أحد الأصدقاء أن درجة الحرارة على كوكب الأرض تتناسب عكسيا مع درجة الحضارة. بالمناقشة تبين صدق الاكتشاف الى درجة كبيرة. أيها العرب اعطونا البترول بسعر معقول نعطيكم حضارتنا. أذان العصر حسب التوقيت المحلى لمدينة القاهرة.. أم تريدون لنا أن نتجمد حتى الموت؟..

رفع سماعة التليفون. طلب فنجانا من القهوة.فى لمح البصر كانت أمامه فتاة من ذوات الجلد الأحمر والشعر الفضى الناعم. الابتسامة جميلة لكنها ابتسامة عمل. أيها الخالق العظيم أحبك. أنت فنان رائع.

فتيات وفتيان يرقصون فى الميدان. شاب يعزف وسط الحلقة على الجيتار. قتل زعيم أفريقى رئيس وزرائه ثم أكله. تجمع البعض معلنين الحرب على الكفار. صوت الموسيقا جميل يبث عطرا فواحا بروعة الشباب يذوب فى موجات الأنغام الراقصة. تتضاعف سنوات الحياة وينبض القلب بانتظام وتتنفس الرئة بسهولة ويسر، واللعنة على أى منغص فى هذه الحياة. الأرض خضراء والسماء زرقاء وما بينهما كوكتيل عبقرى من ألوان الحياة.

شد الستائر. أسكت الموسيقا وانتقل الى المكتب الفاخر. سحب الأوراق الناعمة الملونة المدموغة بشعار الفندق العالمى الشهير. أمسك بالقلم. كانت تعبيرات وجهه جادة.

****

زوجتى العزيزة:

أعرفــك أننى...وأننى....و..و..وســوف أصــل الــى القــاهرة بــإذن الله يوم...شــهر... الساعة...هانت.فات الكثير ولم يبق الا القليل. أنا على خير ما يرام. أوحشتنى ملامح وجهك الجميل وشقاوة الأولاد العفاريت. أرجو ان تكونى قد التزمت بتوصياتى الأخيرة بشأن الاقتصاد فى الانفاق المنزلى. لاتنسى زيارة والدتى مرة كل أسبوع. ابعثى بتهنئة الى ابن عمى فى أمريكا بمناسبة زواجه ، ويمكنك ارسال هدية رمزية اليه. الذى يحتاجه البيت يحرم على الجامع. أبلغى تحياتى الحارة الى والديك العزيزين. أنا واثق أنك تواظبين على صلاة الفجر منذ اصلاح المنبه. النساء هنا فاجرات والعياذ بالله ولا يعرفن اتجاه القبلة. كان بودى أن أحضر معكم عيد الفطر. لاتنسى توصيل الزكاة الى عم حسين النجار.أخشى أن يكون المسكين قد مات فى وحدته. أنا سعيد بالوحدة . أعمل بلا توقف لإنجاز مهمتى ، حتى اننى لا أجد وقتا للتجول فى شوارع المدينة الا فيما ندر. البرودة قاتلة فى الشارع لاتشجع على النزول.شاهدت فيلما نفسيا مثيرا أدار رأسى ولم أصل الى نتيجة نهائية حتى الآن أمسك من خلالها بخيط يقودنى الى اكتشاف موقع السعادة من النفس الانسانية.. لاعليك فهذه مسألة معقدة، والحقيقة أننى لم أعد أفهم أشياء كثيرة فى هذه الحياة، ويمكنك القول أن الصدمة الحضارية أفقدتنى الذاكرة جزئيا فى العديد من المواقف.

زوجتى العزيزة

لقد راودنى بالأمس شعور غريب بالقلق فقررت الاسترخاء بالفندق. فى الصباح نظرت من زجاج النافذة فلم أستطع مقاومة النزول على الفور. امتزجت أشعة الضوء بإحساس العين المتجسد بخطوات الناس بدقات القلب بما فوق أعلى درجات اللذة ، فرأيت الحياة سحرا لايقاوم. العمل . المتعة. الانسان. الطبيعة. الله. الكون. التأمل. الصمت.. لاتنسى زيارة طبيب الأسنان لحشو ضروسك. لا أريد ان أعود لأجدها مازالت تؤلمك. احلقى للأولاد بنفسك واحرصى عليهم من البرد..أصلى لأجلك.

****

أغلق المظروف وكتب عليه عنوان منزله .أشعل سيجارة. أدار الموسيقا من جديد. جلس على المقعد الهزاز.أخذ يدور يمينا ويسارا. حتى شعر برأسه تدور.أدار قرص التليفون وتحدث طويلا بالانجليزية. آخر كلمة قالها:

- أنا فى انتظارك

عاد الى المكتب وكتب رسالة أخرى الى صديقه سميح. وضع الرسالة فى المظروف و قبل أن يغلقه دق جرس الباب. عانقته صديقته الحسناء..سألته والمظروف مفتوحا بيده:

- ماذا كنت تفعل؟

- كنت أكتب خطابا لصديق

تفحصت الخطاب بانبهار غير مبرر.

- هل تسمح لى بقراءته؟

- لكنك لاتعرفين العربية

- سأشير الى الكلمات وتترجمها لى

وافق بسعادة. قالت له وهى تقدم لفافة مغلقة:

- أحضرت معى مشروبا رائعا

ودع نصفه الحاضر وشربا حتى الثمالة. بدأ يقرأ لها بالعربية ويترجم بالانجليزية. ترددت ضحكاتهما بين أرجاء الغرفة الفاخرة ممتزجة بصوت الموسيقا.

****

"صديقى الحبيب سميح

سوف تظل نادما حتى الموت على رفضك مشاركتى هذه البعثة رغم ترشيحك لها معى. كم كان مبررك للرفض سخيفا وغبيا."..

سألته صديقته باهتمام شديد:
- لماذا لم يحضر معك صديقك؟
- كان مرتبطا مع أسرة خطيبته بموعد محدد لعقد القران
- أووووه!! ولماذا لم يؤجل الموعد لما بعد عودته من البعثة؟
- لوكنت مكانه لألغيته الى الأبد
ضحكت من أعماقها وقال ان صديقه هذا انسان مثالى..
"خيبك الله ياسميح. مائة مرة أقول لك بضرورة أن تعرف الحياة قبل اقتحامها. أن تفهم المرأة قبل معاشرتها. أنا واثق أن تجربتك الأولى مع المرأة لن تكون الا مع زوجتك. لعلها سوف تكون الأخيرة أيضا. هل تعلم أننى...."
قاطعته متسائلة:
- هل تمزح معه بقولك هذا ام أنك جاد ؟
- طبعا جاد
- أوه..ياه.. انه لشىء خرافى..مثير
" هل تعلم اننى بالرغم من ذلك أحسدك أحيانا على خيبتك القوية؟..لعلها تمدك بشعور دائم بالرضا والسكون لايسهل الحصول عليه للكثيرين. النساء هنا ياعزيزى نهر لاتكاد ترتوى من مائه حتى تظمأ اليه من جديد.. والنهر يغير كل مرة من طعم مائه. كل طعم أطعم مما قبله. انه ينساب فى كرم وسخاء لاحدود لهما.. لقد حرمت نفسك ياسميح من رؤية الجنة.. إن الله...."
- يبدو أن طبيبنا العبقرى يخفى بداخله شاعرا عظيما
- كل ما هنالك أننى أكتب لأصدقائى بصدق
- لكنك سحرت بنساء الغرب يادكتور
"ان الله خلق جنة على الأرض لأناس دون اناس. لست أعرف حكمته فى ذلك. أن يخص بعضا من مخلوقاته بتلك الجنة والبعض الآخر بالتعاسة والتخلف ، فهذا مايحيرنى. قد تقول ان أرض الله واسعة وملك للجميع ، ومن لايعجبه هنا فليذهب الى هناك. قد تقول ان الانسان هو صانع جنته أو ناره على الأرض. أنا أعرف أنك محب للجدل، لكنك...."
قالت وهى تعانقه:
- انى أحترم رأى صديقك بشدة
قال ساخرا منها :
- لهذا سوف أرفع درجة حرارة السخان وننام عرايا بلا غطاء حتى الصباح..ما رأيك؟
- مجنـــــون !!
" لكنك حين ترى بعينيك سيخرس لسانك وتفتح فمك طول النهار إعجابا أحيانا وذهولا أحيانا اخرى. لقد شربت مساء اليوم زجاجة ويسكى كاملة ولم أسكر. أمامنا ألف عام على الأقل حتى نتعلم منهم كيف نستمتع بحياتنا، لأننا لم نتعلم حتى الآن كيف نعمل حتى نستحق هذه المتعة.سأعود الى الصلاة بمجرد عودتى الى الوطن بإذن الله، لأننى أخشى أن أستمرىء هذا الفساد اللذيذ."
قالت وهى مسترخية تماما بينما تواصل الاستماع الى ترجمتى للخطاب:
- ليلة الأمس كنت شابا فى الثلاثين. أنت مجنون حقيقى
- لقد ندمت كثيرا على عمر التعقل ياعزيزتى
" ستسألنى: وهل تضمن عمرك؟..أتريد أن تموت كافرا؟..صدقنى ياصديقى أننى لن أشعر بشىء لحظة الموت لأنه بمجرد حضوره سأختفى من الوجود.. الجو هنا يبعث على النشاط والحيوية. البرودة تحفزك على العمل. النظام يجبرك على النظام. شيئا فشيئا أصبحت منظما فى كل شىء دون أن ادرى، وأنا ملك الفوضى والعربدة. حين أعود الى الباميه والملوخية سأرتد بالتأكيد الى سلوكى المعهود.تعود ريمه الى عادتها القديمة. لافائدة. كل شىء يدور

مع الأرض. أنا لست أعرف لماذا كتبت اليك اليوم. ربما لشعورى بالرغبة فى أن أنقل اليك مجموعة من الأحاسيس الخاصة والمشاعر الصادقة التى استطعت الامساك بتلابيبها فى هذه اللحظات السعيدة.. بالأمس شاهدت فيلما جنسيا مثيرا. تقززت نفسى لهول ما رأيت بالرغم من جمال بطلات الفيلم. حتى اللذة تحولت فى النهاية الى شىء مقرف بعد نفادها واستنزافها بشتى الطرق. أصبحت كل الأشياء محيرة فى نظرى بالرغم من احساسى بالسعادة. ان رأسى ثقيل للغاية..تصبح على خير"..

فى الحمام قالت له وهى تجفف له ظهره:

- لقد كانت رسالتك الى صديقك تحفة أدبية رائعة

وعلى الفراش تثاءب بقوة وهو يقول لها بجفنين ثقيلين:

- تصبحين على خير

****

نشرت بمجلة الهلال فى أكتوبر 1985

مكالمة من مجهول

****

منذ بضعة أشهر لم أجد بنفسى رغبة فى أن أريد شيئاً..كأن طاقتى للفعل قد بدأت تتحول بالتدريج إلى مجرد طاقة كامنة تحت تأثير قوة خفية قادمة من المجهول.. يحدث هذا فى ظل هدوء نفسى غريب لا يصحبه قلق، ولا يؤرقه خوف من المستقبل أو ندم على الماضى. ولقد وجدت أنه من العبث أن أسميه زهداً، فأنا أبعد ما أكون عن الزهاد، لأنى أقبل دائماً على مسرات الحياة بما يزيد عن حد الاعتدال ولكن فى غير نهم، وإنما ببطء متمرس، أستحلب المتع المشروعة حتى رحيقها الأخير، وفى الوقت ذاته أجدنى لا أحزن كثيراً لو بددتها الأقدار من يدى فجأة، فالأيام لا بد قادمة تحمل الجديد ، أو راحلة تحمل اليقين.

فى هدوء رحت أتأمل هذا التحول.. أهو شئ من قبيل المصالحة مع الحياة والناس والزمن والقبول بما هو متاح ، دون شعور بالأسى على ما لم يتحقق من أمانى ورغبات، أم أنه نضج مفتعل كشفت عنه خيبتى التى صدمت بها فجأة بعد هذا العمر الطويل؟

ستة عشر ألف وأربعمائة وخمسة وعشرون يوماً تجمعت فى لحظة أمامى، راودنى شعور بأنها قد جاءت تحاكمنى فأنا لم أستدعها بإرادتى . رنين مفاجئ لجرس الهاتف هو الذى استحضرها من العدم. لم أشعر بخصومة قائمة بينى وبينها فلم يكن هناك ما يبرر ذلك بوضوح سافر، لكن يبدو أن حبى لها لم يكن خالصاً.. رغم ذلك فقد باتت المواجهة بيننا أمراً محتوماً.

كنت أصلى العصر. رفعت "تغريد" السماعة. أسرعت فى صلاة الركعة الرابعة. دون وعى منى تبدد الانفصال الهلامى بين الدنيا والآخرة. كنت أنتظر مكالمة لا أهمية لها - كمعظم ما فى الأيام من أشياء لا أهمية لها- أما اكثر الأشياء أهمية فى الحياة فأنا لم أعرف ما هى حتى الآن.

كان وجه تغريد ممتقعا وقد اعتراه ذهول مفزع.. سمعتها تسأل المتحدث فى هلع:

- من أنت؟ .. من أنت؟

بالأمس عدت إلى منزلى مصطحبا أسرتى ويقينى بمصالحتى مع الحياة. أقام لى جمع من الأصدقاء والمعارف والزملاء حفلاً جميلاً بمناسبة حصولى على شئ من تلك الأشياء التى يدفعنا ضوء شمس كل صباح للسعى إلى الحصول عليها نحن

خلق الله من المهرولين دوماً فى الاتجاهات الأصلية الأربعة. تحدثوا فى الحفل عنى بمحبة عمقت فى نفسى الاحساس بالرضا عن أيامى ورضاها عنى، فتنفست الهواء بصدر لا نهاية لاتساعه، واصابتنى نفحة الحب بالارتياح الجميل. سعدى فى أحبائى وليس فى مالى أو منصبى أو موقعى الاجتماعى.لا أرى معنى لحياة تخلو من أصدقاء حقيقيين أستطيع أمامهم أن أتخلى عن احتراسى فى طمأنينة تامة. أشعر أننى طائر محلق يتغنى بالنشوة فوق واحة من السكينة الخضراء..حتى لو لم أنطق أمامهم بكلمة واحدة فالجلوس عندى مع الصديق والبوح له بسرى واستماعه إلى باهتمام، هى أمور تعظم من شعورى بالاكتفاء والاستغناء وراحة البال.. أحمدك يا إلهى وأشكرك لأنك لا تعاملنى بالمثل.

ناولتنى زوجتى السماعة وقد غطت بيدها بوق التحدث وهمست لى بنبرات مرتعشة:

-مجهول يسبك بوقاحة وانحطاط.

-هل ميزت صوته؟

-لم أسمع هذا الصوت من قبل

-ماذا يقول؟

-أين زوجك إبن ال..؟!

فى الفراغ الحائر بين السماعة وموطئ القدم تأرجحت أفكارى عن الطمأنينة واليقين والرزق والمصالحة وأغانى النشوة. استحالت الواحة الخضراء فى لمح البصر إلى أرض جرداء تعبث فيها الوحوش المتصارعة، فوضعت السماعة على أذنى وقلبى يخفق متوجسا وركبتاى ترتعشان بالتساؤل عمن يكون ذلك المجهول ولماذا جاء يسلبنى الحلم والفكرة، وأى أقدار تلك التى اختارت له هذا التوقيت ، وسؤال فرض نفسه على اللحظة هل أحمل حقا هذه الصفات البشعة التى وصفنى بها أم أننى برئ منها؟!

بالضرورة أن أكون أول العارفين ولكنى – وما أغرب ذلك – وجدت نفسى أشك فى تلك المعرفة وأنتظر بحيث تنتفى براءة المعاكسة، ويبقى أن هذا الكيل المتدفق من السباب المتدنى أمر مقصود ينطوى على حرقة وتهديد سافر وتوعد.

ممغنطاً أعدت السماعة إلى "تغريد" وقد أعجزنى دوار غامض عن الاتزان وشل عقلى عن التفكير. تلقفتها منى بلهفة إلى أذنها وكأنها بشوق إلى سماع المزيد. تبددت قدرتى على التفكير البرقى الذى ألفته فى نفسى عند الأزمات. هل حان يوم الشك المرتقب .هل تنبذ جوانحها فى لحظة عابرة قصة حبنا التى تبادل الأقران روايتها فى غبطة واعجاب وغيرة وانبهار؟! .. كنا حديث المحبين والعزال فهل تصورت أننى أخون العهد، وأن هذا الصوت الوحشى الجريح المهدد بالثأر المتوعد بالانتقام ينزف مرارة بلا معنى؟! أم أنها تود لو ضحت بعمرها كى تكشف معى النقاب عن صاحب هذا الصوت حتى أتمكن من إنزال أفدح العقاب به، وهى تعلم يقينا أننى ما تنازلت يوما عن حقى لمخلوق إلا من باب الشفقة؟!

من بؤرة الدوامة التى جذبتنى بعنف إلى مجالها القاتل تناثرت أوراق عمرى حاملة ذلك الرقم الطويل العريض العميق بعظمته وتفاهته وتعقله وجنونه. بينما وقفت "تغريد" امامى على مسافة تبعد عن موقعى بمقدار تسعين عاما ، وقد أتى كل منا الى الحياةً فى نفس السنة والشهر واليوم.

خيل إلى رغم بعد المسافة أنها تقول للمتحدث المجهول:

-إنه يصلى

تعيش يا رجل يا طيب وهما اسمه المصالحة ، فتلقى بنفسك إلى التهلكة. لم تكد تهنأ برفاهية الامتناع عن الفعل و الإرادة ولو للحظات قليلة. حتى الآن لم يكن قد

سمع صوتى. أنا الذى سمعت صوته لبرهة وجيزة قبل إعادة السماعة إلى تغريد. ضاع من ذاكرتى نص الكلمات التى سبنى بها فى عبارات سريعة متعاقبة كل ما تبقى منها مجرد انطباع. ما أعجب أن تزلزل الكيان موجات صوتية هائمة فى الأثير فتبث الرعب فى النفس ، وتلقى فى جوفها ببذور الشك المسمومة. انطباع أشعرنى بأننى سلمت عمرى بيدى للوهم فأعطانى بدلاً منه السراب. تخليت وتوهمت وظننت وصدقت وآمنت وأيقنت.. وبعد هذا كله تنشق الأرض عن مخلوق يكن لك كل هذا الكم من الكراهية والعداء.. هه؟!.. كيف؟!.

أن يرفضنى إنسان أو يتجنبنى أو يحبنى أو يخاف منى أو يحقد على فذلك أمر مفهوم. أما أن تغلى فى قلبه –ضدى- كل هذه الشحنة المتفجرة من البغضاء والعداوة، فما أقل شأنى فى عالم المغفلين. وتبقى ضرورة الدفاع عن بقائى بكل ما أملك من أدوات غريزية لا حيلة لى فى استثارتها لحظة الخطر ولا فى سكونها لحظة الأمان .. المهم هو البقاء.. وقال لها الرجل الذى يكرهنى دون أن أعرف من هو:

-هاها .. يصلى؟!

اختطفت منها السماعة بقوة أذهلتها. أكانت تلك هى اللحظة التى ترتقبها بصبر نافد لتبدد عتمة شكوكها حتى تسترد ثقتها بى؟ .. وإلا فلماذا أخاف مواجهته لو كنت بريئاً؟!.. ولماذا لا يحق لها الظن بأنها تعاشر إنساناً كاذباً أتقن التمثيل لربع قرن بأكمله؟.. كيف لو تبين لها أن هذا الإنسان قد طارح امرأة غيرها الغرام يوماً؟!

وضعت السماعة على أذنى وسألته بكل ما تراكم فى حلقى من حزم وخوف وضعف وقوة ورجاء:

-من أنت؟!

التزم الصمت. فوجئ بموقفى. أفسدت عليه زهوه بانتصاره بعد أن أوحى لها بقدرته على تقديم الأدلة على خيانتى لها. تصور الساذج أن الطريق ممهد أمامه كى يعربد فى أرضى آمنا.

-تكلم يا جبان.. من أنت؟!

لمع بريق الفرحة فى عينيها.هو زوجها إذن. ذلك الرجل الذى أحبته قوياً وضعيفاً. ناجحاً ومتعثراً. ها هو يهب للذود عن مصيرها بنبرات مخيفة. يزأر فى خصمه المجهول المدجج بسلاح خبيث لم يعرف بعد كنهه أو كيف السبيل إلى مواجهته.

-تكلم لو كنت رجلا.

كلما ازدادت حدة صوتى تملكتها الدهشة ، وتحول البريق السعيد فى عينيها إلى بريق من نوع آخر يعكس تفكيرا مكثفا و تحليلاً عميقا لما يحدث.

ولقد استمر بعينيها ذلك البريق المخيف بعد أن أغلقت السماعة، وحتى بعد أن امتنع صاحب الصوت المجهول عن الاتصال بنا مرة أخرى.

****

نشرت بجريدة الأهرام فى 2008/10/24

الـــــــــــــــــــــــدورة

****

- **<u>السابعة من صباح يوم فى أحد الأعوام:</u>**

رنين جرس المنبه والانتفاضة المفاجئة قبل مغادرةالفراش وطقوس الصباح اليومية التى لاتوحى بجديد. الولاد والحقائب المدرسية وتلميع الأحذية والمصروف وزى الألعاب وصيحات الزوجة بضرورة الافطار قبل النزول. آيات من القرآن الكريم ثم يغير المؤشر .. بحياتك ياولدى امرأة. الشخير أثناء النوم بسبب طول أو عرض اللهاة وارتخاء عظيمات الأنف مع تقدم السن. اضرب عدد سنواتك الهاربة فى عدد السجائر التى دخنتها تصل الى مدينة بعيدة. يتحقق حلمك بتغيير سكنك الممل. انزل بسرعة لتجتاز نفس الطريق وتذهب الى نفس العمل وتلتقى بنفس النفوس. اطرح الأحزان يتحقق حلمك الآخر بالكف عن العمل.. وآه من اللهاث!!

- **<u>التاسعة من مساء يوم بعد مرور عشرات الأعوام:</u>**

- يؤجل الاجتماع لأنى سأنصرف حالا
- كيف؟..وال..وال..وال.. ؟
- لن يحدث أى شىء فى الكون.. أنا واثق من هذا
- لكن ما السبب؟..ان معالى الوزير سيحضر الاجتماع بنفسه
- السبب هو موعد غرامى عاجل تقرر منذ لحظة

- **<u>التاسعة والنصف:</u>**

أمضيت عمرى منتسبا فى هلع الى الحياة.من أجل عينيك عشقت الهوى، بعد زمان كنت فيه الخلى. تخرج الولد فى الجامعة وقريبا تزف البنت الى عريسها أما الثالثة فقد جعلت منى جدا. يافاتنا لولاه ما هزنى وجد ولا طعم الهوى طاب لى. كل ما أنفقت من أيام أموال وأفكار ونزعات يؤكد أن هناك خطأ غير محسوس فى مسألة وجودى حتى نصف الساعة الماضية...وأشهد الله أننى لا أريد منك بل أريد لك ، واننى لست راغبا فيك بل راغبا لك، فقد علمتنى قبلاتك ألا أخاف الحياة أو الموت.

- أصابنا الجنون على كبر
- وماذا أفدنا من العقل؟
- كون كل منا أسرة سعيدة على الأقل
- وماذا بعد غير الأرق؟
- ينقصك الايمان يا عزيزى

●التاسعة والنصف من يوم آخر:

" أشكركم على هذا الحفل. انى سعيد حقا بإحالتى الى التقاعد وأسبابى عديدة.. اولها اننى سأتفرغ لتدليل نفسى بحبى الجديد. وآخرها اننى سأستريح من شعورى الدائم بالغثيان الذى كنتم تسببونه لى دون قصد منكم. من اليوم ستكف لعنة سيزيف عن ملاحقتى وسوف يسعدنى ألا أفكر فى محاولة الصعود مرة أخرى وأن أسعد بنعمة البقاء فى السفح هادئا مطمئنا قرير العين."

●ساعة ليل متأخرة من القرن السابع عشر:

قال الشاعر عن حبيبتى ذات الستين ربيعا:"ستصبحين مريم المجدلية ، وأنا شيئا مماثلا،وسيعبدنا جميع النساء وبعض الرجال..وبما ان المعجزات ستكون منشودة فى ذلك الزمن، فإنى اود أن يعلم هذا الجيل أى معجزات صنعنا نحن العاشقين الذين لم نؤت أذية.لقد عشنا بقوة ووفاء، ومع ذلك لم نتعرف على سر حبنا، ولم نعرف الفرق بين جنسينا.. تماما كالملائكة الحارسة كنا.. فى رواحنا ومجيئنا. نتبادل القبلات عرضا، دون أن نتوغل أبعد من ذلك.. لم تمس أيدينا الأختام.

●منتصف ليل الأمس:

أستغفرك يابديع السماوات والأرض ، فصورة وجه الارهابى القتيل يتجسد فيها القبح والبشاعة. عطّار أمّى قرر فجأة أن يعلمنا ديننا ويؤدبنا ويقتلنا فى النهار. أما فى الليل فإنه يأتى بساقطة ليضاجعها أمام زوجته الثالثة، وحين تعترض يجردها من ملابسها وينهال عليها ضربا حتى تفقد الوعى. نعم المعلم والمربى وبئس الزمان.. ولتتجرع أيها المتقاعد الشاب مايقرره عليك الضباط فى البوسنه والتلفزيون وبغداد وغزة والاذاعة ومقديشيو وبيروت ، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات.. هكذا صرحت نجمة مصر الشهيرة فى مهرجان القاهرة السينمائى هذا العام..أما معدتك فلم تعد تطمع اليوم فى أكثر من كسرة خبز وقطعة جبن..وعلى طاقم الأسنان أن يمضغ الثابت والمتحول والمطلق والنسبى جميعا، فكل الأحلام لم تتحقق، ورغم ذلك فقد انفلت القلب من زمنه وراح ينبض.

●عصر يوم قـــديم:

- أبى.. ما معنى الايمان؟

- أن توقن بوجود الله وكتبه ورسله وأن تعمل صالحا وتؤدى فروضك الدينية وتسلم بالقضاء والقدر

- وكيف يكون ذلك؟

●العشـــاء الأخـــير:

البئر ياصاحبى عميق. عميق.حذار من الصمت وتسلل الأفاعى وتضخم الفراغ. لاتصدق أن أحدا سوف يسأل عنك ، فالكل مضى الى مصيره. حتى غضبك لامعنى له ، فاعتراضك لن يجدى لأنك من الأصل لم تك شيئا مذكورا.. ولأنك لاتستطيع أن تزن آلاف الضحكات التى تبددت من حنجرتك ، ولا مئات السهرات التى انسكب فيها اللبن والعطر والقهوة والنبيذ ورائحة الشواء ، وتسللت منها أنغام الموسيقا..وغنيت وطربت وانتشيت ، وأمسكت بالعصا وبين الأصدقاء رقصت وتفانيت وفنيت.. ولولاها لكنت الآن وحيـــدا.

****

نشرت بمجلة حواء فى1997/9/13

الليلة التـــالية

****

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.أستغفر الله العظيم..أستغفر اللـــه..

-اخلعى ياامراة

أطبـق علـى زوجتـه ذهـول شـديد.فغرت فمهـا تعجبـا ودهشـة،وارتعدت فرائصـها خوفـا مـن تبعـة المغامرة،لكنهـا لـم تملـك سـوى أن تسـتجيب الـى رغبتـه.فى البدايـة كانـت متأففـة متألمـة وفـى النهايـة فإنهـا لـم تكـن أقـل منـه اسـتجابة لهـذا الـوازع الجنـونى المفاجىء،بـل لعلهـا فاقتـه قـوة وجنونـا دون أن تـدرى مـا السـبب..وفى الصـباح فاضـت روحهـا.

****

المـرآة اللعينـة تـوقظ المـارد.تفجر بركانـا خمـد منـذ أكثـر مـن عـام، أو هكـذا خيـل اليـه.تعبق العربـة برائحـة الحياة.ليلـك طويـل أيهـا الحرمـان.للإخلاص ضـريبة فادحـة.الاخلاص وليـد القـيم وليـدة الايمـان.لم تعـرف الزنـا فـى حياتـك يارجل.مهنتـك تفرضـه عليك فرضـا، بـدلا مـن المـرة عشـرات المرات.تتحـدث المـرأة معـه كمـا لـو كانـا علـى فراش.عليـك بتوصـيلهما لتتقاضـى أجرك.لايحـق لـك أن تقـف وتطردهمـا مـن عربتـك لأكثـر مـن سـبب،فهيئة الرجـل تـنم عـن أهميتـه.ربما كـان مـن أصـحاب النفـوذ ذوى المناصـب الكبرى.سـيكون مـن اليسـير عليـه سـحب رخصـتك وقـد تبيـت ليلـة أو ليلتـين فـى "التخشـيبة" وأنـت تـدرك خطـورة ذلـك علـى حيـاة زوجتك.كمـا أنهمـا لـم يأتيـا بفعل فاضـح داخـل العربـة ممـا لايبـرر لـك الإتيـان بأيـة محاولـة مـن هـذا القبيل.هـذا صـــحيح لكن..كـــل مـــافى هـــذه المـــرأة فاضـــح وصـــارخ ومثير.رائحتها.تقـــاطيع وجههـا.نعومـة كلماتها.فوهـة البركـان الكـامن فـوق شفتيها.انسـدال شـعرها الطبيعـى علـى كتفيها.ابتسـاماتها وضـحكاتها.تقلبها غيـر المسـتقر علـى المقعـد الخلفـى الـى جـوار الرجـل الـذى يبـدو أنـه مهم.اسـتقرار عينيهـا فـى ولـه وإعجـاب علـى وجهه.اللعنـة علـى هـذه المهنة.اسـتغفر الله العظيم.للصـبر حـدود ياسـت.أولادك بالـدنيا ياسـيد.فى القـرآن سـلوى.لاتنس تحـذير الطبيب:إيـاك والاقتـراب!..لكن اسـترخاء عضـلات وجههـا ينـم عـن الكثير.تفـوح فـى العربـة رائحـة متعـة وإشـباع وارتواء.مـاهى السـعادة أيهـا النـاس؟..لايمكن أن تكـون زوجتـه.خبرتك بعملائـك تؤكـد ذلك.الزوجـان غالبـا مايصـمتان.إن تحادثـا ففـى أمـور مثيـرة للقـرف والمشـاكل.ان ابتسـما فلأطفالهمـا فقط.ان تبادلا الودّ فبلا حرارة.

لم تعرف الزنا فى حياتك ياسيد.واقعك يغريك به.الى أين المفر اذن؟تتمايل يمينا ويسارا فى دلال قاتل.تهمس تارة فى أذنه وتارة فى فمه..حتى حين تصمت فهى قاتلة قاتلها الله!..

****

بالأمس الأول غرق قميصه فى سيل من الدم قرب الفجر.أفرغته زوجته من فمها على صدره.الطب والدواء يستنفدان طاقته المالية.يصر مع ذلك على تقبيلها كل يوم قبل أن تنام.حين يضيق صدره ويلتهب جسده يلقى بهمه على صديقه الشيخ حسن الذى غالبا ما يقول له:

- الزنا يورث الفقر ياسيد

حين يسرح فى صلواته بخيالات جامحة ينهيها مستغفرا ليعاودها من جديد.لو أهمل فرضا لابتعدت المسافة بينه وبين ربه.يريد أن يقترب منه دائما حتى يبتعد عن تعاسة واقعه واغراء مهنته.ربما كانت هى المهنة الوحيدة التى تلقى الى ممتهنيها بمختلف صنوف البشر ونماذجهم ليلا ونهارا.

بالأمس الأول نفسه-وفى طريق عودته الى بيته-كان يسير فى شارع رئيسى.أوقفته إشارة مرور.لحظ سيدة يستند اليها رجل متهالك كما لو كان خارجا لتوه من مستشفى.الصفرة تكسو وجهه.جلبابه قديم مهترىء به آثار دماء جفت وقروح تقيأت.السيدة ترتدى ثوبا بسيطا ومن عينيها تطل نظرة استعطاف وتوسل الى الدنيا بطلب الرحمة.كانا ينتظران على محطة عربات النقل العام.حتى لوجاءت عربة عامة فكيف يركبانها؟هل تحمل رجلها على كتفها وتنحشر به وسط الزحام؟..

كان المرض نقطة ضعف السيد.وكيف لايكون كذلك وقد أحال حياته الى جحيم متصل من العذاب لاتنقطع أسبابه بأن دهمه فى قلب أعز انسانة لديه؟!

بعد أن رفض تقاضى أجره من السيدة ساعدها فى إنزال زوجها من العربة.احترم فيها إخلاصها للرجل الذى ذكره بإخلاصه لزوجته.استراح لأنه كان يشك أحيانا فى انقراض تلك الصفة من بنى البشر.كان واثقا من رضى الرب عنه فتوجه الى منزله بقلب مطمئن.صلى العشاء بخشوع شديد ونام ثم صحا على سعال زوجته الذى كان يصدر من أحشائها ويمزق قلبه.غير ملابسه الغارقة فى الدم بملابس الخروج وأسرع لاستدعاء الطبيب.بكى فى الطريق.سهر مع الأولاد بجوارها حتى الصباح.

****

أما بالأمس فقد أوقفته فتاة عادية الجمال وإن كانت رائعة الجسد.كان مارا بعربته أمام احدى الكليات.انفرجت أساريره للبراءة الطفولية البادية على وجهها وعلى طريقة حملها لكتبها الجامعية وحقيبتها الصغيرة.نسى فى تلك اللحظة ماينوء به صدره من تبعات العلاج الطويل لزوجته ومتطلباته المادية الباهظة..

-الى أين ياعروسه؟

-على طول

-فاهم..أقصد الى أى مكان؟

-الى لوران، ثم تنتظرنى على ناصية الشارع المقابل للبنك لمدة نصف ساعة ، تعود بى بعدها الى محرم بك

-نصف ساعة؟!

-وقد تزيد.هل تمانع؟

-طبعا ياهانم..أنا لاأنتظر أحدا لهذه المدة

-عشرون جنيها

مـدت يـدها الـى جـوار أذنـه اليمنـى ممسـكة بالورقـة الماليـة بـين سـبابتها ووسـطاها.تقطبت اسـاريره وقـد تـذكر السـيل المنهمـر مـن "روشـتات"الأطباء.التفت اليهـا يحـدثها والعربـة سـائرة.ركز بصـره لاراديـا علـى مقطـع مكشـوف مـن صـدرها المكتنز.تخيل بمهارة حجم وشكل ماتبقى من النهدين المختفيين.

-لكننى لاأعلم أنه توجد بنوك فى لوران

-انه بنك يخصنى وحدى..فهمت؟

سـال لعابـه لفتنتها.ذهـل لجرأتهـا.تقزز مـن وقاحتها.نـدم علـى حسـن ظنـه بهـا وبالنـاس والـدنيا علـى وجـه العمـوم .النـاس كلهـا تسـتمتع بالشـرع وبدونـه وأنـت الوحيـد الـذى يحرم نفسه.

-فهمت ياهانم..لكنك مازلت طالبة

-وماذا يعنى هذا؟

-أقصد انك مازلت...

قاطعته بثقة فائقة:

-لاشأن لك بالتفاصيل.يمكننى أن أعقد معك اتفاقا مربحا

-تحت أمرك ياهانم

-جولتـان كـل يـوم، وأحيانـا جولـة واحـدة وراتـب شـهرى لايخطـر ببالك.هه.ماذا قلت؟

حـين أوصـلت السـيدة البائسـة وزوجهـا العليـل، كوفئـت بليلـة دمويـة قاسـية.مامعنى هذا؟..ترى ماذا سوف يحدث لك ان وافقت؟!

-دعينى أفكر من هنا الى لوران

ليست بالقطع طالبة،وإنما عاهرة تتستر وراء الجامعة.

إلـى متـى ستصـمد ياسـيد؟إن تركـت هـذه المهنـة فمـاذا تعمل؟..لابـد أن تمـر اليـوم علـى الشـيخ حسـن وإلا انقلبـت حياتـك رأسـا علـى عقب.ولمـاذا تمـر عليـه؟..أنت تعـرف مقـدما مـا سـيقوله لك.جملتـه المحفوظـة:الزنا يـورث الفقـر.أى فقـر ياشـيخ حسـن أى فقر؟.لقـد زهقـت روحى.ضـج جسدى.تهشـمت أعصـابى.أنت تقـول هـذا وتـنعم فـى أى وقـت بأحضـان زوجتـك..ويقول لابسـو الحلـل الأنيقـة مـن الكتـاب الرسـميين انهـا الخيانـة الزوجية.أيرضـيكم أيهـا السـادة الأفاضـل أن يكـون البـديل الوحيـد لمسـماكم هـذا هـو جنـونى المطبـق؟إن رضـيت بـالفقر فلـن أرضـى بالجنون..مـاذا أقـول لهـذه الأفعـى الناعمة؟..ياسبحان الله على البراءة التى تتقاطر من عينيها الداعرتين!

-أنا على استعداد لتخفيض المبلغ

-فى مقابل..

-فى مقابل..أقصد..

-أيهاالعجوز الماكر

قالتها بضحكة هزته من اعماقه فأجابها بسرعة:

-عمرى خمسة وأربعون عاما فقط

-موافقة..بشرط ان يتوقف هذا على اجتهادك!

وبـالأمس نفسـه أعـاد صـلاة العشـاء مـرات ثـلاث ليبعـد عـن خيالـه نعومـة جسـدها الفـاجر وبـراءة عينيهـا الـداعرتين. حـاول النـوم بهـدوء الـى جـوار زوجتـه.اختلس نظـرات متـرددة الـى جـزء تعـرى مـن جسـدها ثـم أولاهـا ظهـره بحسم.تنبهت.سـألته عـن قبلة كل يوم فتصنع النوم ولم يجبها..ولم ينم.

فـى الصـباح لمـح بحيـرة صـغيرة مـن الـدموع حـول عينيهـا وعلـى كسـاء الوسادة.

****

اليـوم حـل الموعـد وتصـارعت كـل الأشـياء فـى رأسه.أصـابته دوامـات الفكـر بصـداع شـديد.أوقف العربـة وجلـس الـى مقهـى قريـب مـن الكليـة.طلب فنجانـا مـن القهـوة وأشـعل سـيجارة مـن سـيجارة.لم يهـدأ إلا بعـد أن قـرر أن يتـرك نفسـه للأقـدار.لامعنى اليـوم لـلإرادة او التفكير.قـام الـى سـيارته.لم يجـرؤ أن يقـول كعادتـه:"توكلت علـى الله"حـين يبـدأ بوضـع قدمـه علـى دوّاسـة البنزين.اتجـه الـى الكليـة.فى نهايـة الطريـق لمـح الرجـل المهـم والمـرأة القاتلـة.هما حـلان لابـديل لهمـا:أن يتجاهلهمـا ويتجـه مباشـرة الـى الكليـة حسـب الموعـد، أو أن يقـف لهمـا ويصـرف النظر عما ظل يفكر فيه ليلة كاملة دون أن يغمض له جفن أو يصل الى قرار.

فـى بدايـة الطريـق كـان سـاهما مستسـلما كمـا لـو كـان مسـاقا الـى مصـير يعرفه.سمعهما يتحاوران:

-ويقولون انك رجل طيب..آه لو عرفوا حقيقتك

-وهل يتعارض هذا مع طيبتى؟

-اسأل نفسك

-أنا أرى أن هذا الأمر منفصل تماما عن الأخلاق

وفـى نهايـة الطريـق الـى بيتـه كـان يـردد فـى سـره بعصـبية حـادة: أعـوذ بالله.اسـتغفر الله..وظل يقول هذا حتى وهو يغلق بيده باب غرفة النـوم.

****

نشرت بمجلة آخر ساعة فى1979/4/11

باب النجـــــــــــار

****

لا أحد يمكنه أن يصدق مقدار حيرتى فى دهاليزعاطفة الحب بين الرجل والمرأة ، وقلة حيلتى فى اتخاذ موقف أو استنباط فكر تجاه مايمكن أن يسمى بالصداقة بينهما. اننى لم أعرف حتى الآن سر انجذاب النساء لى بوفرة فى الكم والكيف، فأنا انسان ضئيل الجسم ، لاوسامة فى وجهى ، وإنما تقاطيع غليظة، وعينان تقدحان بريقا غريبا. لست موفور الثراء كشأن تجار هذا العصر وسماسرته ورجال أعماله، لكنى تجاوزت مرحلة الستر بقليل، كما أننى لست صاحب جاه ولا منصب ولا شهرة حتى أكون مطمحا لتهافت النساء.

لهذا كله فإن الذهول يعترينى حين تتصارع امرأتان لأجل الفوز بى. لابد أن هناك شيئا فى جوهرى يحمل بداخله عناصر الجذب الغامضة التى مازالت تحيرنى. شىء لا أدرك كنهه ، رغم ما حبانى به الله من براعة فى الغوص فى اعماق نفوس البشر، ومن باب أولى فى اعماق نفسى التى اتعبتنى كثيرا على مدى اثنين وأربعين عاما.

فاتنى أن اشير الى تمسكى بالقيم الدينية التى تحدد بالقطع ما هو الحلال وما هو الحرام، وأنه مادامت الطيور على أشكالها تقع ، فإن حديثى يقتصر على نوعية من المرأة تتمسك بنفس القيم بقدر ما اوتيت من عقل ودين.. ورغم اننى رجا غلبان لايعرف الغرور طريقا الى شخصه، الا اننى كنت دائما شديد الثقة فى اعتقادى بأن حبا واحدا لايكفينى ولا يشبع نهمى الى تلك العاطفة المحيرة، لكن تجربتى التى سأرويها الآن أكدت لى ان فهمى ضئيل لهذه الأمور ، وأن شدة ثقتى فيما ذكرت لم تكن فى محلها.

****

"...واننى ياسيدى متيمة بحبك، فلست أجد لحياتى معنى فى غير وجودك. أصداء صوتك تملأ أذنى. عالمى مايدور بعقلك الكبير. دنياى مقعد تجلس عليه بجوارى وعيناى مترعتان برؤيتك تتحدث عن الناس والحياة والأشياء. أما أنت فساكن كالصمت راسخ كالجبل العتيد. انت لاتحبنى. قلها ولن اغضب منك. سوف ألتمس لك العذر، فما من قوة على الأرض بقادرة على أن تضع فى قلبك عنوة ذلك الوهج النورانى تجاه انسانة لا تكنّ نحوها أكثر من مشاعر الصداقة. قلها ولن أبكى على قدرى، فحتى صداقتك أمل طالما تمنيته ثم حسدت نفسى عليه.

أربع وعشرون ساعة كالدهر مضت على. رغم علمى بسفرك فلم أمل من تكرار ادارة قرص الهاتف بأرقام منزلك. أسمع الرنين ولا مجيب. أعرف أن أحدا لن يرد لأنك تعيش وحيدا. أتلذذ بسماع الرنين لمجرد احساسى بأنه يصلنى بمكان اقامتك الخالى منك. يسمعنى

وقع أقدامك. يبعث الى أنفى برائحتك. يداعب خيالى بصورتك ، ويؤنس وحدتى بروحك الغائبة الحاضرة.

بالأمس الأول هللت صائحة بفرحة طفلة حينما أعطت اشارة المرور لونا أحمر، مؤذنة ببقائى الى جوارك فى العربة زمنا أطول ، ولو كان دقيقة واحدة. ولو كان كسرا من الدقيقة ، فهى لحظة سعادة لاتنسى وقد لاتتكرر.لحظة تطيل العمر. تضيف سنوات الى سنواته. أنت ياحبيبى انسان رائع. رقيق. قوى. فنان. أننى احبك. أرجوك ان تحبنى"..

****

كنت أتابع تطور تعلقها بى فى حياد لا أدرى سببه، وإن كنت لا أنكر تعلقى أنا الآخر بها. ولما مضت أشهر ستة على علاقتنا أدركت أن مايجذبنى اليها هو صدقها الشديد فى الحديث عن أدق أسرار نفسها ، وعن موقفها من الحياة والكون والخالق والمخلوقات. نظراتها الودود الى حين أتكلم جعلتنى لا امل صحبتها ، بل وأتعجل لقياها كلما واتتنى الفرصة. خيل الى أن صداقتنا سوف تتطور الى حب من جانبى ، رغم اننى مؤمن تماما بحبى لامرأة أخرى كان اول تعلقى بها أن أعجبت بنبرات صوتها يوما وهى تلقى قصيدة شعر فى حفل أدبى ، حين قررت على الفور أن أتزوجها!..

لكننى لم أتصور أبدا كارثة أن تحبنى صديقتى بهذا العنف غير المبرر دون أن أبادلها شعورها، فذلك شىء فوق طاقتى واحتمالى. لقد شعرت بقلبى ينزف حينما صرحت لى بحبها، لكنى لم أستطع أن أفعل شيئا يحول دون وقوع المأساة.. يبدو أن الحب كالموت..

تمنيت أن أرجوها ألا تحبنى ، فشخيرى خلال النوم فظيع ، وطباعى شديدة التقلب ، واستقرار نفسى حلم لا أجرؤ أن أتمناه. أردت أن أقول لها اننى رجل طفل. أبكى أحيانا لأتفه الأسباب، وأرقص وحدى عاريا بمسكنى فى منتصف الليل على "الواحدة ونصف" ، وأحيانا على موسيقا من صنع خيالى الواهم. حاولت أن أقول لها اننى رجل لايطاق.. معاشرته مستحيلة. لايستطيع تحمل مسئولية أسرة وأولاد ومطالب حياتية يومية متكررة.."حبيبتى الشاعرة تحب فى هذه الصفات الكريهة بجنون ، ولهذا قبلت الزواج منى على الفور، ومن المؤكد أنها سوف تندم على ذلك فيما بعد"..

قلت لصديقتى إن هواجس خبيثة تسيطر على فى بعض الأحيان ، كأن أتمنى ابتكار سلاح غير مرئى لتدمير الكرة الأرضية وإفنائها عن آخرها بما تحمله من شرور وحروب وحقد وكراهية.. رغم ذلك لم تنصرف عنى . لم يبق أمامى إلا وسيلة واحدة لتنزعنى من قلبها ، وهى أن أحدثها كثيرا عن الأخرى. من المؤكد حينئذ أن تنسحب فى هدوء.

****

"... فلما اقترب موعد حبيبتى انفلت القلب منى ولم يعد ملكى.بالله ما معنى هذه النبضات القدسية التى لا أشعر بها حين ألقاك على الاطلاق؟..أنا لايمكننى أن اخدعك فأنت أصدق صديقاتى وأصدقائى على السواء ولك عندى منزلة خاصة. معك أشعر براحة واسترخاء. أنت قيمة كبرى فى حياتى. معك ألوذ ببراءتى أمام صدقك العظيم. أحتمى بطفولتى أمام نقائك البللورى وشفافيتك الملائكية. كنت أتمنى أن أبادلك النبض بالنبض والوهج بالوهج ، بل كنت أتمنى أن تمتزج النبضات ويتعانق الوهجان،لكن مشيئة القلب من مشيئة الرب فلا حيلة لأحدنا فى ذلك. لقد اعتقدت فيما مضى أنه مادام فى القلب متسع لحب الكون بأكمله ، فلم لايتسع لحبين أو ثلاثة؟.. لكنى عرفت أنه ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، ويبدو ياعزيزتى أن قلوب المحبين صغيرة كقلوب العصافير ، هشة كالزجاج الرقيق ، لاتحتمل ضغطة هينة فوق طاقتها والا استحالت الى حطام ، وعندى أن كبر القلوب من صغرها ، وصغرها من كبرها ، وكلما كبرت صغرت ، وكلما صغرت رقت واتسعت وشفت ثم ذابت.

تقول لى حبيبتى كلمات لاتختلف كثيرا عن كلماتك لى . لكنى أسمعها وأفهمها وأستشعرها بشكل آخر.. إنى على استعداد لأن أخسر كل شىء ولا أخسرها."

****

حاورت نفسى بشأن هذه الرسالة الجارحة:

- يؤسفنى أن أقول انك انسان غبى

- لماذا؟..هل ارتكبت حماقة بصراحتى الزائدة؟

- طبعا ، فليس هكذا تخاطب الأنثى ويجرح كبرياؤها ، ومن المذهل أنك لاتدرى ماذا فعلت

- أيا كان الأمر ، فهذا أفضل عندى من أن أخدعها

****

"... وعهدى بك الصدق معى، فأرجو ألا تكون كمعظم الرجال. لا ترتدى درعا من الزيف المصطنع تواجه به الحياة ، رغم أنه يثقل على كاهلك ويتناقض مع طبعك.خذ من حبى واعط حبيبتك ولا تكذب عليها أبدا. قل لها انك لاتحبنى ، فهذه مأساة لاتخجلنى ، ولكن قل لها أيضا أننى احبك ، فهذا أمر لاينبغى ان يخيفك أو يخيفها ، فالمحبون فى كل بقاع الأرض تربطهم عاطفة أقوى من عاطفة الرحم ولو اختلفت لغاتهم وجلودهم وأديانهم.

بحق تلامس أيدينا الحيّ الرقيق الذى لم نتجاوزه الى ماعداه لاتكذب عليها. قل لها ان علاقتنا ماتعدت القلب من جانبى والعقل من جانبك، واسألها الصفح والمغفرة لى فأنا لا أود رؤيتها ماحييت. اذهب اليها اذن وتحرر حتى من صداقتى. لن أستطيع خداع نفسى أكثر من ذلك. لقد كنت أرجوك أن تحبنى ولكنك غير قادر الا على الحديث معى عنها. من تكون محبوبتك ان لم تكن أنا يارجل؟.. أنا التى لم تحب رجلا بهذا الجنون سواك. أنت تعلم كم تهافت على من رجال أقوياء بكل المقاييس ، لكن قوتهم تضاءلت عندى أمام سحرك الغامض الذى استبد بروحى. سوف تندم يوما على غفلتك. لاتغضب منى ياحبيبى فإنى لم أنم منذ تلقيت رسالتك الأخيرة. دعها ياحبيبى وأحبنى. أرجوك أن تحبنى"..

****

ليلة الزفاف قالت لى زوجتى بحسم شديد لايقبل الحوار ، وبعزم دونه الموت:

- لا صداقة بين رجل وامرأة

فآثرت السلامة والتزمت الصمت تاركا قضيتى للزمن يتكفل بها.

****

نشرت بمجلة المجلة فى يناير 1986

قانـــــــــــون الأربعـــــين

****

تساءل هل بمقدوره أن يكتشف لحياته قانونا محددا ؟..قانون يلين من صلابة الشوك الذى يستنزف نفسه ويسيل جراحها وقتما يشاء. قانون يحجم تمرده ويسكب الطمأنينة بردا وسلاما على قلبه. يوائم بينه وبين قانون الحياة الغامض. دائما ما يتساءل. فى كل وقت. عند عبور شارع. عند مولد طفل. عند تحقيق نجاح أو انتصار. عندما تكتسحه مشاعر الهزيمة المرة. فى لحظات الشبع والإشباع. فى أيام الحرمان. عند وفاة حبيب. بين أحضان الطبيعة والحبيبة...لكن الاجابة أبدا لا تجىء.

حين اقترب من الأربعين دقت نواقيس الخطر مزمجرة محذرة. خطير ألا تضع حدا لقلقك المزمن ، فالأربعين هى الذروة ولا يعقبها الا النزول. آن أوان الكف عن الركض ولكنك ما زلت تركض. بعد الأربعين تكفى الهرولة. بعد الخمسين يكفى المشى. أما بعد الستين فتكفيك نعمة الجلوس بلا مرض.. هذا ان قدرت لك الحياة حتى الستين.

داعبت وجهه نسمة هواء باردة على كوبرى قصر النيل.لم يجد الصديق بانتظاره كما وعد وأقسم. وماذا لو وجده؟.. ساعة أو ساعتان كلاما فى كلام. مر الشكوى من سوء الطالع. عظيم الألم من سرعة مرور الزمن ودونه آمال لم تتحقق وطموحات لم تر النور.

امتلأت السماء بالقذائف الصاروخية الملونة. كانت مناسبة بهيجة لاتهمه فى شىء. المئات يمشون على الكورنيش يتفرجون على الألوان فى طمأنينة قاتلة. يأكلون الترمس ويقزقزون اللب. خيل اليه أن بنى قومه قد أصيبوا جميعا بالبلاهة دون استثناء. ثرثراتهم تخترق أذنيه. يستوقفها بشغف وهو يتمشى على الكورنيش.

- وقفت يا أختى من السابعة صباحا فى طابور الكستور ، وفى الساعة الواحدة قالوا لى خلاص انتهى. تعالى بعد الظهر. عدت فى الخامسة وانتظرت حتى السابعة. أغمى على وشالونى الى الرصيف.

...<u>الموقف بعد أربعين عاما</u>: موظف شريف نظيف. مفلس تماما ، ولايعنى هذا أننى نادم على كونى شريفا مفلسا. أحمد الله أننى لست مدينا لأحد..لكنى غير سعيد لأننى لا أجد معنى لأى شىء، ولا أستطيع ان أتخذ قرارا حاسما فى أى شىء.

- قلت لها تعالى معى نزور شقيقتنا بمستشفى العجوزة فتهربت وذهبت وحدى. سرقوا نقودى فى الأوتوبيس.

– يأخى اعمل جمعية..كلنا تزوجنا بهذه الطريقة.

... "تابع" الموقف بعد أربعين عاما: لم أحقق مجدا ولا ثروة ولا شهرة. أعمل ليلا ونهارا. يلتهم الأبناء الأحباء كل شىء.. أزيز الطاحونة شديد الإزعاج.

- احتل اليهود بيروت بأكملها

- لا..نصفها فقط

- والله كلها يا أخى

- لا..نصفها

مازالوا يأكلون الترمس ويقزقزون اللب ، بينما أفكر فى حيلة جهنمية تنقذنى من ليلة سعيدة تدبرها لى زوجتى اليوم. أنا أغبى أغبياء هذا البلد العجيب ، فقد اكتشف الجميع قانونهم وأفلتوا من العذاب الذى يستعر بنفسى ، وما زالوا يثرثرون:

- هبش فى العملية عشرين باكو

- الله يسهل له ياعم

- جتنا نيله فى حظنا الهباب

- ماهى بقت كده خلاص

- ولّع..

لو فتحت على نفسى باب المقارنة ستنتهى الليلة بكارثة.. أنا لم أفعل شيئا ذا قيمة فى هذه الحياة ، سواء لى أم لغيرى.. سنواتى تمر منى دون معنى ولا تتسم الا بالسخافة.

نظر فى رهبة غريبة الى اهتزازات الموج على صفحة النيل المظلمة وخيل اليه أنه يغرق. سرت بجسده قشعريرة أعادته الى شغفه غير المبرر بمتابعة الثرثرات باهتمام شديد ينفى عنه احساسه الراسخ بعدمية كل شىء.

- أخشى أن أقتلها يوما

- من الأفضل أن تطلقها وتخلص

- لا أقدر

- لماذا؟

- لأنى احبها

- أنت جبان

أيها القوم..لقد أصبحتم خمسة وأربعين مليونا..ألا تفهمون؟..

- حاسب!!

شاحنة ضخمة كادت تصعد على الرصيف. السائق مسطول ولا شك . ضحكاته تغطى على الثرثرات مكتسحة الصخب الذى تعج به مخيلته ، فالحشيش أصبح ضرورة مصرية. خلف الشاحنة مكتوب:" ياناس يا عسل محمود وصل"..استوقفها الشرطى. يحيا العدل. للحياة قانون لابد أن أكتشفه يوما ما لأعيش مثل بقية الخلق. فى لمح البصر امتدت يدان: يد السائق ويد الشرطى ، ثم دار موتور الشاحنة وعلت قهقهات السائق المخدور.

- بكم اشتريته؟

- بمائة وخمسين وله توصيلة للتسجيل من التلفزيون

- يا شيخ؟!

عدت يا يوم مولدى. قانونك القلق. اذن فأنت صاحب قانون ، رغم أنه لايحقق لك سعادة أو طمأنينة.. الهيلتون. الشيراتون.الميريديان.عزبة القرود والأكشاك الصفيحية والخيام المهترئة. أطفال حفاة فى أسمال بالية. مسكين يامن تسأل عن إطعام هذا الشعب. ومالك أنت يا أخى؟.. عندما تحل مشكلتك فكر فى الشعب..كن فى حالك والأفضل أن تترك النيل الآن وتعود الى بيتك وجدرانك الأربعة.. بلا قانون بلا زفت.

- الاتحاد هزم الزمالك

- عيال جدعان

- شفت الفلوس اللى نزلت عليهم من التجار قد ايه

- يا عالم بطلوا نقّ..
تقبع كالتمثال أمام مكتبك. تدرس . تكتب. توقع. تحقق. تدقق. تحسم. تأخذ قرارات يراها الآخرون فى منتهى الأهمية بينما هى فى حقيقة الأمر تافهة، لأنها لا تستطيع أن تغير الحياة .. طظ !!
- شفتى الفيلم يا بت ؟
- جميل .. ربنا يوعدنا يارب
- والنبى فرجه قريب
- عمره ما حيفرج علينا الا لما نعرف نساعد نفسنا
مئات الكتب قرأت. سافرت كثيرا بين السماء والأرض. تعاملت مع اليهودى والسعودى والأمريكى. ضيعت فرصا عديدة لتغيير حياتك لأسباب غير منطقية. لابد أن هناك خللا ما فى تكوينك النفسى أو العقلى ، لأنه من الممكن أن تريح عقلك مما ترهقه به من خزعبلات لامعنى لها ، ولكنك لا تريد. هنا صوت أميريكا.
أسكت الراديو والتلفزيون وأصدر أمرا عصبيا الى الأطفال بالنوم. قالت الزوجة بسرور اعتراه قلق:
- أعددت لك "كيكة" فاخرة للاحتفال غدا بعيد ميلادك الأربعين.. كل سنه وانت طيب
- شكرا.. وانت طيبة
ناولته البيجاما.لاحظت أنه يرتعش. ازداد قلقها
- ما بك؟
- متعب قليلا
- انك غاضب من شىء ما..لقد أفزعت الأولاد بلا مبرر
تعلمين يا زوجتى العزيزة أننى لم أحب سواك ، لكنك لاتعلمين كم أتعذب لأجلك. لابتلائك بى.. أنا يا سيدتى لا أستطيع الانتماء اليك ولا الى أسرتى ولا الى طبقتى ولا الى مدينتى ولا الى وطنى ، ولا ذنب لى فى ذلك.
- آسف
- دعنى أصارحك بما يجول بخاطرى منذ زمن بعيد
- هه؟..
- لماذا لاتذهب الى طبيب نفسانى؟
ببساطة مذهلة تضع الخاتمة لقصتى. منتهى المنطق.
- لماذا ؟
- لتحكى له عن تلك الأوهام التى تسيطر عليك من حين لآخر فتفسد مزاجك وتتعب ذهنك مسكينة.. لن تصدق أننى فكرت يوما فى أن أنصحها نفس النصيحة...أنت أيضا مثلهم جميعا تحبين الترمس واللب ورائحتهما المميزة . قبولك لهذه الحياة بتلك البساطة المذهلة يجعلنى أشك فى قواك العقلية. كيف تستطيعين أن تحتفظى على الدوام بهذه الابتسامة الوديعة المطمئنة، بينما يفترض أن يعم البكاء الوطن كله على ماصرنا اليه..
- هل غضبت منى؟
- أبدا ، لكنى واثق من لاجدوى المحاولة
- انى أخاف عليك . حياتنا لن تساوى شيئا حين تفقد طمأنينة نفسك
مسح دموعها. ربت على كتفها. ازدادت رعشته. قبلته بحنان. ربتت على صدره.
- قل لى بوضوح.. ما الذى يزعجك؟
- لن تفهمى.. لأننى أيضا لا أفهم
- فلنستعرض معا حياتك بأكملها ، علنا نعثر على خلل ما
- وأنا مصغ اليك

- وراؤك ياحبيبي تاريخ مشرف. طفولة فقيرة. كفاح عظيم. نجاح فى العمل. أسرة جميلة. بنات وبنون. عيشة مستورة بحمد الله. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

قال بابتسامة منكسرة:

- لاشىء..لا شىء

****

نشرت بمجلة المجلة فى مارس 1983

انه فى العام التاسع والأربعين

****

قد فر منى زمن طويل قصير فلم ألحق به. طالت مطاردتى له دون جدوى.مثلما امتنع عنى فإنه جاء يسعى الىّ بقانونه الأزلى. يقف فى صمت وما هو بواقف. أرقبه فى ذهول العائد الى رحم أمه رغما عنه ، فأدخل وأخرج ، ويروح و يجىء من حولى ، والخلق يهرولون فى أيامهم والشمس والقمر. أطير بوجدى اليها فما عاد فى الوقت متسع لانتظار أو تأمل.

هيا ادخلى فى عباءتى ، فعندى كنز لم يمسسه إنس ولا جان من قبلك. لم أكن أدرى أننى استبقيته لأجلك كل هذا العمر. قد بددت من نفسى الكثير ، فآه من عمر الغفلة الذى لاعاصم منه الا الله..وأما ما تبقى فهو لك ، وخذى الحكمة ومعها شعرى الفضى وألقى بهما حيث شئت: فى النهر فى صدرك فى البحر فى قلبك فى الجبل فى عينيك..

- دكتور بهاء كامل؟

-نعم

-البقية فى حياتك

منذ خمسة وعشرين عاما جمعتنى به غرفة وعود وكمان ولحن وحلم وفرحة ودخان سجائر وكأسان مترعتان بالسعادة. منذ خمس وعشرين ساعة جمعتنى به غرفة وفراش وطبيب وصمت وعقاقير وعجز ودموع. كانت الغرفة الأولى خضراء ، أما الثانية فكانت بيضاء.

فى كل دقيقة كنت أرجو الله أن يعطينا الخير ويدفع عنا الشر وينجينا من المهالك..بعد دقائق قليلة سوف أترك اعمالى ورغباتى وأمنياتى وتطلعاتى وأصدقائى وأعدائى ونزواتى وشهواتى وخيرى وشرى، كى أذهب الى هناك. فى الزمان هو الملجأ الباقى والملاذ الأخير ، وفى المكان هو الحلم الغامض والنشوة المستحيلة..وليكن ما يكون!..

-الدكتور بهاء ؟

-نعم

-ألم تعلم؟

منذ ثلاثين عاما جمعتنا ليلة وكتب وموسيقا وطعام ومجون وشراب وفتوة وشباب. قالت ان الحب باهظ التكلفة وقلت ان العمر قصير ، وضحكت من حكمتها وبكينا من شدة الجنون. كنت أستطيع أن أريد دون أن أعرف ماذا أريد.. وكنت أنا .. أنا.. أشعر بجسدى وأرى البهجة فى عينيها وأثق فى الأشياء وأصدق وأندهش ، وتلقى بملابسها فى وجهى وتتشبث

بالنشوة حتى النخاع ،فتتفجر ينابيع الحياة ونجرى فى الشوارع تحت المطر كالمجانين..لنا الأرض والسماء والأيام القادمة والسنوات والنخل ذات الأكمام والروابى والشلالات.

منذ ثوان قررت ألا أعبأ بذكريات الهاتف اللعين ، لكن جسده الرمادى باق امامى يجسد لى فناء الأحباب ، وكأنما لم يسمعنى يوما خبرا بميلاد طفل أو حفل زواج، أو عن فرحة نجاح أو قفزة فى العمل أو طفرة فى الرزق.

فى هذه الثانية أعتصر ذهنى باحثا عن مخرج، هل أبتعد من أمام الهاتف الى غرفة أخرى ، أم أغادر المنزل الى حيث لا اعرف؟..فالذى أعرفه أنه سيدق بعد قليل معلنا سفر عزيز جديد ، وهذا ما قررت ألا اسمح به ولا أسمعه، وإن سمحت وسمعت فلا أصدقه.

هيا ادخلى فى عباءتى فعندى دفء مقدس يترفع فى جلال عن الخطيئة. دفء طالما احتفظت به لأجلك من قبل ان أعرف أنك ستجيئين يوما الى زمانى وقد نفضت عنه غبار الطيش والغفلة.. وإياك ان تدق أيها الصنم الصغير الا مؤذنا بصوتها الحبيب ، فجنون الجنون عقل مثلما نفى النفى اثبات.. ولتتوهج أيها القلب بنار حبك الأخير.

-دكتور بهاء كامل؟

-نعم ، ولكنى غير موجود

يا كتلة صماء من معدن أرضى – مثلى – كيف أموت وتبقى؟. كيف يستحيل جسدى الى تراب ، وتظل قابعا فى موقعك تدق لغيرى وتعيش سنوات وسنوات رغم أنك تخلو من الروح؟..يوم جئت بك كنت فرحا و قلت انك سوف تغنينى عن ضياع الوقت والجهد ، حتى أنفقهما فى المفيد . لم أكن أعرف أن الوقت والجهد والفائدة أشياء لامعنى لها. آه. لم اكن اعرف، فقد بذلتهم جميعا بحماس أحيانا وفتور أحيانا ، فما جنيت شيئا أكثر مما كان مقدرا لى أن أجنى ، وما فقدت غير ما كان مقدرا لى أن أفقد ، وظللت تدق وتدق ، وأجرى وألهث ، وتصمت وأستريح، وتدق وأعاود الهرولة واللهاث والضحك والبكاء والصمت والذهول.. ورغم ذلك لم أتعلم شيئا ينقذنى من تلك الثوانى المرهقة التى تكاد الآن أن تزهق روحى بثقلها المميت.

هيا ادخلى فى عباءتى ، فقد كنت ضنينا بظلها على غيرك من قبل أن أعرف من أنت أو ما الذى جاء بك الى أرضى وقد انهكتها خصوبتها فبات اخضرارها داكنا حتى السواد. بالله كيف عرفت أن أحدا قبلك لم يقترب من الكنز والدفء والظل مهما أتيح له من قبل أن يجوس فى أرضى ويصول ويجول؟.. وما دمت عارفة بسرى فلماذا لايدق هذا الصنم حاملا صوتك الحنون؟

-بهـــــــــــــاء؟

-هل تجيئين؟

-صعب

-إذن أجىء أنا

-صعب أيضا

تسع وأربعون سنة. رفاق سلاح تناثرت أشلاؤهم فى الهواء ، ورفاق دراسة هاجروا الى بلاد الله البعيدة ، ورفاق زمان يعيشون على مقربة منى وأراهم لكنهم لايبصروننى وأبصرهم لكنهم لايروننى ، فالعين تبصر لكن القلب يرى أو لايرى.. سيداتى آنساتى سادتى: مع الفرحة والمرح ولاتفكروا فيما تسمعون.. عليكم بالرقص فقط ، فمن لم يعرف الرقص لم يعرف معنى الحياة ، ولا يفنى فى الله من لايعرف قوة الرقص.." ياللى وسطك وسط كمنجه.. وعودك مرسوم عالسنجه.. أنا كنت بحب المشمش..دلوقت بحب المنجه.. المنجه.. المنجه..المنجه.. المنجه".. فما جدوى أعوام عشر ضاعت فى بحث علمى حول حركة الكترونات وهمية فى مدارات أكثر وهما ، وقراءات مراجع وسهر ليال وإعداد جداول ورسومات بيانية وجمع وطرح وضرب وقسمة ، للحصول على لقب يصحبه انتفاخ فى

الوجه وجلطة فى القدم وربطة عنق ضيقة تبرز الشرايين ، وطالب يستمع الى محاضرة مملة لمجرد أن يجلس بجوار فتاته حتى يتفقا على موعد للقاء؟..

" ويقول لى وأقول له ويقول لك وتقول لى.. وتقول له ويقول لك وتقول لى ويقول لى.. ويقول لك وتقول لى وأقول له ويقول لى"..فما معنى أن تولد فى دولة فقيرة و أمة لا يقدس قومها الا نصفهم الأسفل ، ولا يعتزون الا بحناجرهم التى تقول له ويقول لها حتى الصباح فى ضجيج الدولارات والدينارت وتمايل الراقصات وطرقعة التصريحات وإيقاع الزار ونهب الأموال وقطع الأرزاق وجنة المشتاق فى أصول النفاق ؟..

هيا ادخلى فى عباءتى وشاركينى جنتى ، ولئن كان المستحيل صعبا فليكن الصعب ممكنا ، ولئن ترددت فى الدخول فاعلمى ان تسعة وأربعين عاما هى المحال، واننى سأحملك بذراعى لأخفيك تحت عباءتى من العيون ، وأحرسك بألف جندى وجندى من لحمى وجلدى ودمى وأعصابى وعقلى وجنونى.

-كل سنة وانت طيب يا بهاء

..."وهكذا فلن تزول الأزمة مادام الصراع التفكيكى بين القديم والحديث محتدما ، وما دمنا عاجزين عن تحويله الى كيان تركيبى تكاملى سوف يسفر ولا شك عن حل هو المعجزة ، مثلما يسفر الاخصاب الذكرى عن خروج الوليد من رحم أمه، وأنا شخصيا – يا إخوانى – فى أزمة أعجز عن حلها ، فكيف تجيئون للاستماع الى محاضرتى بهذه الثقة ، رغم انى أحتفظ فى جيبى الأيسر بقائمة من أسماء الأصدقاء الذين عانوا من أزمات مماثلة وعاشوا ، والذين عانوا وماتوا، والذين لايعانون ولا يموتون، والذين يموتون ولا يعيشون ويعانون أو لا يعانون، سواء من أزمة الفكر العربى أو الفقر العربى أو الجهل العربى أو صابون الاستحمام.. ولكن ما جدوى قائمة ثابتة فى زمن متغير بسرعة أقوى من العبث؟..

سوف يتهمنى الأولون بالابداع والضلال والمصير الى النار ، وسوف يتهمنى المحدثون بالالتجاء الى الغيب والارتماء فى أحضان الغيبيات والموت والبعث والقدر ، وأما الخبثاء فسوف يتهموننى بالصفرية.. ألم أقل أننى أزمة؟!.. انصرفوا اذن بأمر الله ، فلا جدوى من بقائكم معى لأن الزمن لايتجمد".

- وانت طيبة يحفظك الله من كل سوء

- هل أنت سعيد؟

تحت عباءتى الآن يقبع سر السعادة. نعم تأخرت فى العثور عليه. نعم دفعت لقاءه ما يقرب من ثمانية عشر ألف يوم من الصمت والسكون والبصر والاستبصار والدخول والخروج والحزن والفرح.. وكان النور أمامى فلم ألمحه.. وكان الحلم فى سراديب صدرى ولم أنتبه له. وكان النهار طويلا والليل أطول فما شعرت إلا بلحظة.. فتعالى الىّ ياصاحبتى الى السر.. الكنز فى انتظارك فهيا.. هيا ادخلى فى عباءتى واسكنى جنتى.

****

نشرت بمجلة الهلال فى ابريل 1992

تأملات عصـــــرية

****

صباح كل يوم يرن جرس المنبه ليفتح عينيه على فزع الوجود اليومى. يسبح بحمد الله ويشهد بوحدانيته ويستعيذ به من شر الناس والجن، واثقا أنه سينعم بالأمان فى يومه.. يمارس طقوسه المعتادة قبل النزول الى الساحة. يعلم أن النزول اليها ليس بالأمر الهين، فهى ملعب وغابة ومسرح ومجزر آلى وملهى ليلى ونهارى فى آن واحد.. الا أن تكرار العملية جعله يعتادها..والاعتياد ينسيه دهشته ، إذ يحوله كل يوم الى دبابة تستشعر عن بعد ، وتضرب قنابلها فى بعد ، وتقتحم مايعترضها من عائق فى جبروت مخيف.

اليوم موعد الاجتماع التاريخى الثانى ضمن سلسلة الاجتماعات التاريخية المتوالية لمناصرة مسلمى البوسنه والهرسك.تم تجهيز قاعة الاجتماعات بالنقابة العامة بمنصة حافلة بالميكروفونات وأجهزة التسجيل والتصوير. كانت خطب الاجتماع الأول نارية أثارت حماس المجتمعين ودموعهم حيث غادروا القاعة الى بيوتهم ليأكلوا ويتفرجوا على التلفزيون ويضاجعوا زوجاتهم ويناموا.

فى الدقيقة الأولى من تحرك الدبابة بدأ تساقط الضحايا تحت جنازيرك المجنزرة. تواصل تقدمك فى ثقة. لاتمتنع عن الاقتحام والضرب – حتى لو كانت الدبابة من ورق – إلا أمام بنك أو امرأة. فى مثل هاتين الحالتين يسارع جنودك بالنزول وهم مدججين بأسلحتهم. يجمعون لك لفافات المال وما تيسر من النساء ويعودون الى الدبابة. هكذا هى تعليماتك ، صريحة لا التواء فيها ، فالمال أكثر خدم الدنيا طاعة وامتثالا، والنساء أحلى متع الدنيا وأكثرها بهجة وإثارة.

اعترف أنك لم تفعل كل ما فعلته الا حبا فيما سلف ذكره. تجمع وتكنز وتختزن الحصيلة فى بنك أو خزانات سرية أو تحت أسوار سحرية لايبلغها انس ولا جان. تصدر أوامرك فتجاب على الفور. تمنع وتمنح كيفما تشاء ، والجميع يهرولون من حولك فى احترام هو الخوف وليس غيره.

تضع رأسك على صدورهن. بين النهود تتنفس. تتجاوز خدعة الحياة بوجد وأسى، ولكن بقناعة من لايختصم مع القدر.تسبح طمأنينتك بين الأحضان الناعمة. تغفو فى رحيقها وتلتحف بنسمات عطر الأنثى الفطرى. ترى زهزرا وعصافير وتسمع أناشيد الخلد وتمسك

بالكون فى قبضة يدك.. فلماذا لاتقترح على مجلس النقابة عقد مؤتمر آخر لشجب العدوان الأمريكى على العراق ، وآخر لاستنكار آخر عدوان اسرائيلى على لبنان وفلسطين؟..

سوف يصفقون لك بحماس شديد، بينما تدهس دبابتك النساء والأطفال والشيوخ فى أرجاء الدنيا.الله أكبر والنصر للعرب والاسلام. الله اكبر والنصر لأمريكا والمسيحية. قادر أنت فى هذا الجحيم على تحويل الدم والدموع وآهات الفتك والاغتصاب والفراق الأبدى الى أرقام تضعها فى ذاكرتك أو فراشك أو فى جريدة أو بنك، أو بين فخذى امرأة أو تحت غطاء بالوعة.. وأتساءل هل تتلخص المسألة برمتها فى مجموعة من الأمانى والرغبات الأنانية التى إما أن تتحقق وإما ان تموت، فإن تحققت فماذا بعد ، وان لم تتحقق فماذا بعد أيضا؟..

أعترف أننى مافعلت شيئا الا لأجل بضع نزوات طارئة أتى بها القلب أحيانا والعقل أحيانا أخرى. لقد أعددت خطبة نارية ستلهب أكف المصفقين العرب الأفذاذ أحفاد يعرب. نزوات كان الحاحها فوق طاقتى الهشة على الاحتمال ، رغم كونى دبابة مستوردة تعجز بلادى عن صنعها. تشعل النيران فى مخازن القمح ليطول اللهب نوافذ البيوت المغلقة على همسات الليل الدافئة. قد لا افعل هذا ولكنى أشارك فى حدوثه، فجنازيرى الحقيقية – لا اللعبة – تعطلت وتهشمت بفعل السكون والصدأ.. لايعيد أحدكم لى التفاحة قبل أن يقبض بيديه على أحشاء عبثه، والويل لكم من الدم والدموع وآهات الفراق الأبدى.

من جوف ليله انبعث تساؤل يتمطى متثائبا لاتعرف ان كان يصرخ أو يضحك أو يبكى. انتشل سوطه المصنوع من جريد النخل العراقى المحترق والنفط الكويتى المشتعل، وطرقع به فى الهواء الملوث لاستبيان الحقيقة، فاللهو بالأنفس – الدبابات – أمر لايمكن السكوت عليه..والا ايه يا اخواننا؟!..

- لمـــاذا؟
- لست أدرى
- والى متى؟
- لست أعرف

وهل بعد العارعتب وقد صار التغنى به عادة فأصبحت العادة عرفا فأصبح العرف قانونا؟.. اعترف بأنك لم تعد تعرف الحياء أو الخجل. جدارتك بالحياة صفر مكعب لا يعلى عليه. أنت جدير فقط بأن تحسد الحشرات والحيوانات. ليس المهم أن يعترف المجرمون بجرائمهم، وإنما المهم أن تعترف أنت بصمتك. قاتل أنت ولو لم تمسك بيدك سكينا أو بندقية أو صاروخا، ولو لم تعتل – مخيرا أو مرغما – دبابـــة.

اعترف بأنك أدمنت السكون والتبلد فغرقت فى شهواتك وفاتك الزمن والعصر كله. جبان. قليل الحيلة. عاجز عن ممارسة رجولتك فى نور الشمس أو حتى فى الظلام المطبق. ترى الظلم بعينين لاتبصران، اما الكذب فقد ألفته حتى أصبح عندك صدقا. اعترف بأنك لاشىء يذكر من قمة هذا الكوكب حتى قاعه ولو بلغت مساحتك ملايين الأمتار المربعة.

أما اعترافاتك فشىء، وشراء أصوات النقابة بفلوسك شىء آخر، إذ لامفر من أن تكتسح ذلك الوغد الذى يدعى الفضيلة ، وتسحبه بعيدا عن مقعد الرئاسة والسيادة والزعامة.

فى مستهل خطابك عن غدر امريكا وأوروبا والأمم المتحدة ، سوف تنوه بمقترحاتك لإنعاش النقابة وإعلاء صوتها بين ضجيج الأصوات التى تفرقع فى الفضاء العربى، وسوف تعلن عن تبرعك بمبلغ يسيل له لعاب الحاضرين، خاصة من لايتحدثون الا عن الحلال والحرام، وستفوز وتكتسح.. كن واثقا من ذلك.

أصعد وأهبط وأقوم وأنام وأنجح وأنكح وأجلس وأقف وأفعل وأمتنع وآمر وأحكم وأتحكم وأضعف وأخضع وأضرب وأقتل..وأعترف أننى مافعلت هذا كله الا فى ظل قانون كان من قبل عرفا كان من قبل اعتيادا. الدليل على ذلك اننى أصعد الآن سلم النقابة لألقى كلمتى التاريخية.

بدأ المؤتمر.. فى الغابة نمور وخراتيت وثعالب وجرذان وأرانب. كل يعتلى دبابته ويطلق نيرانه. فى الملعب عيون تشع شرا وشررا وقلوب تقتات على الكبر والعجب..وعلى خشبة المسرح يتم الذبح والجزر وبتر الأطراف واغتصاب الفتيات وفقأ الأعين وبقر بطون الحوامل ، فأنا لونى وأنت لونك، وأنا دينى وأنت دينك ، وأنا قوميتى وانت قوميتك، والكل يلهو بالليل والنهار على عتبة قرن قد لايجىء..وهذا هو صوتى اللعين يحتبلس منى فجأة، فلا أستطيع الكلام.. وأضطر الى مغادرة المنصـــة.

****

نشرت بمجلة القصة فى ديسمبر1993

هوى الخمسين

****

- نـــــــداء:

إنى وحيد .. لكن يبدو لى أن كل من له أذنان للسمع ليس بقادر على أن يسمع. لم يعد بمقدورى أن أنكر هذه الحقيقة أو أستنكرها أو حتى ألتف من حولها، رغم أنها لم تكشف لى عن نفسها طيلة ما يقرب من خمسين عاماً .. فكيف تعمى البصيرة كيف يعمى القلب؟ .. وكيف يغمض عقلى عينيه عن نظرة ماريا العارفة، وعما فى تأملها الحنون من خوف ورجاء؟!

فى براءتها الشاردة تعيش الحياة مع الموت فى وئام عجيب.. متواكبان متعاقبان كليل ونهار.. متصلان منفصلان كماض ومستقبل.. ويا أياما أمضيتها وليال سهرتها وكتب قرأتها وتجارب خضتها ، أجيبى بحق خالقك لم يؤول كل شئ إلى زوال؟!.. أحقا سيفارق أحدنا الحياة يوماً إلى الآخرة تاركاً رفيقه لوحدته ولوعته، أم أن رحمة السماء ستشملنا بأن نموت معا فى لحظة واحدة؟!

تقول عيناها بأن الفراق واقع لا محالة حتى من قبل الموت، فكلانا وحيد فى هذا الزمان وفى كل الأزمنة. لا خلود لصلة دم ولا بقاء لصحبة عمر أو زوج أو ولد، ولا سلام مع الآخرين مادامت راية التنافس ترفرف على الأرض، وإنما الخلود والبقاء والسلام لا يلتقون إلا على طريق واحد. عنده وحده وليس أبداً عند غيره يتبدد الشعور بالوحدة، حيث تحف الملائكة بالروح فى نزهتها العلوية المباركة.

ما أحن عينيك يا ماريا حين تفضيان بالسر فى نظرة صامتة .. الفراق واقع حقا، وإلا فأين أنت الآن من وصلى وبيننا بحار ومحيطات. هذا فراق صغير بينى وبينك، فما أبعده عن الموت وما أقربه منه فى آن. إنى لم أعرف اليتم حين فارقنى أبى قدر ما عرفته فى فراقك ، فصرت يتيم الزمن والمعنى والحياة .. آه يا ماريا... لو كنت جبلاً من الصخر لفتتنى الحنين إليك، فمتى تعودين ياحبيبتى ليعود البريق إلى عينى ويتوهج النور فى قلبى من جديد؟!

- **ما قالته الصحف:**

يفتتح السيد وزير الثقافة مساء اليوم المعرض العاشر للفنان أحمد ماهر بقاعة أتيليه الفنانين والكتاب. يضم المعرض أحدث أعمال الفنان والتى وصفها النقاد بأنها تمثل نقطة تحول مفاجئة فى حياته الفنية .

- **القـــــــاعة:**

تزغرد الأركان فرحة بصحبة الفن والحب والمعرفة.. وتطالعنى ابتسامتها المناسبة حلما بين باقات الورود والمقاعد والخطوط والشخوص والألوان.. كان القلب قد سكن وهدأت العاصفة وتبلد الوجدان، فتسربت إلى عمرى ألوان الفجر الوردية، تنسكب على لوحاتى بعد صمت دام خمسة وثلاثين عاماً فصلت بين حبى الأول وحبى الأخير.

وأبحث بين رفاق الرحلة عن "رامز" .. عراف رموزى وألوانى وألغازى الجديدة. ثلاثة أيام متتالية يعد معى اللوحات. يضبط الإضاءة. يضع اللمسات الأخيرة. يدخن عشرات السجائر، وأحدثه عنك ويقول لى:

-كن شجاعاً وأعرض قلبك فى الواجهة

وجاءنى طيفها الساحر فاستجبت لرامز وعلقت فى الواجهة لوحة تقول"هنا زلزال يهز حياتى ولا يدمرها وإنما يعيد بناءها من جديد. هنا تمرد على حياة تشابهت فيها الأيام والشهور والسنوات والصدمات، وهنا سؤال يتيه فى حيرته ويتوه":

-أيعقل أن أحب مرة ثانية وقد بلغت الخمسين؟!

وقفت أتفرس فى معالم الأوجه. ما معنى هؤلاء الناس إن لم يكونوا على دراية بالتحليق فوق النجوم؟!..

ظللت أشرب وأشرب قبل أن يأتوا جميعاً ليتأملوا فنى. ذاتى . عشقى. حياتى. هواى ...يا بنفسح المريخ الشاحب . ماريا الغائبة معى دائماً فى اللحظة فى اللمحة فى النغمة فى الشهيق. يا أزرق النيل لن يعرف الحزن مكانى اليوم، فحياء ماريا يسحرنى وذكاؤها يبهرنى، ومن سُحر وأخذه الإنبهار فإنه لا يخاف الموت ولا الحياة.. ومادامت قد أوصلتنى بأناملها الرقيقة ونظراتها الهامسة إلى عين النبع، فإنى لم أعد أريد شيئاً.

●ما لم يكن فى الحسبان:

سقط رامز. فقد القدرة على التنفس، وزارتنى نظرة الفراق المخيف فى عينى ماريا الشاردتين. تحولت الدنيا إلى كارثة من اللحم والدم والأعصاب والشعيرات والأوردة والنبضات الهزيلة. كيف أقف مساء اليوم فى القاعة بغيره؟! .. أين العربة وأى مستشفى ومن الطبيب وما الذى يضمن لى ألا يقع رامز ضحية للاهمال وانعدام الحس؟!.. " انقذيه يا ماريا.انقذينى. لماذا يغيب طيفك الآن وكلى حاجة إليه.؟!

من المستشفى هاتفت مسئول المعرض. طالبته بالتأجيل. سألنى فى ذعر عن السبب. قلت له غاضباً

-لا معرض بلا رامز.

ولكنى لم أقل له ألاّ معرض أيضاً فى غياب طيفها الحبيب المسافر!

-هذا جنون. الوزير قادم لافتتاح المعرض فى موعده المحدد.

-لا يهمنى وزير أو خفير.

-دعك من هذيانك ياسيدى وتعال بسرعة فالموعد قد أزف.

بكيت فى صمت بجوار فراشه. ابتلعت عيناى الدموع حتى لا يراها.. وقالت ماريا إنها غابت حتى تعود بالملائكة الذين سيتعهدون برامز أثناء غيابى بالمعرض.

تشبثت بمقعدى. نظر إلى رامز برجاء عذب أن أذهب وأتركه فى رعاية الله وملائكة ماريا. ذهبت وخوفى من فراقه يذكرنى بخوفى من فراق ماريا .. وإلى النيل شكوت وحدتى.

- **مناجـــــاة:**

أنا والليل والإرهاق الجميل وطيفها والنيل.. يا ألله كم أنت بديع فيما أودعت بأرواحنا من أسرار جمالك القدسى. تغرينا بحلاوة دنياك وتعدنا بروعة جنتك، ثم تتركنا فى حيرة نختار مانختار وأنت تعلم فى عليائك أننا واهمون، فأنت الذى اخترت لنا وما علينا سوى الطاعة والامتثال.. نغوص فى أسرار حكمتك ولا نبلغ منها إلا القشور، فالدنيا دنياك والآخرة آخرتك وما نحن إلا أطياف تهيم فى ملكوتك العظيم مسبحة بحمدك على ما منعت وما منحت .

يا ماريا دعينى أحبك كما أشاء. أحبك قديسة أحبك امرأة. أحبك طفلة .. ومضة من قلب ذاكرة الدهر الأزلية.. لون لا أعرف كيف ولماذا ومتى وأين جاء من ثنايا الضوء، فالعذاب لا يحتل المساحات إلا حين ننسى فنتصور أننا ملائكة ولسنا بشراً.. وبالله عليك يا رامز لا تسمح لجلطة دم حقيرة أن تجعل من الفراق حقيقة قاطعة!.. ويا أحباب الحياة يا أهل الفرشاة والقلم والنغم، أنتم عالمى الذى يجيش فيه حبى لحبيبتى، فلماذا النوم؟.. وما أهون الإرهاق إلى لحظات قرب من طيف ماريا.. أما القدر فإنى سأتوسل إليه .سأرجوه الليل والنهار أن يبقى لى ماريا وأن يحفظها من لحظة سوء، وأن تسبح ملائكتها من حول رامز فى بحر من الألوان الوردية الحالمة.

أحب يا ماريا خطوتك الواثقة . أحب بيتك. صديقاتك. أعشق النسمة الشفيفة التى تخلفها حركة جسدك الممشوق. أتغنى فى خلوتى بحروف اسمك الجميل، فمتى تجمع بيننا الأميال والأرض والأيام؟! ساعات الفراق ترهقنى. تسحقنى.. وكيف أنام كيف أصحو وأفكر؟ كيف آكل وأشرب وأنت بعيدة عنى يا أجمل ما فى جمال الكون من لوحات؟!..

لو أجمع الانس والجن على ان حبنا حرام فلن أعبأ بهم.. ويارب كل الأديان أنت المحبة وأنت الحبيب الاعظم.. وأنا وحبيبتى نحبك.. وأنت واهبنا هذا الحب فكيف يحرمونه علينا؟!.

- **الافتتـــــــــاح:**

أنظر فى عينيك فى اللون العسلى فى جدران المعابد القديمة فأرى عمرى. وفى لحظة أسافر إلى الماضى مرة وإلى المستقبل مرة عابرا السنوات والأحداث والصدمات.. آه يا حرية.. يا حب يا جنون.. ومهما كان خارجنا قبيحا فاشلا داعراً متخلفا متوحشا، فما أجمل داخلنا حين يتوحد بعالم الاطياف الملونة والاحلام الملونة واللمسات الحنون. وأنى لأرى أرضا بلا شياطين وآدميين بلا شهوات ونفوسا بلا أوجاع ، فهل أنا مجنون أم زاهد أم مجرد قبضة هلامية من الطين؟!

يتأمل الرواد لوحاتى وأشعر بأحضان الأصدقاء جميعاً دافئة. حتى الزائفة منها والجليدية.. تتوهج روحى حين أرى باقة الورد التى بعث بها رامز. تستقر بالنور فى قلب المعرض منذ هبط آدم إلى الأرض. كان لابد أن تجئ وتستقر، ومعها جاءت ورقة يصف فيها رامز كيفية تنسيق الباقة كما طلبها من المتعهد ، محددا له أنواع الورود وأعدادها ومواقعها النسبية ، وما يملأ الفراغات بينها وما يبثه النسق من نفحات الوصل وأناشيد النشوة .. وبأذنى سمعت الموسيقا تنساب منها فى صمت قدسى وكانت ماريا تغنى .. ولأول مرة كانت ابتسامتها فرحة مشرقة، وكان مجلسى فوق القمر، ولم يكن لسنوات العمر حساب.

كتب رامز فى ذيل الورقة يقول لى:

-إن لم تجد الباقة مطابقة للوصف فلا تستلمها.

نامى تحت جناحى فى طمأنينة ياحبيبة ما تبقى من عمرى، فلقد خاننى البصر والبصيرة طيلة كل هذه السنين وأنت أمامى وأنا لا أراك. وماذا أفعل بطيف لا يفارقنى لحظة حتى أحتويه وأتوحد معه فأتحرر من ثنائيتى به وثنائيته بى .. كيف؟!

ويزداد الزحام وتفوح فى الجو رائحة الإنسان كما أعرفها لا كما أتمناها. أرقب لغة العيون والتفاتات الرقاب وزلات اللسان . أجوس بقرون استشعارى فى خبايا النفوس على ملامح الأوجه، وفى طبائع القلوب على معانى الكلمات العفوية والمصنوعة. أتمعن فى رصَ الأسنان وهى تمضغ العمر والحلوى فأرى منها الصفراء والبيضاء والفضية والمذهبية والمفقودة والميتة .. وأخص بعنايتى الأنياب، فآه من أنيابك يادهر حين تمزق ومن أضراسك حين تطحن. آه من لعابك حين يسيل فلا تعبأ بضحاياك من الغرقى والمتعثرين من ذوى الخمسين !

وقالوا جميعاً عن انتشار البهجة فى ألوانى. عن انطلاقى اللامحدود إلى ما لا يقال وما لا يكتب. وكنت على وشك أن أدلهم على سرى وأحكى لهم عن نظرة ماريا الجديدة، الملهمة بالوصل من بعد الفراق. كنت على وشك أن أصف لهم ابتسامتها الفرحة المشرقة فأحدثهم عن اللؤلؤ المصفوف والفجر العاشق والندى والعطر .. عن طيور الحب الخضراء التى ترفرف فى سعادة من حولنا بالليل والنهار.. عن قرة عينى .. عن الله.

لكنى تسربت كدخان دون أن يشعروا بى. طرت إلى رامز تحف بى ملائكة ماريا وطيورها. تحملنى ابتسامتها فوق السحاب وقد تبدد خوفى من نظرة الفراق.. وكانت بيدى وردة من الباقة التى بعث بها رامز مع سيدنا آدم.

قال لى بانشراح وقد عادت إليه أنفاسه:

هل أعجبتك باقة ماريا؟

****

نشرت بمجلة حواء فى 1994/3/26

"الحبيبة ..الزوجة .. الصديقة"

****

اختفيت عن الدنيا لأربعة أعوام متتالية فى شرنقة حب هو الطاغوت بعينه. لم يخطر ببالى من قبل أن أحب من جديد، ولم أسع إلى ذلك على الإطلاق، وإنما هى ألاعيب الزمن التى يعبث من خلالها بالمخلوقات ويتسلى بمراقبته لردود أفعالهم.

رغم أننى كنت على وعى بتلك الملاعبة إلا أننى استسلمت لها تماماً بإرادتى، إذ بهرنى ذلك الحب الجميل ودفع بدماء الحياة فى قلبى وعقلى وأطرافى وأصبحت عيناى أكثر لمعاناً عن ذى قبل، وتضاعفت قدراتى على العمل والإنجاز. بعبارة أخرى لقد تحولت إلى إنسان فرح يمارس وجوده فى سعادة يأتى مددها المتدفق من وجود الحبيبة على قيد الحياة.

كنت على يقين من أن ارتعاشة الحب الأول وبكارة الأحاسيس المتدفقة من نبعه يستحيل أن تتكرر. ضربات القلب المتدافعة ، ونظرات العيون الولهى ، وكلمات الود التى تقطر عسلا مصفى .. أشياء يندر أن تحدث فى حياة إنسان أكثر من مرة واحدة.. هاهى تتكرر أمامى الآن وربما فى صورة أجمل وطعم ألذ وأشهى وبهجة واثقة كفلتها سنوات التجربة.

عندما انفتحت الشرنقة وطارت الفراشة فوجئت بموجودات لم أعرها أدنى اهتمام خلال سنوات التشرنق، فهاهى مدينتى الجميلة وقد امتلأت بالتماثيل والجداريات. كانت قد وجدت بالفعل ولكنى لم أجدها إلا بعد أن حلقت فى الفضاء. وها هم الأصدقاء .. كنت قد نسيتهم تماماً فلم أعبأ بالتواصل القديم الحميم معهم من داخل الشرنقة، وإذ بى أجدهم أحياء مثلى يعتبون علىّ الانقطاع الطويل عنهم وكأنما وجودهم لم يكن يعنى لدى شيئاً وأنا متشرنق!.. وهذه مبانٍ جديدة تصعد إلى السماء وقد قامت فى نفس الشارع الذى أسكن فيه دون أن أراها.. كل شئ أعيد اكتشافه من جديد وكأننى كنت أعمى .

ياإلهى! .. كيف استطاعت تلك السيدة أن تعمينى بحبها العاتى عن كل شئ عداها وتغنينى عن أى شئ سواها؟! وتساءلت هل للحب هذه القدرة الطاغية على الإستغناء أم انه كان من الأجدر بى أن أعيد اكتشاف نفسى بعد هذا التحول الخطير.

ولقد شاءت الظروف وحدها – دون تدخل من جانبى – أن يكون حبى طاهراً عفيفاً لم يختلط بأدران الجسد وأشواقه وحنينه إلى الامتزاج بالمحبوب، فمن الخيبة

أن أدعى الرغبة فى ذلك، وإنما الحقيقة إننى كنت أتوق إلى وصل ما بعده فصل يوحد بين روحينا باتصال جسدينا، فهذا هو الحب ولا بديل غيره عن جنة الخلد على الأرض.

فى تلك الآونة عرفت "هناء" وحكيت لها عن حبى الجديد. قالت لى اننى إنسان عذب فسحرنى الوصف وتماديت فى تقوية أواصر صداقتى بها، وكان قلبى مع الحبيبة كله!

قالت لى هناء إنها مشتاقة إلى السباحة فى بحرى والغوص فى أعماقه وأبدت تجاهى اهتماما فاق الحد حتى وصل بها الأمر يوماً إلى أن قالت لى بكل وضوح:

- إننى أريدك

شئ خبيث فى داخلى منعنى من صدها رغم أن قلبى لم يكن ملك يمينى. فضلت أن أخوض معها التجربة على أن أوقفها عند هذا الحد حيث تقتضى الحكمة. سألتها فى حيادية المحبوب الذى لا يحب:

- كيف يكون ذلك؟
- كيفما تشاء وأينما تشاء ووقتما تشاء.

إذن فأنا رجل عذب ومحبوب ومرغوب من امرأة أخرى غير حبيبتى. يالك من كهل محظوظ ، وأين كنتن أيتها الأفاعى الجميلة الناعمة أيام الشباب؟!..

قلت لها بنفس الحيادية.. حيادية المحبوب لا المحب:

- أخشى إن حدث هذا مرة أن يتكرر مرات أخرى.
- دعنا لا نسبق الأحداث.
- أنت تعلمين كم أحب محبوبتى.
- هذا حب بلا جذور لا يلبث أن تذروه عاصفة واحدة.
- فلنجرب.
- وأنا موافقة.

وصفت لها مسكنى الصيفى وحددت لها اليوم والساعة وبقيت فى انتظارها.

تناولت من المشروبات والأدخنة ما يكفى لجعلى فى حالة مزاجية طائرة يتسيد فيها اللاوعى على الوعى بقدر محسوب كفلته الخبرة والممارسة .

فى المنطقة البرزخية التى تفصل بين الحلم والواقع وتصل بينهما، رأيت نفسى أرقب حواراً مثيرا بين الزوجة والحبيبة والصديقة التى تريدنى.. حوار لم يكن من الممكن حدوثه لو لم أستطع - وأنا فى تلك الحالة المزاجية الطائرة - أن أجمع بين الثلاثة فى شقة واحدة تفضى إلى بلكونة تطل على البحر الذى تتصاعد قهقهات أمواجه فى أذنى .. وطال الوقت ولم تحضر فاتصلت بها على الهاتف:

- لماذا؟
- إننى خائفة.

ترى أتخاف منى أم من نفسها أم من الله؟!..

- ولم الخوف وأنت صاحبة الفكرة؟
- لست أدرى .. أرجو ألا تغضب منى

إنى على ثقة أننى لو احتلت عليها ببعض الكلمات الناعمة فسوف تتخلى على الفور عن خوفها.. لكنى لم أفعل.

- على العكس، أنا أشعر بأن ضميرى قد ارتاح لخوفك.

والحق أننى لم أكذب عليها فقد شعرت بأن كابوسا قد انزاح عن صدرى، ورغم ذلك فقد ضغطت عليها بقوة دون أن أعرف السبب فى ذلك فعدت لسؤالها:

- ولكن لماذا؟

- أعتقد أننى سأستحيل من بعد هذا اللقاء إلى فرسة جامحة لن يمكن لأحدنا السيطرة عليها.

تصورت فى هذه اللحظة أن محبوبتى تنظر إلينا خلسة من ثقب الباب ونحن معا على الفراش، ثم لم ألبث أن رأيت زوجتى تنظر خلسة من ثقب الباب الآخر إلى محبوبتى وهى تنظر إلينا، وكانت المحبوبة قد قالت لى من قبل:

- أتمنى ألا تشتهينى
- كيف وأنا أحبك؟
- إنى على يقين من ضياع حبنا لو حدث بيننا شئ.

أما زوجتى فكانت تسألنى كثيراً عن أمور تتعلق بخطيبة الإبن وخطيب الإبنة ونفقات المنزل وتنصحنى دوماً بالكف عن التدخين لأنه يسبب الموت.

وبينما أستمع إلى ضحكات الموج الساخرة رن جرس التليفون، فإذا بها تسأل عن وجود ما يكفينى من الطعام والشراب وتنصحنى بعدم السهر وتذكرنى بغطيطى وشخيرى أثناء النوم مؤكدة أنهما لا يتزايدان إلا بطول السهر وكثرة التدخين .. أمور لم تشغل بال الحبيبة أوالصديقة، فإحداهما لم تعاشرنى ولم تعرف طبيعتى على حقيقتها.

تذكرت تساؤلها حين كنت أعد حقيبتى للذهاب إلى المصيف:

- ألا تأخذنى معك؟
- سآخذك فيما بعد، أما اليوم فإنى بحاجة إلى الخلوة.

قالت بعينين موحيتين:

- خل بالك على نفسك

لم أستطع أن أتفهم لغة الحوار الساخن بين الثلاثة، فربما كان يدور بلغة أخرى غير العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية وإلا تمكنت من الفهم والمتابعة .. ووجدت نفسى أسحب عدة الصيد وترانزستور صغير وبعض الساندوتشات وعلبة السجائر والولاعة وأترك الغرفة بمن فيها.

****

كتبت فى 2003/1/18 ونشرت بجريدة الأهرام فى 2003/9/12

الظـاهر والبـاطن

****

- **المسكين:**

كـان يسـكن فـي الشـقة الملاصـقة لشـقتى ويعمـل موظفـاً ببنـك شـهير. لا يتـورع أن يطـرق بـابى فـى سـاعة متـأخرة مـن الليـل مـتعللا بنفـاد سـجائره. أعطيـه سـيجارة. يعـاود الكـرة فـى يـوم آخـر ليقتـرض عشـرة جنيهـات ثـم لا يردهـا أبـدا. كثيـر الثرثـرة فيمـا لا يفيـد. بمقـدوره أن يتحـاور مـع البـواب لنصـف سـاعة حـول أمـر يتعـلق بمسـاهمة رمزيـة فـى نفقـات صيانة المنزل. أتحاشى ملالته القاتلة قدر إمكانى مراعيا حق الجيرة.

وأسـمع صـوت زوجتـه فـى المسـاء وهـى تصـيح معترضـة علـى محاسـبته إياهـا فـيم أنفقـت مصـروف البيـت بالتفصـيل الـدقيق. بعـد وفاتـه بأشـهر قليلـة فوجئـت بعـربتين مـن أحـدث الطـرز تنضـمان إلـى جـراج المنـزل. الأولـى يقودهـا ابنـه والثانيـة تقودهـا ابنتـه. أما الزوجة ففضلت إيداع ميراثها فى البنك وتزوجت من رجل عرف بالسخاء.

****

- **الوزير:**

كـان يعمـل سـائقاً لعربـة مـوظفى الشـركة. شـهد لـه الجميـع بحسـن الخلـق والطبـع الهـادئ وحـلاوة المعشـر، حتـى اختـاره رئـيس الشـركة ليقـود لـه عربتـه. ويـذاع خبـر بقـرب زيـارة الـوزير، حـين ينصـب اهتمـام رئـيس الشـركة علـى نظافتهـا وتجميـل مـدخلها بعمـل حديقـة فـى الواجهـة. تفـرغ السـائق خـلال النهـار للإشـراف علـى إنشـاء الحديقـة . لـم يعرف أحد هل كان ذلك بتكليف من رئيس الشركة أم انطلاقاً من تلقاء نفسه.

انقلـب إلـى كـائن آخـر يشـخط فـى العمـال ويهـددهم بتوقيـع الجـزاءات علـيهم. سـخروا منـه وأطلقـوا عليـه لقـب وزيـر الزراعـة. تصـاعد تعطشـه للسـلطة دون امـتلاك مقوماتهـا فـازداد اسـتبداده وتسـلطه وكرهـه الجميـع مـن بعـد حـب، وذات صـباح أصـابه مغص مفاجئ فمات ودفن.

****

- **الساقيـة:**

مـن الممكـن دون تجـاوز للحقيقـة أن ألخـص حركـة حيـاة صـديقى الراحـل عاشـور محـرز فـى أنهـا كانـت تنبـع مـن رغبـات زوجتـه وتصـب فيهـا. ولأنـه كـان طيـب القلـب لدرجـة مذهلـة فإنـه كـان يلبـى جميـع رغباتهـا دون اسـتثناء ، وكـان هـذا الأمـر محـور تنـدّر

عائلته الكبيرة ذات الشهرة والثراء، والتى تحفظت منذ البداية على زواجه من فتاة عديمة الحسب والنسب.

أيام عطلاتها لا تقضيها إلا خارج مصر، وعليه إحضار تذكرة السفر وتأكيد الحجز فى الفنادق التى ستقيم بها. وأثناء غيابها يقتل نفسه فى العمل ليلاً ونهاراً دون أن يدرى بنفسه. وتطلب تغيير عربتها مرة كل عامين على الأكثر فيمتثل لرغبتها بصدر رحب.

كان حبها للمظاهر طاغياً لدرجة السفه، لكنه كان يشبعه لها عن طيب خاطر. ذات مساء جاءنى مكدراً بعد سفر زوجته للفسحة فى اليونان تاركة له رعاية الولدين. سألته عن سبب غمته فأجابنى بطفولة طازجة:

- تصور أنها بعد هذا كله تتمنّع على.
- كيف؟
- بالأمس تعللت بأن تلبية رغبتى سوف تكلفها عناء معاودة الذهاب إلى الكوافير .
- وماذا فعلت .. هل مزقت تذكرة السفر؟!

لم أنتظر إجابته فقد كنت أعرفها، ثم يسألنى عن أخبار صديقنا الفقير الذى يتولى فى السر نفقات علاجه من مرض خبيث، ويسلمنى مبلغاً من المال كى أسلمه بدورى إلى زوجة الصديق .. من الغريب أنه مات بنفس المرض.

****

- **الشفاء:**

ارتكب ما استطاع من الفواحش فى حياته، لكنه لم ينس فى كل مرة أن هناك يوماً للحساب، ولقد صدق توقعه حين صدر قرار بإعفائه من منصبه الكبير وتعيين مساعده بدلاً منه.

أيقن أن الله سريع الحساب ، لكنه لم ينج من أزمة قلبية عنيفة شلت سرعته المجنونة فى الحياة. ها هو الحساب الدنيوى قد جاء مبكراً ربما ليكفر عن ذنوبه فى الآخرة وربما لأن الله يحبه حتى أنه عجل بعقوبته بهذه الكيفية المهينة.

استعان بالصبر والصلاة لكن هزيمته فى الدنيا أرهقته فلم يستطع تحملها.. وعندما استرد قسطاً لا بأس به من صحته استبدل بالجرى الهرولة إلى الدنيا قدر استطاعته ، ولكن بغير أن يزهدها. بذل الغالى والرخيص حتى تحققت أمنيته وعاد إلى منصبه وسط أشلاء الضحايا والمقهورين. شعر أنه ملكها من جديد ، وأنها عادت تدين له بالطاعة والولاء. صلى لله شكراً ومات على سجادة الصلاة.

****

- **المخلص:**

زارنى الدكتور ناظم قادماً من سورية. احتفيت به بشدة تعبيراً عن امتنانى لكرمه الزائد حين استضافنى فى بيته بدمشق منذ عدة سنوات. أستاذ فى الآداب ، لكنه يحمل روح طفل خفيف الظل متجدد النكتة ، يضحكنى من القلب بتعليقاته الساخرة من أى شئ حتى نفسه. كان على غير عادته حزينا مكتئبا لدرجة مخيفة، انعكست على صحته وهيئته وبراءة وجهه.

عرفت أنه يعانى من عذاب جهنمى لأنه أحب امرأة - غير زوجته التى يحبها - لدرجة سلبته عقله وحكمته ومرحه الدائم. تعاطفت معه من قلبى وجلسنا أمام شاطئ البحر نتحدث حتى الصباح. لقد عاشرها ووعدها بالزواج لكنه يقف عاجزا عن تحقيق وعده، يهرسه الشعور بالذنب تجاه زوجته المحبة وأولاده الأوفياء. إخلاصه لحبيبته ينازع إخلاصه لزوجته والاثنان ينازعان إخلاصه لنفسه.

لجأ إلى الصلاة لأول مرة فى عمره. كلما صلى بكى واستصرخ ربه أن ينقذه من هذه الكارثة التى انقضت على حياته كسهم الموت. كلما حاول الهرب من نفسه ومن حبيبته وجد أن مهربه ينتهى دوماً إليها، إذ توحد معها روحا وجسداً فاستحال المفر.

شكى لى من عزوفه المتزايد عن تناول الطعام ومن كثرة التدخين. حذرته من شدة القسوة على نفسه لدرجة الانتحار البطئ ولكنى لم أعثر على حل لمأساته.

قبل أن يحدثنى فى هذا الأمر، كنت قد طلبت منه إرسال بعض المؤلفات الأدبية السورية إلىَّ بعد أن يعود.

مضى شهر على سفره دون أن يرسل إلى شيئاً. بعثت إليه بخطاب أستفسر عن صحته وأحواله. خجلت أن أسأله عن الكتب، وجاءنى الرد.

فوجئت بأن اسم المرسل المدون على ظهر المظروف هو إسم ابنه. ولما فتحت المظروف عرفت أنه مات بالقلب.

****

- رحيق النشوة:

قامت حياته وتأسست على مذهب المتعة. لم يفعل شيئاً لا يحبه ويرغبه. تفوق علينا فى الجامعة وشغل وظيفة هامة، سرعان ما ارتقى فيها إلى أعلى المستويات مقارنة بجيله. تتحرك أقواله وأفعاله فى خط مستقيم لا يعرف الالتواء أو الالتفاف. يسعى جاهداً لتحقيق هدفه، فإن تحقق سعد بذلك واحتفل وشرب ورقص وغنّى وأفاض من حلاوة روحه على الجميع، وإن لم يوفق ضحك ساخراً من عناد القدر مسلماً له تسليماً كاملاً.

يتناول الطعام ببطء شديد فيتلذذ على مهل بكل لقمة يضعها فى فمه، وهكذا كان أمره فى كل شئ، التأنى لاستحلاب خلاصة المتعة. حين يضحك تنساب الدموع من عينيه اللامعتين ببريق الذكاء الأخاذ، كما تنساب نفس الدموع حين تأثره بموقف بسيط .

لم يتزوج إلا الفتاة التى أحبها وأحبته ، وتمناها وتمنته فأنجب منها البنين والبنات، ومن أقواله الشهيرة أن الجنس بلا حب لا يعنى سوى الانحطاط ..

سافر كثيراً إلى الخارج فاكتسب المزيد من العلم والمعرفة والتجربة. لم يعرف الحسد طريقاً إلى قلبه فقد كان إيمانه بقضية الرزق إيمان يقين. كان إنسانا سليم الجسد والعقل والروح وكنت تحسبه شابا فى بداية الثلاثينيات وقد تجاوز الأربعين بقليل.

سألته يوماً وهو فى فرط نشوته وثقته بنفسه عقب تحقيق نجاح كبير:

- ألا تخاف .. ألا تقلق؟!
- مماذا؟
- من أى شئ .. من المستقبل مثلاً.
- أى مستقبل؟
- مستقبلك. مستقبل أولادك. الصحة. الرزق. الموت؟!!!
- أنا لا أخاف إلا الخوف نفسه، ولكن إيمانى يزودنى بالشجاعة دائماً.

مات فى الخامسة والأربعين وهو فى كامل لياقته وفتوته، على ظهر سفينة فى عرض البحر المتوسط. كان مستلقيا عارى الصدر بجواره زجاجة من البيرة وبيده رواية زوربا اليونانى.

****

- العتـــبة:

يومها بأكمله تقضيه جالسة على عتبة بيتها المجاور لبيتنا، تحادث الغادى والرائح كبيرا كان أم صغيراً. لا تغادر العتبة إلا لتناول الطعام أو قضاء الحاجة أو النوم. يحمل وجهها علامات جمال قديم قد ذبل لعدم الارتواء.

كانت تحب أمى لأنها الوحيدة من نساء الزقاق التى تعدها وتؤملها دوماً بقدوم العريس. تسمع إلى شكواها من شقيقتها الشابة التى تؤويها. تتهمها بالأنانية وتعزو عنوستها إلى رغبة خبيثة فى نفس هذه الشقيقة التى تنعم بالزوج والأولاد والمسكن والمطعم والمشرب.

تشيد الشيخة صالحة للجميع بزوج شقيقتها المهندس المعمارى الكبير الذى يحن عليها بالقول والفعل ويوصى زوجته بالاهتمام بها وإجابتها إلى كل طلباتها، فتدعى الاستجابة أمامه ، لكنها لا توليها أدنى أهتمام، مكتفية بتوبيخها لكثرة جلوسها على العتبة وضجيج الأطفال الملتفين دوما حولها.

لم أعرف من أمى أو من غيرها لماذا آل حال الشيخة صالحه إلى ما هى عليه، إذ تعلمت أختها وتزوجت من رجل مرموق بينما بقيت هى أميةً ، ولم تعرف السكن إلى أحضان رجل.

دفعنى الفضول - فى صباى - إلى التودد إليها للوقوف على سرها فلم أحظ منها إلا بكلمات متناثرة عن البخت والنصيب وإرادة الله. سألتها عن والديها فطلبت لهما من الله حسن الجزاء. حاول شاب فاسد من الحارة أن يختلى بها فنهرته بشدة وفضحته على رأس الحارة.

بعد ما قتلت شقيقتها برصاصة طائشة فى أحد الأفراح ، فوجئت بزوجها يمنعها من الجلوس على العتبة لأول مرة.. ثم فوجئت به يطلبها للزواج لتعيش فى كنفه وترعى أولاده، لكنها فيما يبدو، لم تحتمل الصدمة.

****

- الدرجة:

انتظر الأستاذ فريد ظوغلى بفروغ صبر إحالة رئيسه إلى التقاعد حتى يتحقق حلمه الكبير وأمله الوحيد فى الحياة. لكن رئيس المؤسسة لم يصدر قراراً بتعيينه رئيسا للقطاع الإدارى خلفاً لرئيسه. لم يعرف النوم الطريق إلى عينيه وهو المحب للتميز والشعور بالأهمية القصوى التى تتضاءل أمامها أهمية الآخرين.

دفع بكل الوساطات الممكنة ليحث رئيس المؤسسة على سرعة إصدار القرار. صار يقضى ليله ونهاره يجوب أروقة المؤسسة ويمر فى جولات ليلية مفاجئة على عمال الورادى. تناثرت من حوله الأقاويل العابثة والنكات الساخرة، فأضمر فى نفسه الانتقام من مروجيها حين يجلس على المقعد المنتظر. تراه يحدثك وعيناه تحومان حول وجوه الجالسين ليرقب فى لهفة مدى تأثير حديثه عليهم حتى لو كان الأمر لا يعنيهم فى شئ.

ماتت شقيقة رئيس المؤسسة فبعث إليه ببرقيتى عزاء: الأولى على الشركة والثانية على منزل الأسرة، ثم حطّ نفسه فى طابور أسرة الفقيدة وراح يتلقى العزاء من الآخرين. وسألت رئيس المؤسسة.

- لماذا لا ترقيه وتخلصنا من إزعاجه؟
- إنه رجل معتوه لا يصلح للإدارة.
- جربه بالانتداب فإن أفلح يُعيّن.
- إنه حالة مثالية للميجالومانيا.

بمجرد أن يصل الأستاذ فريد إلى مكتبه يسأل موظفيه بنبرة فوقية:

- "هل صدر القرار؟"

فتجئ الإجابة مخيبة لرجائه.

منعه الطبيب من العمل المرهق ، ونصحه بالراحة على الفراش لأسبوعين على الأقل، ولكنه لم يمتثل.

لحظة صدور قرار الانتداب – لا التعيين – كان ممدداً على بساط غرفة مكتبه والموظفون ملتفين من حوله فى كثرة دافعها الفضول المجرد، حين فك أحدهم ربطة عنقه وهو يصيح:

- يا اخواننا أوسعوا من حوله فهو بحاجة إلى الهواء.

ويرد آخر بعد أن أمسك برسغه قليلاً بين أصابعه:

- لا تتعبوا أنفسكم .. البقية فى حياتكم.

فى اليوم التالى قرأت نعيه فى الجريدة معنونا بوكيل الوزارة فريدظوغلى مأمون.

****

- **الخادمة:**

استشهد زوجها فى الحرب. اشترت منزلا وصارت تؤجره كشقق مفروشة. تعود من عملها الحكومى لتلتقى بالسماسرة وتتفاوض معهم. تشرف على العمال الذين يقومون بصيانة المنزل. تعد الطعام. تراجع الدروس مع الأولاد. تشترى لوازمهم. تستأجر لهم المدرسين الخصوصيين وتنفق بسخاء على طعامهم وشرابهم وكسائهم فتنسى نفسها تماماً.

تقدم للزواج منها رجال محترمون لكن قرارها كان حاسماً بأن تفنى عمرها فى خدمة أبنائها. وصل أكبرهم إلى البكالوريوس ثم مات فى حادثة. هاجمها المرض بضراوة. تخرج الولد الثانى فى الجامعة وهاجر مع خطيبته إلى كندا.

انهالت بكل ما تبقى لديها من طاقة على الولد الثالث. وكانت تخدمه كما لو كان سيدها. عرف الطريق إلى الخمارات ونساء الليل والمخدرات الحديثة. عاودها المرض بضراوة أشد. لم تفلح معها سبل العلاج الكميائية أو الإشعاعية. تحولت من جمال آسر إلى هيكل آدمى مخيف. رغم ذلك جاء شقيق زوجها يجدد عرضه بالزواج منها. قالت له إن أمنيتها أن تمضى البقية الباقية من عمرها فى خدمة ولدها الثالث، لكن الزمن لم يمهلها لتحقيق أمنيتها الغالية.

** * *

- **الفيلسوفة:**

إسمها حَنه. خرساء لكنها تستطيع النطق ببعض الأحرف آء. أو. با.. وغيرها .. كانت تقوم بتنظيف منزلنا مرة كل أسبوع. ما أن تدخل فترانى حتى تخرج من صدرها لفافة صغيرة من الحلوى تقدمها لى وتقبلنى فى حنان، ثم تخلع ملاءتها فى صمت وتؤدى عملها بإتقان. غير أنى كنت أفاجأ بحضورها أحياناً فى منتصف الأسبوع دون استدعاء. تستقبلها أمى وشقيقتى بترحاب زائد. تقف فى منتصف غرفة المعيشة لتبدأ فى الرقص الشاكى مستخدمة يديها للتعبير بالإشارة مستعينة ببعض الحروف التى تستطيع النطق بها. وتتمايل يميناً ويساراً وهى ترقص معبرة عن حال ابنها المجند الذى حكم عليه بالسجن لغيابه عن المعسكر عدة أيام، ثم تنتقل إلى زوجها العاجز قعيد المنزل بلا عمل يدخن السجائر ويشرب القهوة ليل نهار. وتعود إلى زوجة ابنها فتقلدها فى حركاتها وأفعالها وتسخر من أنانيتها وتسلطها على ابنها.

أرقبها فى دهشة شديدة تذكرنى بذات الدهشة التى كانت تنتابنى بينما أرقب الفرخة وهى تترنح بعد أن تذبحها أمى. وتواصل حنة الرقص بينما تصفق أمى وتطبل أختى وتنطلق ضحكاتها مجلجلة فتضحك معها حنه حتى تدمع عيناها فتمسح دموعها بطرف فستانها وتجلس لاهثة تستعيد أنفاسها فأعرف أن المجلس سوف ينفَض عما قريب.

ولما علمت بوفاتها أثناء تناول الغداء تركت نصيبى من صدر الفرخة دون أن أقترب منه.

****

نشرت بجريدة الاهرام فى 2000/9/29

زمن الانترنت

****

محمـــــود:

استخرت جلالته فألهمنى بإشارة أيقنت أنها تخصنى وحدى ، وعلى أثر ذلك سعيت بحب فى كونه الفسيح..خمسون عاما من المكابدة الصادقة والعمل الدؤوب ، مسلحا بالصبر والتسليم، أتنفس النوايا الحسنة متغافلا بوعى عن غدر الأيام وطول الرحلة وأراذل الطريق من إنس وجان. ذلك أن هناك سكينة متربعة على عرش قلبى ، لست أدعى معرفة واثقة بسرها، وإن كانت تمنحنى أنفاس الحياة ، وتضخ فى دمى أملا ، وترسم على وجهى ابتسامة المطمئن فى زمن الانترنت الرهيب الذى يكاد يخلو من الرحمة ، والذى استبدل فيه البشر وحدانية السوق بوحدانية الله.

قالت لى الاشارة الملهمة:

لاتقصد أخاك "غنام" الشحيح النفس ، فهو آخر مخلوق على ظهر هذا الكوكب الصغير يمكنك أن تنتظر منه العون"..

وحذرنى صديقه الحميم "مرسى" من مجرد التفكير فى اللجوء اليه ،فهو تاجر مثله ، وعلى دراية كافية – من خلال تعامله معه – بخسة طبعه فيما يتعلق بالمال.

قلت له رغم ثقتى بأنه يصدقنى القول والنصح:

- **لكنه أخى ، ابن أبى وأمى ، ولقد من الله عليه بفيض من الرزق ، والأقربون أولى بالمعروف.**
- **أنت حر ، ولكنى أخشى على عزة نفسك من تحجر مشاعره**

حضرتنى روح أمى ، وأدركت لأول مرة – تحت ضغط الحاجة الموجع – مغزى دعاءها القديم المتكرر بألا يكلنى الله لكلاءة غيره ولو كان أخى.. ورغم إدراكى أن الدنيا لاعنوان محدد لها يمكن للإنسان أن يبحث عنه ويسأل فى أمان ويتقصى ، إلا اننى قلت له والرجاء فى الله يغمر قلبى:

- أنت تبالغ ، فمهما وصل به الأمر ، الا أنه سيرق لحالى حين يدرك مدى كربتى.

قال لى بنبرات شديدة الاشفاق علىّ من جهلى:

- لايطلب الفضل الا ممن جعل الله رحمته فى قلوبهم، لاممن جعل فيهم سخطه.

فاجأته بقولى المختصر:

- لهذا قصدتك قبل أن أقصده !

بانت علامات الدهشة على وجهه، فكيف أقصده ولماذا – وهو الغريب – من دون أخى وهو الشقيق؟.. لعله يعانى من حرج تقديم العون لى – ان كنت أفكر فى ذلك – بينما يبعد مقر أخى التجارى عن مقره بشارع قصير.. أو لعله يخشى أن أورطه فى وساطة لاجدوى منها..لكنه سارع بالقول فى إخلاص واضعا حد يده على عنقه بأسلوب أولاد البلد البسطاء:

- رقبتـــــى.

****

مرســـــى:

مساء اليوم نفسه قلت لغنام فى جلسة منفردة :

- طلب منى شقيقك محمود قرضا قدره عشرة آلاف جنيه

انتفض غنام مذعورا:

- كـم؟!!
- عشرة آلاف
- لماذا؟
- تقتضى الأمانة ألا أبوح بالسبب ، غير أنه عاجل وخطير

كان السؤال الطبيعى الذى أنتظره منه هو:

- ولماذا قصدك من دونى؟!

لكنه لم سأله ، وإنما قال بثقة راسخة وفى عبارة املائية رصينة:

- كأنك لم تكلمنى فى هذا الموضوع

ساد بيننا صمت أسود، وإذا به يقطعه متسائلا فى لهفة محمومة بحب الاستطلاع المجرد عما سواه:

- وماذا ستفعل معه؟
- انى أريد مساعدته ، ولكنه كما تعلم موظف محدود الدخل ، لن يقوى على الانتظام فى السداد.

بدت علامات سرور أصفر على وجهه..

- هذا صحيح..وإن اجبته الى طلبه فلن تكفيه عشرة سنوات لتسديد هذا المبلغ
- لهذا جئت اليك

قال غنام متوجسا من نفسه ومن الكون والحياة والموت والدنيا والآخرة والأخوة والأخوات والزوجة والأبناء والأصدقاء والأعداء..ورحمة الله:

- لست أفهـــم
- لتسدد عنه أى قسط حين يتعثر فى سداده ، هذا إن كنت تضمنه لى

قال فى سرعة غاضبة تفوق البرق:

- أنا لا أضمن نفسى..قل له انك مديون لى بضعف هذا المبلغ ، وإن حالتك المالية لاتسمح بإقراضه شيئا
- إنى أخجل من أن أتخلى عن معونة رجل شريف أعوزته الظروف

أجاب بلهجة الصديق الناصح:

- ان كنت مصرا فقيّده بشيكات بنكية حتى تضمن حقك

ثم عاد فكرر طلبه بألا يعلم محمود شيئا عما داتر بشأنه من حوار بيننا.

****

محمـــود:

انفجرت فى نزيف من الضحك ، غير أنى رجوت مرسى أن يعيد على مسامعى أكثر من مرة نص عبارته الأخيرة كما سمعها من غنام، فأعادها حرفيا:

- ان كنت مصرا فقيده بشيكات بنكية حتى تضمن حقك.

حين توقف نزف الضحك وبدأ نزف الروح، وأنا مثله تماما، لم أكن فى الأزل شيئا مذكورا، وفى الأبد لن أدرى بشىء على الاطلاق.. ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، وقال لى سيدنا على كرم الله وجهه – مثلما قال له تماما – "اذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لاتفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لاتبقى"..فقلت لمرسى:

- حمدا لله ، لقد نجحت خطتنا ، وإنى مدين لك بخالص الامتنان لأنك حفظت لى ماء وجهى وعزة نفسى باعتبار أننى أجهل تماما ما دار بينكما من حوار، وانننى لم أطلب منه بنفسى شيئا.

قال مرسى بأسى :

- ألم أقل لك ؟
- بلى ، ولكن كان ينبغى ألا أقصر فى الأخذ بالأسباب
- لاتضيع وقتك إذن ، وابحث لنفسك عن مخرج آخر لأزمتك

وبعد تنهيدة مسافرة قلت له من ذروة الدهشة:

- لم تكن أقصى شطحات خيالى تتصور تلك النهاية للتمثيلية التى اتفقنا عليها معا
- أقسم أننى على استعداد لتحويل التمثيلية الى حقيقة بأن أساهم بقسط لابأس به من المبلغ
- حفظك الله ورعاك يامرسى

وإنى والله لفى حيرة من كينونة جبلتك ياغنام ، فانا لست أقف منك موقف الناصح المحتاج ، أو المحتاج الناصح ، حتى أعلمك بأنه ما اعز الدرهم أحد إلا أذله الله ، وإنما أنا مشفق علي نفسى من قضاء الله الذى أنزلك الى الدنيا معى من نفس الرحم، لتمنع الغريب عن مساعدتى ثم لا تكتفى بذلك ، وإنما تنصحه بأسهل وسيلة لوضعى فى السجن لو لم أسدد له ما على!!..لعلك يا أخى كنت حرصا على مصلحة مرسى من نفسه، رغم اعترافك بأنك لاتضمن حتى نفسك..

وينظر مرسى الى عينى فلا يرى شيئا، والى وجهى فلا يستبين غضبا أو تسامحا، لكنه لايستطيع أن ينظر الى ماهو أبعد من ذلك ، ولئن استطاع فهذا من شأنه وحده، وتكفيه استجابته الى طلبى باقتحام صدر غنام واستبطان نفسه كيما أراها ببصيرتى وأعقلها بقلبى ، فإنها لاتعمى الأبصار..

- لى عندك رجاء يامرسى
- ماهو؟
- أن نكتب معا فصلا جديدا من القصة
- كيف؟
- تدعى له أنك قررت إقراضى المبلغ وتطلعه على إيصال أمانة وهمى أكتبه على نفسى
- لماذا؟
- دعنى أحتفظ بالإجابة لنفسى مؤقتا
- يالطول أملك أيها الرجل !

****

مرسى:

ما أن التقانى غنام فى الموعد الذى ضربته له حتى سألنى فى لهفة:

-هاه؟..ماذا فعلت مع محمود؟؟؟

- أقرضته المبلغ لقاء إيصال أمانة

لم يطلب الاطلاع على الايصال كما توقعت، وإنما قال على الفور دون أن ينظر الى وجهى ، وكأنما يحدث نفسه:

- جازاك الله كل خير..

وعلى الفور غير مجرى الحديث ، ثم لم يلبث أن اعتذر عن اضطراره للانصراف متعللا بحجة واهية.

قال لى محمود فى حزن نبيل:

- صف لى اللحظات التى سبقت قوله الأخير
- المسألة ليست بحاجة الى وصف
- كيف؟
- لأنه قالها على الفور وكأنه أزاح عبئا ثقيلا عن صدره
- ألم تقرأ على معالم وجهه شيئا ما ؟
- لاتنس ياسيدى أننى تاجر لايبرع الا فى قراءة الأرقام ، ورغم ذلك فقد حاولت لكنى لم أجد شيئا على وجهه يمكن قراءته
- اذن لم يبق الا فصل الختام
- الحق أنك أرهقتنى يامحمود بلا جدوى ، ولكنى سعيد بصحبة أفكارك ومشاعرك
- دبر معى لقاء عفويا يجمع ثلاثتنا على المقهى الذى يقع بين مقرى تجارتيكما
- كيف؟
- ادعه على فنجان قهوة للمناقشة فى شئونكما التجارية ، وسوف أمر عليكما بمصادفة مصطنعة.

****

محمود:

تم الفصل الختامى بنجاح ، إذ مررت على متجر غنام سائلا عنه فدلونى على مجلسه بالمقهى. ذهبت بحجة مبتكرة بررت حضورى تبريرا مقبولا، حين قبلنى غنام وأخذنى فى حضنه كما تكذب المرأة..ثم شاءت الظروف أن أشهد صفقة شراء مخزن صغير للبضائع دفع فيه غنام أمامى للبائع عشرين ألف جنيه عدا ونقدا، أخرجها من حقيبة صغيرة موضوعة أمامه على المائدة.

خيم الصمت على ثلاثتنا بعد انصراف البائع. كان واضحا أن أحدنا لايجد كلمة واحدة يريد أو يستطيع أن يقولها بصدق للآخر.

لمحت الهاتف المحمول موضوعا بجوار الحقيبة فحاولت كسر ذلك الصمت المؤسف بقولى:

- يقولون ان هذا الجهاز يسبب أمراضا بالمخ

أجاب غنام ساخرا بثقة فرعونية:

- انهم يقولون هذا ارضاء لمن لايمتلكونه وتخفيفا عن حقده على حامله

كان هدفى الأوحد من فصل الختام أن تواجه عيناى عيناه بما حدث ، لكنه لم يتح لى هذه الفرصة أبدا ، وكأنه كان عليما بمخبوء صدرى.. راح يشكو بجرأة وحرقة من نقص السيولة المالية ومتاعب عماله وموظفيه الذين يحبون الحصول على ماله دون جهد يذكر.. حاولت بأقصى ما منحنى الله من طاقة على الصبر أن تعكس له عيناى عتاب قلبى وتبكيان جرحه، لكنى لم أستطع.

مرت أمامنا عربة أجرة ، فاندفعت اليها فجأة مشيرا لسائقها بالتوقف ، وودعتهما بعبارة خاطفة.

****

كتبت فى 1997/9/23 ونشرت بجريدة الأهرام فى2003/4/4

المسعـــــــور

****

يبلـغ مـن العمـر أربعـة وسـبعون عامـا ، ويمشـى بسـرعة ابـن الثلاثـين ، واللـهم لاحسـد. طويـل رشيق أنيق جميل. أرى فيه معادلة انسانية صعبة الحل، فهو يتحدث عن الله كثيرا وعن الآخرة فى خشوع ورهبة..لكنـه يجرى الى الأولـى بأسرع من لمح البصر فى ذعر شديد.. أمـا حين يصلى فإنـه ينقر ركعاتـه كنقر الغراب فى عجالـة مضحكة، ولامـانع من النظر يمينـا أو يسـارا خلال الصلاة ، ليستطلع من دخل المعمل ومن خرج منه.

يردد عبـارات مـؤثرة للغايـة عن فنـاء الـدنيا وبقـاء الآخـرة، وعنـدما ينـهمك فـى العمـل أراه يتفانى فيه لحد مخيف، كما لو كانت القيامة ستقوم بعد ربع ساعة. يقول ان المال لم يعد يلزمـه فى شىء بعد أن أصبح جدا لأحفاد كثيرين ينعمون بحياة هانئة، لكنى تفحصت معـالم وجهـه فـى أكثر من مناسبة وهو يحصى أوراقه المالية بعينين زائغتين فى اتجاهات شتى، كمذعور يتـوالى شهيقه وزفيره فى لهاث محموم، فلم أجد تبريرا مفهوما لتلك الظاهرة الغريبة.

...تستهوينى حالته فأرقبه بشسغف وصبر ودهشـــة.

يتـوالى حضـوره الـى المؤسسـة بـلا تـوان ، حتـى فـى أيـام العطـلات الرسـمية، ويجبرنـى علـى التواجد معه. يغرق فى أبحاثه وتجاربه ودراساته المكلف بها من قبل المؤسسـة فـى جلـد يعجـز عنـه شـاب موفـور الصـحة مجنـون الطمـوح. لا أسـتطيع ملاحقـة سـرعته الجنونيـة فـى الأداء والإنجاز العملى والنظرى لنقاط المشروع الـذى أعمـل بـه تحت إشرافه كخبير متخصص ينـدر مثيله فى مصر، وتتنازعـه العديد من المؤسسـات المنافسـة لحل مشـاكلها الفنيـة المستعصية، لقاء مكافآت مالية باهظة. حين يفيض بى الكيل أصرخ به مستنجدا:

- **الرحمة يادكتور.. على مهلك قليلا حتى ألتقط أنفاسى**
- **اعمل ولاتتكلم فسيظل الوقت يسرقنا دائما**
- **ولكنى بحاجة الى قسط من الراحة حتى أستطيع المواصلة**
- **ألا تخجل من نفسك وعمرى ينـاهز ضعف عمرك؟!**
- **تعبت ..**
- **لو نظرت الى العمل على أنه غاية لاوسيلة ، لما شعرت بالتعب أبدا**

ولولا أننى كنت على يقين من أنـه يتخـذ مـن العمـل مجـرد وسيلة للكسب المـادى لمـا جـرؤت أن أقول لـه:

ـ وما ذنبى أن أعطاك الله قدرة خارقة وحرمنى منـها ؟

وأكتشف فجأة أن الليل قد انتصف بنا ذات يوم بين جدران المعمل الكيمائى، وأننى لم أضع فى فمى لقمة واحدة منذ تناولت إفطارى بالمنزل. بين الحين والآخر كان يخرج من حقيبته علبة صغيرة من البسكويت الجاف. يمد يده أمامى بقطعة متسائلا فى خوف:

- تأكـــل؟

وقبل أن أجيب بلا او نعم ، تكون يده الممدودة قد انسحبت متراجعة فى سرعة خاطفة الى فمه ، يقرقض به قطعة البسكويت كفأر خائف جوعان..ثم لايلبث أن يحقن نفسه بالأنسولين معبرا عن عزوفه الأبدى عن اشتهاء أى صنف من أصناف المأكولات المحببة الى الخلق كافة.

كان المستشار الفنى السابق لمؤسستنا يدعونى كثيرا الى تناول الغداء أو العشاء معه فى المطاعم الفاخرة، ويصر على توصيلى الى منزلى بعربته الخاصة ، وكان لا يتحدث كثيرا عن الله والآخرة.

...رغم ذلك تستهوينى حالته فأرقبه بشغف وصبر ودهشـــة.

عطلت بنا عربة الشركة ونحن فى طريقنا الى بيتينا.. الدكتور نادرا ما يخرج عربته من جراج منزله، فهو لايقبل بديلا عن استخدام عربات المؤسسة التى تستأجره عملا بالمثل الشعبى الشهير:"المحتاجه غناجة".

فكرت باستئجار تاكسى ، فقد استبدت بمخيلتى صورة فراشى وأنا أغط فوقه فى نوم عميق. رحب بالفكرة فى سعادة بالغة، فبيته يسبق بيتى ، وهو الأحوج منى الى الراحة ، وأنا الأحوج منه الى أجرة العربة التى سوف أدفعها صاغرا ، مثلما أدفع للدروس الخصوصية وفاتورة التليفون. قال لى بمجرد ان وضع نفسه على مقعد العربة:

- سأتصل بك تليفونيا بعد قليل لأخبرك بموعد حضورى غدا

تذكرت عادته حين يطلبنى فيرد عليه أحد أبنائى وينادينى.. فما أن أمسك بسماعة الهاتف حتى أجده قد أغلق الخط ، فأطلبه ليظل يتكلم بلا انقطاع على حساب فاتورتى. فى البداية ظننت أنه عيب من الخطوط التليفونية، ولكن تكرار الفعلة جعلنى أوقن أنه يستمتع بالحديث على حسابى.

كنت أشفق عليه ، فهو أستاذى القديم بالجامعة ، وللأستاذية عندى قدسية خاصة حين تقترن بالشيخوخة القاسية. فى الوقت ذاته كنت أحسده على قدرته الفائقة على مواصلة العمل ليل نهار برغبة عنيفة فى التشبث بالدنيا – كموهوم بالخلد – تفوق شهوة شاب للجنس كرغبة غريزية فى البقاء.

توقفت العربة أمام بيته. تحسس جيوبه فى ارتباك شديد. لم أتصور أنه يفكر فى استخراج حافظة نقوده أبدا.. تلك الحاوية الجلدية المهترئة التى لاتفتح إلا للاستقبال.. صاح فى جزع:

- نسيت سلسلة مفاتيح البيت فى المعمل !
- والعمل؟!!..
- لامفر من العودة فزوجتى مسافرة ولا أحد بالبيت

لم يكن من اللياقة أن أترك الشيخ فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ليعود وحده الى المؤسسة النائية، فقررت الذهاب معه. لكنه كان قد اتخذ القرار نفسه من قبلى ، فبدا جميلى فى نظره واجبا لا أستحق الشكر عليه ولو فى قاع ضميره السفلى.

فى الطريق حدثنى باستفاضة عن سر اختياره لى للعمل معه دونا عن بقية زملائى، فهو يثق فى أمانتى العلمية ثقة عمياء. لم أصدقه فى أعماقى لأننى سبق أن شاركته أكثر من مرة فى تلفيق بعض التجارب تحت ذريعة وجوب طاعة التلميذ لأستاذه.. ذريعة لم أهضمها ولكنى ابتلعتها والسلام.

قال ان الانسان ينبغى أن يتحلى بالأمانة والشرف ، لاسعيا الى احترام الناس وتقديرهم ، وإنما لأنه لاينبغى أن يكون خسيسا أمام نفسه. اشتكى لى من ضيق وقته وطول صراعه مع الزمن ، فهو مطالب بإعداد المحاضرات لإلقائها بالكلية كأستاذ متفرغ، ومطالب بحضور اجتماعات مجالس ادارات مؤسسات كثيرة فى أكثر من مدينة خلال الأسبوع الواحد.. كما أنه

مطالب بالتواجد فى أكثر من مؤسسة اخرى لتقديم استشاراته، بحيث يبلغ أقصى مناه أن ينام لساعات أربع على الأكثر من كل يوم.

قلبنا المعمل رأسا على عقب دون جدوى. ذهب يبحث عن السلسلة فى دورة المياه ، حين وقع بصرى بالصدفة على فاتورة المشتريات التى سوف يحصل بموجبها على ثمن بعض أجهزة اشتريتها له بنفسى منذ عدة أيام. أدهشنى أن أقرأ رقما مخالفا للثمن الحقيقى يكاد يصل الى ضعفه. عاد الى المعمل منكسرا شاحبا.

تذكرت فى تلك اللحظة أنه كان قد وضع المفاتيح داخل حقيبته. راح يواصل البحث وقد استبد به الإعياء والتعب.

لم أخبره عن مكان المفاتيح.. تركته منهارا وانصرفت عائدا الى بيتى.

... رغم ذلك مازالت تستهوينى حالته ، فارقبه بشغف وصبر ودهشة.

****

المواطـــــــن

****

فى لحظة استرخاء صافية تأملت حياتى بعمق شديد. استغرقت فيمن أنا وأين موقعى من الوطن والعالم وماذا فعلت من خير وشر فى هذه الدنيا، وماذا فعلت لى هى الأخرى، وما الذى ينبغى أن أرجوه من البقية الباقية من عمرى على سطح هذا الكوكب السابح فى الفضاء الكونى العظيم.

من طباعى المتأصلة حبى الشديد للاختصار حتى فى الأحلام، فأنا لا أحب كثرة الكلام وإنما أسعى للوصول إلى مبتغاى فى خط صارم يصل نقطة انطلاقى بالهدف مباشرة سواء فى أسلوب التفكير أو الإنجاز أو التعبير.

خلصت إلى أننى قد ولدت على أرض هذا الوطن بمحض مصادفة لا شأن لى بها، وإلا فإننى كنت أفضل أن أولد فى إيطاليا مثلاً أو فى لبنان القديم. لقد أمضيت أكثر من خمسة عقود من عمرى أبحث عن أصل وثيقة مواطنتى فى أرجاء الوطن كافة.

إجتزت أهوالا يشيب لها الولدان حتى عثرت على صورة باهتة منها مخبأة فى طيات نفسى.. عنوان الوثيقة كان: "عقد مواطنة" .. والوثيقة مذيلة بتوقيعين هما الوطن والمواطن. أما المواطن فقد كان توقيعى تحته واضحا بإسمى كالشمس. وأما الوطن فكان مكان توقيعه خاليا. ظننته فى البداية قد مسح أو كشط أو أزيل لسبب أو لآخر. ولكنى تأكدت بالفحص المجهرى الدقيق أن التوقيع لم يوضع أبداً. ولما كان مضمون الوثيقة يؤكد أنها تعد لاغية ما لم توقع من الطرفين، فإنه لا يحق لى ادعاء المواطنة رغم كونى مواطناً.

تذكرت كيف سبق لى أن بذلت الممكن والمستحيل كى أقنع الوطن بالتوقيع دون جدوى، رغم أنه وقع ببساطة شديدة لغيرى من الناس. قلت لا بد إن الخطأ من عندى، فالذين حصلوا على توقيع الوطن آدميون مثلى من لحم ودم وأعصاب، يتحدثون نفس اللغة، ويتنفسون من نفس الهواء.

تفحصت بنود الوثيقة عشرات المرات، فلم أجد بينها شروطاً لا تنطبق على حالتى، رغم ذلك فقد تبين لى بمراجعة وثائق شرعية عديدة أن أصحابها يتمتعون إما بالثروة أو بالسلطة أو بكليهما معاً. حينئذ أيقنت أن هناك تفرقة غير عادلة وأننى غير مسئول – لخطأ محتمل من جانبى – عن فقدانى لشرعية المواطنة، فماذنبى أننى

لست ثريا أو صاحب سلطة؟! .. أنا لا أومن بأننى مسئول عن ذلك أدنى مسئولية سواء فى عالم الملك أو فى عالم الملكوت.

ومع أننى ألتقى فى كل دقيقة من عمرى بالطرف غير الموقع إلا أنه لم يعرنى الانتباه اللازم أبداً. قلت له إننى رجل شريف حُر، جاد مخلص، متفان فى عملى راض بقليلى، لا أدس أنفى فى حياة غيرى، ويسعدنى أن يكون كل المواطنين سعداء. انتظرت منه لمسة حنان أو نظرة عرفان فطال انتظارى ومازلت منتظراً ولكن إلى أجل غير مسمى، فلصبرى حدود.. ولأننى متوحد فى داخلى مع الطرف غير الموقع لشدة عشقى لكل شئ به جميل أو قبيح، فإننى لم أفكر لحظة فى إيلامه أو إغضابه، وإنما ازددت توددا إليه وعطاء له ورغبة فى الفناء فيه. منحته ابنى الشاب فالتهمه فى حرب قذرة دفاعا عن وطن آخر.

خضت معارك شرسة ضد أعدائه من أهل الفساد والذمم الخربة ذوى البأس والنفوذ، انتهت بى إلى مصحة للأمراض النفسية والعصبية، عولجت فيها على نفقتى الخاصة حتى استنزفت كل ما تبقى لى من مدخرات، فانتقلت بأسرتى للمعيشة فى شقة متواضعة بحارة أكثر تواضعاً على دخل لا يكاد يفى بأمان الأسوار الأربعة ولقمة العيش وكسوة العيال.

تتلمذ على يدى مئات من الشباب، فغرست فى أعماقهم قيم الحق والخير والجمال قبل أن أغرس فى عقولهم العلم والمعرفة.

وبعد عمر طويل من التجاهل واللامبالاة من جانب هذا الطرف غير الموقع، دعوته ليتناول معى مشروب الكركديه الأسوانى الجميل.

جلسنا على شاطئ النيل، والنخيل يحيط بنا، والعصافير المصرية تزقزق فى سعادة والناس الطيبون ذوو البشرة السمراء العاشقة يحيطون بنا من كل جانب، وعلى وجهوههم ترتسم ابتسامة قدرية مذهلة، ونسمة الخريف تهفهف من حولنا فى نغم شجى ينساب فى أغوار الزمن، فيتردد صداه بين جنبات معبدنا الفرعونى العظيم. سألته فى مودة بالغة وتحديد قاطع:

- ما هو المطلوب منى على وجه التحديد حتى تقنع بالتوقيع على الوثيقة؟
- وما أهمية توقيعى مادمت تمارس حياتك على أرضى فى حرية؟
- انى أنشد شرعية الانتماء.
- لقد أنهكنى التوقيع لملايين غيرك لكنهم لم يلتزموا بحقوق الشرعية وواجباتها
- وما ذنبى؟
- انت منهم وهم منك.
- لكنك مازلت توقع لغيرى حتى اليوم.
- لأن الحياة مستمرة ولا مفر.
- إنى أشعر بالظلم.
- أمر طبيعى ألا تسود العدالة العالم.
- لقد بذلت لأجلك ما لم يبذله كثيرون غيرى من الحاصلين على توقيعك.
- قل إنه الحظ.
- بل إنه البلاء العظيم.

تأزم الموقف وقام الطرف غير الموقع غاضبا لاحتدادى الشديد. لم يكمل شراب الكركديه.

وأصر على دفع الحساب وانصرف.

عدوت من خلفه أتوسل إليه أن يحدد لى واجبات أخرى أقوم بها لأجله حتى يرضى، لكنه التزم الصمت ثم اختفى عن ناظرى.

****

نشرت بجريدة أخبار الأدب فى 2009/11/8

ترانيم قصصية

****

- **عندما يجف النبع:**

فى ذروة لحظات الانتشاء ونحن نرتشف من نبع الحب قلت لها:

- لو مت قبلى فسوف أقتلك.

نظرت إلى فى دهشة ساخرة، إذ كانت ملامحى تنطق بالجدة وأنا أطلق إنذارى المجنون. لم تستطع أن تنفجر فى الضحك فراحت تمطرنى بقبلاتها فى كفى وفى عينى. ظلت تتفرس فى وجهى طويلاً ثم سألتنى فى شجن.

- وماذا أفعل بك لو مت أنت قبلى؟

- أقتلينى.

وكنت على يقين فى تلك اللحظة من أن الحب والجنون لا يختلفان كثيراً، ولطالما أسقمنى العقل وأعيانى بحكمته وبروده وحياده.. فليرحل عنى ولو إلى غير رجعة ولتبق الحبيبة فى قلبى وفى دمى وخلاياى.

فى دقائق الوداع الأخيرة خيم شبح الفراق على الغرفة الحزينة، وانعكست ظلاله القاتمة البغيضة على وجوه الحاضرين فيما عداى. كان انقباضهم خوفاً منه. أما سكونى فكان إجلالاً للقدر .

أمام الظاهر والباطن والوصل والفصل ومالك الملك والملكوت وقفت أتساءل ماذا بمقدورى أن أفعل غير أن أرضى؟! .. هاهى تستعد أمامى للسفر وأنا مازلت أتمتع بقلب يرتع فى نبضاته دافقا دماءه الوقحة فى أعضائى بغير توقف .. أما حائط الغرفة التى تحوينا فعمره أطول من عمرى وعمرها معاً ، ولست أعرف متى سألحق بها إلى المقر الأخير!

وتختفى من أمامى فلا أستطيع أن أقتلها ... وتعز علىّ الحياة فيستبد بى الموت وأرى الأشياء مضببة، وتكر السنوات السعيدة أمام عينى كومضة من البرق، ويتحول الكون إلى لغز سرمدى قد انبعث كشبح من الماضى يحيل الحاضر إلى مرتع للرعب، وأما المستقبل فلم يرد على بال، وإنما هى لحظات من الشجن المقدس، والخوف ، والرجاء .. والأمل.

****

- **العسل المحروق**

فى إغراء فقد نكهته وزمنه، كشفت له عن فتنة فاق عمرها الخمسين عاما، حين خرّ على ركبة ساقه السليمة يقبل قدميها ضارعاً متوسلا .. قالت فى حسم:

- دع خطيبتك وتزوجنى.

قهرتــه دموعــه فانجـذب إلــى لهيــب العشــق الحــارق، منتشــيا باشــتعال ســنواته العشرين قرباناً لمعبد الحرمان العتيد.

غـادر نـواح أمـه مشـيعاً ببصـقة فـى الوجـه مـن خطيبتـه، لينتقـل إلـى منـزل الأرملـة بعقـد رسـمى. منحتـه قطـرات مـن عسـلها المحتـرق فـأنفق عليهـا وعلـى بناتهـا الـثلاث كـل ما أوتى من رزق محدود.

كلمـا اسـتزاد مـن العسـل لـم ينـل سـوى قطـرات مرهونـة بالمزيـد مـن الإنفـاق علـى تجديـد أثـاث البيـت العتيـق، وشـراء الملابـس والأجهـزة، والخـروج فـى نزهـات خلويـة وتناول الغداء فى المطاعم التى لم يفكر يوماً فى ارتيادها من قبل.

اسـتدان حتـى يلعـق المزيـد. لـم تـر عينـاه سـخرية القـوم مـن فاجعتـه. كـان يـرى أشـياء أخـرى لا يبصـرها ولا يـدرك مغزاهـا سـواه. تكـاثرت عليـه الـديون فلجـأ إلـى الاحتيـال فالسرقة، ولم يبق أمامه إلا الفرار قبل أن يفتضح أمره فيلقى سوء العقاب.

راقبـوا منـزل الأرملـة شـهوراً طـوال، ولكنـه لـم يظهـر. صـبوا عليهـا غضـبهم ووعيدهم وراحوا يبحثون عنه فى كل مكان دون جدوى.

بحكـم قضـائى حصـلت الأرملـة علـى الطـلاق وباعـت الشـقة بمحتوياتهـا ثـم غادرت المدينة سراً بصحبة بناتها لتقيم فى مدينة أخرى.

ويومـا لفـظ بـه جحـيم الوجـد إلـى ينبـوع العسـل، مضـحياً بحياتـه متجـاهلاً عواقـب ظهوره .. لكنه وجد أغراباً بالمنزل.

هرول بساق تجر الأخرى مسرعاً إلى الشارع يعوى غير عابئ بمطارديه:

- أين أنت يا أم أزهار؟!

****

●لذة الداء

كلمـا لمحتـه جالسـاً القرفصـاء كتمثـال فـى حديقـة المسـجد، اسـتبد بـى ذلـك الـداء الخبيـث الـذى لا يفـارقنى فتمنيـت أن أكلـم هـذا الإنسـان أو أن أعـرف عنـه شـيئاً أداوى بـه شغفى المريض.

يجلـس صـامتاً كهـرم صـغير. وجهـه وجـه كـاهن كبيـر فـى معبـد أسـرار المعرفـة المقدسـة. عينـاه تبصـران فـى عسـر شـديد، أمـا نظراتـه ففـى أعماقهـا لا تنتهـى حـدود الإدراك لكنه الحياة.

هكـذا تصـورته حتـى تحققـت أمنيتـى يومـاً أن أقـتحم أسـواره بـلا مبـرر سـوى خضـوعى القهـرى للـذة الـداء.علمت انـه كـان تـاجراً ميسـوراً عُـرف بالإحسـان والكـرم. فـى غفلـة مـن الـزمن اختفـت زوجتـه ولـم تعـد، دون أى بـادرة مـن جانبهـا قـد تنبـئ أو تـوحى بحـدوث مثـل ذلـك الغـدر المباغـت.. وفـى اليـوم ذاتـه جـدت كارثـة غيـر متوقعـة قضـت علـى ثروته تماماً.

يقـول لـى إنـه غيـر عـابى بكـل مـا جـرى لـه، إذ تمـرس علـى التسـليم للقـدر، لكـن مـا يحزنـه حقـاً أن ابنتـه الوحيـدة – قـرة عينـه- التـى كـان يتكـئ عليهـا فـى حياتـه أعـادت سـيرة أمهـا باختفـاء مماثـل ضـاعف مـن حيرتـه وذهولـه وأحـال حياتـه إلـى ظـلام دامـس وقـد سـلم بعجزه عن معرفة السببين.

أخفـى أهـل الحـى عنـه مـا أشـيع عـن مصـرعها تحـت عجـلات القطـار .. وقيـل إنهـا تزوجـت مـن شـاب سـافر بهـا إلـى بـلاد بعيـدة.. وقـال البعض بصـدق شـديد إنهـا جـاءت يومـاً تبحث عنه فلم تعثر عليه حول المسجد.. يردد من حين لآخر فى استسلام أليم:

- ربما جاءت فى نفس اليوم الذى سافرت فيه لأبحث عنها فى البلد!

ويتمـتم دائمـاً أنـه واثـق مـن مجـئ ذلـك اليـوم الـذى سـوف يسـمع فيـه صـوتها الحنون ويتكئ على ذراعها البضّ ولو مرة واحدة قبل أن يلقى ربه.

كلما حاولت إثارة الحديث عن سر اختفاء زوجته يمم وجهه بعيداً عنى فى شرود .. وأتمتم أنا الآخر للمرة المائة:

- ما كان أحرانى بالالتفات إلى حالى وترك أحوال الناس!

****

- **مقتضى الحال**

لا أنكر أننى تمتعت كثيراً بأن ظللت عمرى كله أفكر، كما لا أستطيع أن أنكر أننى لم أستطع التوصل إلى حقيقة ما، والأدهى أننى أصبت من إدمان التفكير بأكثر من عاهة مثل عجزى عن إتخاذ أى قرار، وترددى المعذب بين الخيارات، واعتقادى الجازم بأننى أفتقد الذكاء.

دقت ساعة الدهر صفراً فدبت الحياة فى خلايا مخى الهلامية من جديد، ورحت أتذكر رفاق الرحلة الطويلة المرهقة، وكيف كانت علاقاتنا حميمية تتحدى الزمن. تبين لى أن كلا منهم قد مضى إلى حال سبيله فى المكان والزمان .

تساءلت كيف أستطيع مواصلة الحياة بعد أن كتبت لى من جديد. كنت على وشك الاختفاء النهائى من سجل الأحياء التائهين فى لمحة كالبرق ودون مسئولية من جانبى، لكنه القضاء القدرى المحكم ولا شئ سواه.

سبحت فى سحب الهموم اليومية المملة وأنهار الخوف من بطش الأيام القادمة، وبحور اليأس من قدرتى على الوفاء بالتزاماتى الجبرية تجاه البشر، حتى أننى تساءلت من جديد عن المعنى الجوهرى لحياتى التى لا تريد السير على هواى، لكنى لم أعثر على إجابة.

تجاوزتنى العربة وقد انطرحت أرضا بينما اصطدمت هى بالحائط بعد أن اقتحمت الرصيف الذى كنت أسير فى أمان عليه.

أصيب السائق المتهور بإصابات بالغة، وتجمع الخلق للفرجة والكلام والتطفل. تقبلت تهنئتهم بالنجاة، وكنت أتعجب لذلك فهم أولى منى بالتهنئة على حياة يمارسونها بعزم ودون تردد، فيالهم من شجعان حتى لو كانوا جديرين بالرثاء بدلاً من التهنئة، أما أنا فقد عاودت التفكير فى التخاذل والمقاومة والعقل والقلب والصلاة والصيام والرقص والغناء والنوم والبكاء والذل والسطوة، حتى أصبحت من ذوى العاهات رغم أننى أفلتُّ من الموت بأعجوبة وقدر لى أن أعاود مواصلة الحياة.

****

- **هجرة أم رشاد:**

كانت تسحبنى من يسراى بيدها الحانية الدافئة وخطواتها المسرعة القلقة، وتحثنى تلقائياً على ضرورة ملاحقتها. الشعور بحماية الأم يحيطنى بطمأنينته ودفئه فلا أرى العالم إلا من خلال عينيها.

- إلى أين نذهب يا أمى؟

- إلى تيزه أم رشاد

- لماذا؟

أحبها حتى حين تتجاهل ذكائى لتتهرب من السؤال. ارتباطى الشديد بها يؤكد لى أنها ستصنع منى شيئاً هاماً.

- أسرع حتى لا نتأخر عليها فلا نجدها فى انتظارنا

لم أكن أعرف لماذا تصحبنى إلى هذه السيدة الثرية الغامضة أكثر من مرة كل عام، قرب دخول المدارس وقبل حلول الأعياد وفى مناسبات أخرى أجهلها.

تفتح لنا باب الفيلا خادمة أنيقة كنت أحسبها شقيقة أم رشاد أو ابنتها .. بعد أن نجتاز الحيقة الجميلة تصحبنا إلى صالة كبيرة يطل شباكها العريض على صفحة الماء الزرقاء بالميناء الشرقى. أسارع إلى الشباك. ألتصق بزجاجه لأتفرج على

أسراب النورس وهى تحط فى جماعات متعاقبة على رصيف الميناء وصوارى مراكب الصيد العتيقة. تنظر لى أمى نظرة صارمة دون أن تنطق بكلمة واحدة فأفهم مغزاها المحدد على الفور وهو:

-أجلس بأدبك حتى لا تغضب منك تيزه.

معظم الحوارات بينى وبين أمى تدور بالعيون. دربتنى بمهارة على أن أقرأ ما بعينيها دون أن تفصح عنه، فتعلمت كيف أرى فى الكون معانى الحب والعطف والرحمة.

دقائق وتعود الخادمة حاملة صينية ملونة عليها فنجان من القهوة وكوبان من عصير الفاكهة أرمقه بعينين قريرتين، لكنى لا أجرؤ على الاقتراب منه قبل أن أتلقى نظرة السماح التى أعرفها من عينى أمى، والتى لا توجهها إلى أبداً قبل وصول تيزه أم رشاد.

تهل علينا بخطوات هادئة ووجه سمح عاش ما يقرب من خمسين عاماً فى هناء ورفاهية.لكنى ألمح بفطرة ابن العاشرة حزنا دفينا قابعاً تحت العينين الزرقاوتين المزدانتين بنظارة أنيقة.

تأخذ أمى فى حضنها بمودة عميقة فيرتج لحمها الوفير وتبدو لى كطائر أبيض كبير يحتضن فرخه الصغير فى حنو غريزى .. وتثير ملابس حداد أمى تعجبى، فكيف يأتى وليد أسود من أم بيضاء ناصعة، ولكنى أذكر قول أبى الراحل وهو يردد دائماً:

- سبحانه قادر على كل شئ.

وفى كل مرة كانتا تتبادلان القبلات الضاحكة وعبارات الألفة الشديدة بلا كلفة، وكأنهما عاشتا العمر كله معاً. ثم تقبلنى وتغمرنى بالشكولاته والعملات الفضية اللامعة وتربت على ظهرى، ثم تأمر الخادمة بفتح الشباك لأستمتع بالفرجة على شباك الصيد والفلايك وأشم رائحة الأسماك الآتية من حلقة البيع القريبة.

أما اليوم فالأمر جد مختلف، فلقد لمحت من مجلسى بالشرفة دموع تيزه أم رشاد تنهال على خديها المتوردين فتخلع النظارة وتمسح عدستيها بمنديل جميل مطرز .. والذى أدهشنى حقا أن أمى كانت تبكى معها ثم تقول بصدق أخناتونى:

- إن شاء الله ربنا يطمئنك عليه ويفك كربتك.

وكانت آخر زيارة لتيزه ام رشاد. الحزن يعتصر كيان أمى ونحن فى الطريق إليها دون أن تنطق بكلمة واحدة.

فى الصالة طال انتظارنا. جاءت أم رشاد متشحة بالسواد كأمى تماماً. طال عناقهما الباكى الأليم فانفجرت معهما فى البكاء.

اصطحبتنى الخادمة إلى الشرفة فرفضت الدخول والفرجة على البحر بإصرار شديد. توحدت بالحزن قبل أن أعرفه المعرفة الحقة. لم أقو على مد يدى لتناول كوب العصير حين سمعت أمى تقول لها:

- ربنا يصبرك على ما بلاك.

* * * *

فى جلسة هامسة بين أمى وشقيقتى الكبرى اختلست مجلسا قريباً منهما، مدفوعاً بحب استطلاع رهيب، حين كان الحديث عن تيزه أم رشاد. قالت أمى بنبرة تنسكب هماً:

- أم رشاد هاجرت من مصر صبيحة إعدام رشاد.

تساءلت شقيقتى فى جزع:

- ماذا سنفعل الآن؟

أجابت أمى فى طمانينة هادئة:

- ربنا كريم

- **فوجئت بشقيقتى تسألها فى ضيق ودهشة:**
- **إنـى أتعجـب مـا الـذى يـدفع شـابا غنيـا متعلمـا وسـيما مثـل رشـاد إلـى أن يخـون بلده؟!**

****

بعـد مـا يقـرب مـن ثلـث قـرن مـن الزمـان تصـادف مـرورى بالعربـة أمـام الفـيلا. توقفت قليلاً أسبح فى عالم الملكوت.

كـان ولـدى الصـغير بصـحبتى. لفـت نظـره أننـى أحملـق شـارداً فـى المبنـى المتهالـك والحديقة الجرداء بنظرات مكتسية بالوجد والأسى فقال لى ببراءة:

- **لماذا تنظر باهتمام إلى هذه الفيلا المهجورة؟**

قلت له فى شجن عميق:

- **تعـال بنـا إلـى مسـجد أبـى العبـاس لنصـلى معـاً ركعتـين علـى روح جـدتك العظيمة.**

*** * * ***

نشرت بجريدة الاهرام فى 2003/1/10

الأحمـــال

****

خـرج مـن منزلـه بنيـة التوجـه إلـى العمـل ككـل يـوم منـذ أكثـر مـن ثلاثـين عامـاً. ركـب عربـة الشـركة وبيـده جريـدة الصـباح. تـذكر الله بحرقـة وهـو يتصـفح أنبـاء الهـزائم والإنكسـارات العربيـة والإسـلامية فـى كـل مكـان. كـل يـوم تنتقـل هـذه المشـاعر وكـل سـاعة مـن مواقـع أحـداثها عبـر آلاف الأميـال لتسـتقر فـى قلبـه كطعنـات قاتلـة لكنـه لا يمـوت، وإنمـا يكتفـى بـاجترار إحباطـه وانكسـاره الـداخلى وانطوائـه علـى آلامـه واهتـزاز ثقتـه بنفسه اهتزازا عنيفا.

مـا أن خرجـت العربـة إلـى طريـق الكـورنيش حتـى طـوى الصـحيفة وراح يتأمـل النـورس وهـو يـداعب أمـواج البحـر المتوسـط. كـان الجـو غائمـاً أشـبه بجـو أوروبـا ممـا جعل بياض أجنحة النورس أكثر نصاعة وزبد الموج أكثر فتنة وحيوية.

علـى أحـد المقاعـد المواجهـة للبحـر جلـس فتـى وفتـاة يتهامسـان. يضـحكان فـى عفويـة دون ارتبـاط بالعـالم. وقفـزت سـمكة متوسـطة الحجـم مـن الميـاه علـى شـكل قديفـة فـى مـدار مقـوس لتعـود مـرة أخـرى إلـى المـاء حرصـاً علـى حياتهـا بعـد أن ألقـت بنظـرة خاطفة على الأرض.

علـى الرصـيف سـار عجـوز فـى خطـوة رياضـية مرتـدياً زيـا ناصـع البيـاض، وحـين لمـح طفـلاً تصـحبه أمـه بيـدها يلتفـت مـن ورائهـا ليرقبـه فـى دهشـة تلقائيـة، لـوح لـه بيـده وابتسـم، فمـا معنـى أن أذهـب اليـوم إلـى نفـس المكـان لأمـارس نفـس العمـل وألتقـى بـنفس النـاس والانكسـارات تكـاد تعتصـرنى حتـى النخـاع. طلبـت مـن السـائق إيقـاف العربـة ونزلت. سألنى فى دهشة:

- **أأنتظرك؟**
- **لا**
- **هل حدث شئ؟**
- **لا . لم يحدث شيئاً على الإطلاق ولكنى لن أذهب اليوم إلى العمل.**
- **لقد قطعنا أكثر من نصف الطريق إلى الشركة فما السبب؟**
- **السبب لا أعرفه .. مع السلامة.**

اسـتمتعت بتسـاقط رذاذ المـوج المصـطدم بـالحواجز الصـخرية علـى وجهـى تحـت رصـيف الكـورنيش وشـعرت أن الأكسـجين النقـى العبـق برائحـة اليـود يمـلأ رئتـى، ورغـم ذلـك أشعلت سيجارة لأستمتع بأن أوذى نفسى.

انتقلـت إلـى الرصـيف المواجـه. اشـتريت مـن أحـد المحـلات الصـغيرة بـاكو شيكولاته صغير وضعته فى جيبى وتحدثت إليها بالتليفون:

- **إنزلى فوراً .. يجب أن أتكلم معك.**
- **.....**

- **ستجدیننی جالسا علی رصیف الکورنیش أمام محل "الصفوة"**
- **.....**
- **نعم أعرف أن الوقت مبکر جداً ولکن لا مفر.**

عدت إلی الحاجز الصخری فی انتظارها، أقضم قطعة الشیکولاتة وأستحلب حلاوتها. خیل إلی أننی فی حالة صفاء جعلتنی أکثر قرباً من وحدانیة الله وأکثر بعداً عن خلائقه،وکذلك عن ضرب العراق والقبض علی أوجلان وتبرئة کلینتون وبیع شرکتنا إلی مستثمر رئیسی یمتلك الملایین.

إحساسی بفقدانی للملکیة الجماعیة للشرکة ظل ملاصقا لإحساسی بفقدانی لسلامی الداخلی. ما الذی یجعلنی أخشی المستقبل وهو غیب فی علم الله. هل یعجب صاحب العمل الجدید بکفاءتی فیبقینی فی العمل لأعاود حمل الصخرة کل یوم حتی تسقط منی فأعیدها إلی موضعها الذی یحدده بمعرفته؟.. هل ینفر من طباعی الحادة الجادة فیقرفنی بسوء معاملته حتی أحمل عصای علی کاهلی وأرحل دون الحق فی المطالبة بأیة التزامات مالیة؟

لم أسوّ معاشی المبکر مثلما فعل الکثیرون من أندادی الذین آثروا السلامة قبل قدوم المالك الجدید خشیة الفراغ والاکتئاب والقلق.. هل کنت مخطئاً أم مصیبا أم أنه الحیاد الرمادی الذی اصطبغت به حیاتی منذ تجاوزت الخمسین حتی دعت صدیقاً لأن ینصحنی بالحج إلی بیت الله؟..

قطرات الماء المالح تبلل وجهی وتمتزج ملوحته ببقایا طعم الشیکولاته فأشعر برغبة جارفة فی ألا أفعل أی شئ طیلة البقیة الباقیة من حیاتی. لکن هناك خمسمائة جنیة یجب تسدیدها شهریاً للدروس الخصوصیة لأحد أبنائی وهناك مسئولیات جسام فی العمل حول مواصفات مشروع جدید ألقی به علی کاهلی ، وهناك ثلاثة عشر عاماً أمضیتها مقیدا علی درجة وظیفیة لم أتخطها بسبب انشغال الدرجة الأعلی بموظف أقدم منی لا ذنب له فی ذلك. هناك زوجة أصبحت تضج بأعباء عملها خارج المنزل وداخله. هناك ابنة تستعد للزواج.. هناك ابن شاب لا یکفی دخله لعشرین سنة قادمة أن یدبر لنفسه سکنا للزواج ، وهناك أیضاً ذلك الفتور الذی راح یستولی علی همتی حتی کدت أعتزل الناس.

إننی فی أشد الحاجة لأن أضحك فلماذا تأخرت؟!.. لعلها لن تأتی. ومن الأفضل لی ولها ألا تأتی.. فما الفائدة من أی شئ؟!

****

تخلص من ملابسه عدا ما یستر به نصفه السفلی وقذف بنفسه إلی الماء سابحاً فی وجده وراح یغنی مداعباً الموج الهادئ:

لما انت ناوی تغیب علی طول .. مش کنت آخر مرة تقول

لما انت ناوی

وکانت الضحکات تتخلل مقاطع غناؤه دونما سبب.

****

کتبت فی18 /1999/2ونشرت بجریدة الاهرام فی1999/10/9

السماء والأرض

****

يكذب علىّ الجميع وأصدقهم، لا لغباء متأصل فى طبعى، ولكن لأنى أحب التصديق وأطمئن له، ولأنى تعودت أن أعيش به وعليه، سابحاً فى بحر أحوالى ذاكراً الله كثيراً، فبصحبة الذكر ينكشف وبال الغفلة..

"وأخيراً فهمت يا زهرتى البرية المتوحشة أنك لست الملاك الذى تتوهمين، والذى تودين لو توهمته فيك أيضاً ... أنت كائنة مثلى من لحم ودم وأعصاب. الفرق بينى وبينك أننى اكثر جرأة منك على الصدق .. فأنا لم أنكر أنى أشتهيك أحياناً، رغم نزوعى الجوانى المخلص إلى الطهر والعفاف. لكنك لم تبوحى -ولو همسا- باشتهائك لى فى نفس الأحيان، وإنما أنا الذى لمسته بكل خلية من خلايا جسدك، وأحسست به ناراً فى لمستى ليديك، وتذوقته جمرة ملتهبة على شفتيك، وأبصرته فى انغماض عينيك المسبلتين المرتعشتين، وسمعته انهيارا فى زفيرك المتهدج وشهيقك المتقطع وأنفاسك اللاهثة .. وعرفت فى حسنك بديع صنع خالقك وتداخل شوقى إليك بشوقى إلى الأسمى".

وحين يتبين لى أننى خُدعت وان ما صدقته كان كذبا، فإنى غالباً ما أحسن التصرف المضاد فى مواجهتى للآخرين بعد ذلك، سواء أأخفيت غضبى أم أعلنته فى ثورة جامحة لو تمكن منى شيطانه اللعين..

"رغم ذلك فأنت تضللينني عن عمد وعن غير عمد أيضا بمقولتك المكررة:

- أريد لحبنا جناحين لا قدمين.

وقد افترقنا لاستحالة امتزاج الصدق بالكذب، فأنت تتمتعين بقدرة خارقة على إظهار غير ماتبطنين" ..

رغم أن حياتى مازالت حافلة بمعاشرة الكذابين فى كل مكان، ورغم أنهم أذاقونى ويلات عذبتنى كثيراً، إلا أننى لم أحاول أن أغير من طبعى أو أن أدخل عليه بعضاً من التعديل أوائم به ذلك الانفصام السخيف – عند معظم الناس – بين ما يضمرون وما يقولون أو يفعلون، ذاك أن عاشق الحق يقتل روحه قبل أن يطلبها الأجل، وذاك أن جنتى وبستانى فى صدرى فعلى الدنيا السلام ..

"ولقد عجزتُ عن الاكتفاء بالأجنحة فأعلنت لك عجزى، ولأنك عقل بلا قلب فقد رفضت عجزى المعلن، وأفصحت عن قدرة كاذبة على الطيران، منكرة وقوفك معى على الأرض .. والحب فى جوهره أرض وسماء .. وما حبى لك إلا قربانا إلى الله أسأله به حسن الختام".

حين عرفتها قلت إنه لو كذب علىّ العالم بأسره وصدقت هى وحدها، لكنت مصيبا فى منهجى الذى لم يتغير تجاه الناس والحياة، ولازدادت سعادتى به، وازداد اقتناعى بقبول عواقبه. لكن غيبوبتى طالت فى السماء قبل أن أفيق على الحقيقة الصارخة التى جعلت الباطن يهدم ما بنيته فى الظاهر ..

" ولأنى قلب قادر على استيعاب جمود العقل وبرودته القاتلة، فإنى لم أستطع التواصل معك، أو أنك لم تستطيعى التواصل معى. سيان. أما الغريب فهو أننا لسنا صنوان ولا بأس فى ذلك، لكننا بنفس القدر لسنا نقيضين .. ولطالما بذلت لى شفتيك أعب من رحيقهما المسكر دون أن تتوقفى بعقلك كثيراً أمام الأجنحة أو الأقدام. كنت تنتفضين فى حضنى كبلبل تعرض لصهد حارق وقد غبت عن وعيك بالأرض والسماء معاً.. وكنت تهيمين فى أنغام كلماتى الحلوة بأذنين غارقتين فى نعيم اللحن الذى أشدو به إليك، والذى مازلتِ تحتاجين بكل مهجتك إلى مواصلة الاستماع إليه"..

أما الحقيقة الصارخة التى هدم فيها الباطن الظاهر فلن أعلنها الآن.

قلت لها:

- إنه لا خير فى أى شئ بهذا الوجود من دون حبك.

وكنت واثقا من صدقى، فالصادق واثق دائماً، والواثق دائماً صادق. لكنى لم أكن أدرى أن الدنيا نفْى لا توفى لحبيب، فما أجدر بى اليوم أن أنفيك عن نفسى حتى تنفك عنى قيودك.

قالت لى:

- أحبك يا مجنون.

ولست أدرى حتى الآن ما كنه هذا الجنون فى عرفها غير سعادة استكثرت على نفسها أن تصدقها .. ليتها تعرف أن العشق انفصال عن الذات وارتماء فى الآخر .. انه الدعوة الملكوتية للتنعم بالجمال المطلق.

قلت لها:

- إن حبك قد غمر روحى بنفحة نورانية من الجلال والرحمة.

وما زلت دائم التذكر بأننى ومحبوبتى زائلان ، وأن طول انتظارنا للزوال بحاجة إلى ذكر ووجد ورقص وأسفار!

قالت لى:

- أنت كارثتى

وكأن الحب حين داهم حياتها المقفرة فى غفلة من الزمن قد جعل عالى كبريائها سافله ..

"لماذا لا تسفرين عن مكنونك يا شمس الحسن الغاربة. أطلعينى على داخلك فإنى تواق إلى الفل والياسمين وخرير المياه وزقزقة العصافير".

قلت لها:

- حين تغيبين عنى ينتابنى خوف عظيم من الدنيا والناس والمجهول.

وأنا مازلت خائفاً من كل شئ، رغم أن الصادق لا يخاف شيئاً قدر خوفه من الخوف نفسه.. وكانت الثمرة يانعة أمامى ، وكانت قشرتها شديدة الرقة تتشقق من فيض العطاء المحبوس، فتسيل دموعى لحرقة النداء ولا أقرب منها.

قالت لى:

- الحب عندى قرب بيننا، لا فناء لأحدنا فى الآخر.

وفكرت بعمق فى قولها إذ أعجبنى كثيراً لكنى رفضته فأنا أعشق التوحد بالمحبوب.

وقالت لى:

- لن أتنازل عن امتلاك عقلك وقلبك معا فأحدهما لا يكفينى وحده.

غمرتنى الفرحة لروعة مطلبها فتهت بين الفكر والفرحة وتغربت أسرارى وهامت روحى فصارت تئن من روحها وتتشوق فى الوجد إلى برجها النارى، بينما هى تنظر إلى فى كبرياء مستتر من علياء سمائها بعينين تقطران مودة وحناناً.. وندماً!!

وأتلو الرقا وأنفثها فى روحها دون جدوى وكأنى أحب عدماً..

.. وأما الحقيقة فهى أن كل الناس الذين يمشون بقدمين على هذه الأرض كذابوان.

****

كتبت فى1998/4/3 ونشرت بالاهرام فى 1998/7/17

المرتبـــــــــك

****

آخيته فى الله فعوضنى كثيرا عن أخى الغائب الحاضر الذى أفقده الثراء بصيرته. سحنا فى الأرض كثيرا ، إذ كانت تجارته واسعة مباركة ، وكانت رفقتنا معا متعة وجدانية ونعمة لاتقدر عند أحدنا بثمن. زرنا اولياء الله فى كل مكان..حتى قبر الرسول زرته على نفقته. أنزلنى معه فى أفخم الفنادق وذقت بصحبته أطايب الطعام والشراب.كان كريما بطبعه ، لكن كرمه معى كان فوق الوصف.

أحبه أولادى كثيرا مثلما أحبهم ، وأغدق عليهم من عطاياه بسخاء لم يعرفوه من قبل. استحوذ بمحبته الفائقة على ما أتيح لى من محبة لسائر الأصدقاء، فصار جزءا لايتجزأ من حياتى اليومية.

مع طول المعاشرة أسمعنى عن حياته الأعاجيب، فلم أكن أتصور يوما أن هذا الصوفى الزاهد الذى ينفق ما يزيد عن نصف أرباحه التجارية فى سبيل الله ، كان فيما مضى زنديقا عتيدا يشار اليه فى عالم الليل بالبنان، ويتهافت على صحبته الماجنة علية القوم من رجال ونساء ، لينفق عليهم فى سهراته المعربدة آلاف الجنيهات بلا حساب.

كنا قد تعارفنا منذ سبع سنوات بمحض صدفة من خلال صديق مشترك. خيل الى يومها أن نظراته لى قد قرأت فى عينى كل ما مضى من تاريخى من صفحات ملئت أسطرها بكلمات لاتجدى ولاتدل على شىء على الاطلاق. مجمل القول أنه أدرك – أو هكذا ظننت – أننى انسان تائه تماما ، وأن رحلة حياتى عبر خمسين عاما من الزمان قد أسفرت عن حيرة شديدة وتذبذب أشد بين نقائض متعددة ، وتعاكس قوى بين الفعل والارادة.

انتشلنى بحنكة من عالم الحيرة الى عالم المطلق، وكان اصراره على ملاحقتى عنيدا ، فلم أستطع الافلات من سحر صداقته المجردة من شبهة المنفعة، والمحلقة بأنوارها فى عالم الملكوت.

حينئذ تأكد لى اننى لم أكن تائها كما كنت أتصور ، وإنما كنت مرتبكا أمام حصيلتى الصفرية من دنيا العمل والحب والأسرة والمال والأخوة والمعرفة والفن والأسفار والأدب والصداقة وتبوأ المناصب ، بحيث كاد الشك يلتهمنى فى جدوى الحياة بكل ما أعطته لى وما سلبته منى ، وبكل ما ماج بها من أحزان ومباهج وغرائب وأسرار..وقال لى يوما:

- لماذا لاتكتب قصة حياتى لعلها تكون عبرة لمن يبغى الاعتبار؟

- ألن تخجل عن الكشف عن جانبك المظلم القديم ؟
- ولم أخجل وقد غمرنى الله بنوره وكرمه؟..أكتب كما يحلو لك ، ودون تحفظ أو حرج
- يمكننى أن أغير اسمك فتحل المشكلة
- بل انى أريده كما هو بغير تبديل

وكتبت قصة صديقى الحميم وأخى فى الله"عبد الهادى خليل" بكل ما استطعت من اتقان. قال لى بعد أن انتهى من قراءتها:

- لقد نفذت الى أعماق قلبى وسريرتى الى درجة خطيرة
- ولكن بحب
- نعم ، وإن بها لعبرة لكل ضال ينشد التوبة
- هل أقدمها لناشر؟
- بل سأصدرها على نفقتى وأوزعها لوجه الله

****

لم تكن زيجته الأولى موفقة لاستحالة توافق طباعه المتشددة فى كل شىء مع طباع زوجته التى رفضت الذوبان فى طبعه وطبيعته.

ظل عازفا عن الزواج فيما يقرب من ربع قرن ، حتى اقترب من الخمسين. كنت أرى فى نظرته للمرأة نظرة رجعية، وإن كان يبررها أحيانا فى يقين من منطلقات تقول بأنها ناقصة عقل ودين، وأحيانا أخرى من منطلق تجاربه القديمة العابثة التى أورثته الشك فى المرأة..ويوما قال لى :

- آن الأوان كى أعمل بنصيحتك وأكمل نصف دينى
- مبارك بإذن الله
- ستكون أول مخلوق يراها من قبل أن أقدمها أسرتى

حين التقينا على مائدة عشاء بأحد المطاعم الفاخرة ، كان مبتهجا فوق العادة. قال لها فى سعادة غامرة وهو يهديها الكتاب:

- يمكنك أن تتعرفى على تماما من هذه الرواية ، فمهما حاولت أن أعرفك بنفسى لن أستطيع بقدر ما استطاع صديقى أن يعرفنى

أجابته فى فرحة طاغية:

- وأنا لن أنام الليلة قبل الانتهاء من قراءتها

كان قد طلب من المطبعة نسخا ثلاث قبل الانتهاء من تغليف الآلاف الخمسة المتفق عليها. احتفظ لنفسه بنسخة وأعطانى نسخة ، ثم طلب منى أن اكتب اهداء على النسخة الثالثة لزوجة المستقبل.

****

فى صباح اليوم التالى دق جرس التليفون بمنزلى. قال لى صاحب المطبعة:

- انى لم أر انسانا فى غرابة صاحبك
- لماذا ؟
- لقد جاءنى منذ قليل ودفع لى بقية المبلغ المتفق عليه قبل موعده
- وما وجه الغرابة فى ذلك؟
- انه حذرنى بشدة من تسرب نسخة واحدة من الرواية لأى مخلوق ، وذلك لحين استلامها بمعرفته وحده
- أفصح أكثر
- لقد حددك بالإسم

انتابنى ذهول عظيم فسألته:

- وماذا ينوى أن يفعل بالنسخ؟
- قال انه سوف يعدمها

اتصلت به على الفور. وعدنى بلقاء عاجل..لكنه اختفى من حياتى فجأة ، مثلما ظهر فيها... وعاودنى الارتباك ، لكنى كنت واثقا أن بقاءه صائر – ككل الأشياء – الى زوال.

****

نشرت بجريدة أخبار اليوم فى 2002/4/13

الموت مرتان

****

أعطاها قلبه وصُلبه وعاش بها مع نفسه وهم السعادة الحالم ما قدر له أن يعيش من سنوات، وحين شاء الدهر أن تنتهى الأوهام وتولى الأحلام سألها الرفق بأمه المريضة وكانت خطاها تقترب من القبر.

امتعضت وثارت واعترضت، ثم بهدوء أقوى من الموت قالت له أمام أبنائها منه:

- إذهب إليها وقتما تشاء ولكن حين تعود الينا فلتكن وحدك

عاد من الطبيب حاملاً فى يديه لأول مرة أدوية القلب، وفى أذنيه نصيحة حاسمة بألايفارق الدواء فى كل زمان ومكان ... ثم مات.

****

أما الأخرى فسلمها روحه وعقله وعاش معها فى الوهم الجميل نفسه عسى أن يبعث من جديد، فلم تمض سنوات قلائل حتى أصابه نزف وجدانى عميق لا حيلة له فيه، ولا قبل له به فى خريف عمره وسنوات نضجه.

ولما لجأ إليها قالت له بنفس نبرات قاتلته الأولى:

- ليس لدى ما أقوله لك وليس عندى ما أقدمه إليك.

وعاد من الطبيب حاملاً تلك العقارات المهدئة التى تعالج الانفصام .. ثم مات.

****

استنكر فى تمرد جامح أن تنتهى رحلة العمر الواهم الجميل إلى أن يقتل مرتين بلا معنى، وأن يتحايل على حياة عضوية بعقار قلب، وعلى حياة نفسية بعقار تهدئة .. فألقى بالأدوية جميعاً فى صندوق النفايات، وراح يجمع ما تبقى من رحيق روحه المسكوب ليعده قربانا ليوم مجهول.

****

كتبت فى 4/17/ 1996 ونشرت بمجلة الكويت

الشـــريك

****

حـــين تراكمـــت الخســـائر بـــدأت الشـــركة فـــى الانهيـــار، كـــان مـــن الطبيعـــى أن يقاسـمنى شـريكى الخسـارة، ونفـضّ الشـركة ويـذهب كـل إلـى حـال سـبيله. لكنـه تشـبث بـى بسـبب غـامض عارضـاً أن يتحمـل الخسـارة وحـده. ولسـبب أكثـر غموضـاً رفضـت عرضـه وقررت الاحتفاظ لنفسى بملكية الشركة الخاسرة.

احتدم بيننا الجدل وتساءل:

- لماذا لا تنفصل أنت وأشترى نصيبك؟

تعجبـت لمنطقـه المعكـوس والـذى لا يخـالف فـى حقيقتـه منطقـى أنـا الآخـر: شريكان يتشبث كل منهما بتحمل الخسارة سواء بمفرده أو مناصفة مع الآخر.

قلت له وكلانا يغالب دهشته القدرية:

- انفصل أنت وسأدفع لك ما تطلب!

أجاب فى ذهول مطابق لذهولى:

- دعنى أفكر ليومين قبل أن أعطيك إجابتى الحاسمة.

وكـان قـد سـبق ذلـك اللغـز الإنسـانى إعلانـات عديـدة عـن عـرض هـذه الشـركة للبيـع، لكـن أحـداً لـم يتقـدم لشـرائها بسـعر مناسـب، بـل إن مشـترياً جـاءنى ذات مسـاء حـين ظننـت لأول وهلة أنه سيعرض ثمنا معقولاً، لكنى فوجئت به يقول لى بوقار غير مصطنع:

- كم تدفع حتى أقبل تنازلك لى عن هذه الشركة؟!

لـم أنفعـل بغضـب أو دهشـة، وإنمـا رحـت أفكـر بموضـوعية شـديدة البـرودة فـى عرضـه الغريب. بعد قليل سألته بحياد تام:

- أنا البائع وأنت المشترى فبأى منطق أدفع لك؟

أجاب بثقة مطلقة:

- لسـت علـى اسـتعداد للحـوار بـأى منطـق. إمـا أن تقبـل وإمـا أن تـرفض، ومـا بيننا يفتح الله.

أصـابنى ثباتـه اللامتنـاهى بـالتردد، فلعلـه علـى حـق فـى ضـرورة أن أدفـع رغـم جهلـى التـام بالسبب. حسمت الأمر بقولى:

- دعنى أفكر .. أمهلنى يومين قبل أن أعطيك الإجابة.

لم يكن من العقل فى شئ أن أحكى لشريكى قصة هذا المشترى البائع الذى يتحدث بحكمة سليمان. قررت أن أتكتم الأمر، ولكنى كنت أغالب فى نفسى ميلا شديداً لتسليم الشركة بأصولها كاملة لهذا الرجل بعد أن أدفع له ما يريد.

****

جلست فى الموعد المحدد أنتظر الرجلين. فى غمرة شرودى برقت فى ذهنى فكرة قدسية دفعتنى من مكانى إلى عرض الشارع أركض فى لهفة باحثاً عن أقرب مسجد. توضأت بشغف، وأمام القبلة توجهت إلى من لا شريك له. صليت ركعتين استخارة. توسلت لجلالته أن يجعل لى آية حتى أحسم أمر هذه الشركة المحير، وعدت إلى مكتبى تحملنى أجنحة لا أراها وتحف بى هالة من نور.

فى البدء جاءنى الحكيم فصرفته بأدب حين قال لى بإشفاق:

- إنى أرثى لحالك.

ثم جاءنى الشريك فسألته:

- كم تطلب؟

- أما زلت مصراً؟!

- نعم.

أطلق رقما خياليا يفوق ضعف قيمة الشركة حتى يضمن بقائى شريكاً له. أصابه ذعر شديد حين قبلت العرض وأضفت إليه نسبة من عندى!

أصابه وجوم شديد بعد أن وقعت له الشيكات. قبل أن ينصرف سألنى بمشاعر لمحت فيها المودة ممزوجة بالحسد:

- لماذا تفعل هذا نفسك ؟!

كان النور طاغياً وكنت أستمع فى نشوة إلى رفيف الأجنحة وأجبته بفرحة كونية دون أن أراه..

- لقد اهتديت إلى الشريك.

****

نشرت بمجلة العربى فى يوليو 1996

الحـالم السعيد

****

قالت لى وعيناها تصبان الوجد فى عينى:

- أكتب لى ياحبيبى كلاماً عن الحب فإنى أعشق كلماتك .. أقدسها.

فكتبت لها:

- حبك يا حبيبتى فرحة تجتاحنى. تحملنى بجناحيها إلى عالم نورانى شفيف يذوب فيه كيانى بماء المطر ونسمات الربيع وقصف الرعد. أتوحد بالطيور والأسماك والسحب والوديان والجبال والبحار والأنهار، فيسكب قلبى أنوار المحبة على الكون بأسره وتصير الدنيا كلها ضياء فى ضياء.

****

قالت لى والسعادة ترقص على شفتيها الثريتين:

-لا .. لا تكتب، بل قل لى بلسانك الحلو كلاما عن الحب، فإنى متعطشة إليه.

فقلت لها:

- أحبك يا أعذب لحن فى حياتى. أنت الآية التى أدركت بها محبة الله لى .. أنت عندى العطر والندى والفجر العاشق والأنس الجميل .. أنت حريتى فلولا جناحيك يا حبيبتى ما عرفت كيف أطير.

****

قلت لها بعد أن حلقنا طويلاً فى فضاء العفة ومقامات المحبة والرضا:

- ألم يؤن الأوان لنختلى معا بعيدا عن العيون .

قالت متسائلة بصدقها الجميل الذى امتزجت فيه الرقة بالحياء بدهشة طفلة ماكرة:

- وماذا سنفعل بخلوتنا؟

- لا أكثر من تلامس الأيدى وتلاقى العيون وتعانق القلبين وصمت الأطهار.. أقسم بشرفى على ذلك.

- إنى أصدقك ياحبيبى وأتمنى بعمرى تلك الخلوة بل أحلم بها منذ عرفتك.. لكنها المستحيل بعينه

- لماذا؟
- أترضى بهذا لزوجتك مع رجل غيرك؟
- ولكنى لم أتزوج بعد!

****

حل موعد إجازة أسرتى مؤذنا بفراق أليم يدوم أسبوعاً كاملاً. أعطيتها رقم هاتفى بالمصيف. قالت إنها لم تذهب إلى العجمى طيلة حياتها مرة واحدة.كانت مكتئبة حزينة على غير عادتها بسبب مشكلة مزمنة تواجهها فى العمل. قلت لها:

- لابد أن كبرياءك العزيز – الذى أعشقه – وراء استعصاء مشكلتك على الحل
- لعله كذلك بالفعل، فأنا لا أشترى منصب رئيسة الوزراء بخدش فى كرامتى.

قبل أن نفترق قالت لى بنبرات مرتعشة:

- سأهاتفك كثيراً ولكن أرجوك أن تكتب لى كل يوم رسالة فى الوجد والإخلاص
- وكيف أبعث بها إليك؟
- يوم العودة سأستلمها منك وألتهمها دفعة واحدة.

****

قلت لها فى الرسالة الأولى:

إن كان وصلك ليس فيه مطمع والقرب ممنوع فعِدنى وأكذبِ
فعسى التعلل بلقائك ممسك لحياة قلب بالصدود معذّبِ

وحين انتهيت من هذه الرسالة تمنيت بروحى أن أجدها جالسةً بجوارى أداعب أناملها وتربت على شعرى وتشجينى بحديثها الصادق العذب.

****

قلت لها فى رسالتى الثانية:

فى حياتى لم أذكر حبيبة وأنا ساجد لله إلا أنت .. هأنا أفتح أمامك أبواب الحياة من جديد على بساتين الجمال والسحر والنشوة، فهيا ادخلى معى ولا تنظرى إلى الوراء لنحضن معا بروحينا فرحة العمر الجديد.

****

فى اليوم الثالث هاتفتنى بشوق جارف متلهفة لسماع الرسالة الثالثة بأذنيها . قلت لها:

- حين أفتقدك يستبد بى الخوف من الحياة .. أشعر بقلبى موحشا مظلما كئيباً لا يجرؤ على لحظة من الطمأنينة.

قالت بنبرات دامعة انفطر لها قلبى:

- أبقاك الله لى نوراً يضئ بقية عمرى بالمحبة والأمان .. إنى أحبك رغم أنى لا أكاد أصدق أنى جديرة بذلك!

****

فى اليوم الرابع التقيت مصادفة بجارى فى المصيف. لا أعرف أين يعمل ولم أسأله يوماً عن ذلك، لكنى أعلم أنه ذو منصب رفيع. دعانى لتناول الشاى. قال إن أسرته ستغيب عن المصيف أسبوعاً لظروف طارئة.. ثم استرسلنا فى حوار شيق حتى سألنى بحنكة المجرب وهو الذى يكبرنى بما يقرب من عشرة سنوات.

- هل تعتقد أن هناك امرأة على وجه الأرض جديرة بأن يفنى فى حبها رجل؟

على الفور أجبته بثقة ليال سهرتها، وأحلام عشتها ، ورجاء بالوصل يطاردنى الليل والنهار:

- نعم أعتقد فى ذلك.

انفجر الكهل فى ضحك ارتج له كرشه الكبير قائلاً:

-مازالت أخضر العود ياعزيزى .. أنت مسكين حالم

- بل إنى سعيد حالم

- سأثبت لك قريباً أنك مسكين حقاً، فالمرأة لا تحب إلا نفسها، ولهذا فهى لا تقوى على الصدق ولا تحتمله ولو وضعت على رأسها تاج الفضيلة.

وكتبت لها أقول:

- إنى أريدك بمقدار ما تريدينني وترفضين، فلا أملك حينئذ سوى القناعة بطهرك ورفضك أن نضع نفسينا فى مواجهة دموية مع مجتمع لا يرحم المرأة فما بالك وأنت أرملة !

****

فى اليوم الخامس توجهت إلى جارى قابلاً التحدى مطالبا بإثبات مقولته. كان وحيداً كالأمس. قال لى:

- تعمل تحت رئاستى سيدة جميلة شديدة الوقار والكبرياء حسنة السمعة بلا ذرة من شك ، لكنها تكاد تجن حتى تحصل على الترقية.
- وهل الترقية من حقها؟
- نعم
- فلماذا تحرمها منه؟
- لأنى اشتهيها كما لم أشته امرأة فى حياتى.
- وما دخل هذا بذاك؟
- لقد عرضت عليها أن تزورنى هنا بعد غد حيث يكون والدها على سفر
- .....
- ولو صدقت فستكون عندى فى الساعة الثامنة.
- ولم فعلت ذلك؟
- حتى أوافق على ترقيتها.
- وكيف قبلت وهى التى تحمل كل تلك الصفات الملائكية التى أمطرتنى بها؟
- الذى حدث أنها قبلت، وأننى مازلت مصعوقاً .. والحق أنى أتمنى من القلب ألا تجئ .
- وإن جاءت فماذا تفعل؟
- لن ألمسها، بل سأصرفها على الفور.. ولن أرقيها مادمت حيا
- لماذا ؟
- عقابا لها على سقطتها

وسألتنى فى الهاتف:

- ماذا تفعل فى وقتك أيها الأعزب القديم؟!

قلت مازحاً من القلب:

- جارى يسلينى بالحديث عن المراة
- لعله يجلس أمامك مجلس التلميذ من أستاذه مهما كان عمره، مادام الحديث عن المرأة
- أبداً.. إنى أشفق عليه لأنه يعيش فى وهم من الظلام.
- إذن إقرأ علىّ ما كتبته لى اليوم.
- اليوم هجرنى ذلك الجنىّ الجميل الذى يملى على قلبى ما يكتبه قلمى إليك.
- أدع الله ألا يهجرك وإلا متَ.

****

فى اليوم السادس لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى الجلوس على صخرة أصطاد السمك وأتأمل فى ملك الله وملكوته .. لم أكتب لها شيئاً، ولم تكلمنى فى الهاتف .. كنت فى حالة من النشوة والصفاء حسدت نفسى عليها.

****

فى الليلة السابعة وفى تمام الساعة الثامنة تمنيت أن يطفئ الله نور عينى إلى الأبد، حين رأيتها تدخل شاليه جارى. تمشى بكبرياء على قدمين ثابتتين .. على يدها تحمل حقيبة أنيقة .. وعلى وجهها تحمل آيات الصدق والبراءة.

****

نشرت بجريدة الأهرام فى 1997/5/30

رحيـــــــــــــق الروح
عشرة قصص قصيرة جدا

****

1- تكويم الزمن:

جمعت الكراسات والملفات التى دونت فيها مذكراتى وأعمالى الأدبية المنشورة على مدى خمسة عشر عاما مضت. رصصتها فوق بعضها البعض بحرص شديد ، كا لو كانت رقائق من زجاج دقيق هش، وجلست أمامها متكئا بوجهى على كفى.

لم أدر ان كنت قد فقدت الذاكرة أم غاب عنى إحساسى بوجودى ، وكنت مخيرا بين أمرين: إما أن أصرخ باكيا فى انتظار الموت، وإما أن أظل أضحك حتى أستلقى على قفاى..لكنى تذكرت أن قدمى قد مشيتا بى طويلا من قبل على ضفاف النيل وبردى ودجلة والمسيسيبى عبر سنوات مختلفة ، وان خطواتى جميعا مسجلة على صفحات هذه الكراسات فى إصرار لامعنى له.. أما الأحذية التى ارتديتها فى تجوالى بتلك الضفاف فلا أثر لها بالبيت أو بالذاكرة ، إذ ذهبت بما علق بها من تراب مختلفة ألوانه الى حيث لا أدرى.

ثم جمعت أحاديثى وتمثيلياتى المعبأة فى أشرطة التسجيل وكومتها فى حذر شديد لامبرر له بجوار صف الكراسات والملفات السنوية، وعاودت الاتكاء بوجهى على كفى ..

جالت بخاطرى ذكريات حلوة ومرة طالما جمعت بينى وبين رجال هذه المهنة ونسائها ، مترعة بلذة العمل ونشوة الحياة تحت جناحى طائر الفن الجميل.

استبد بى شعور غامض بالخوف من الزمن .. لم أقو على القاء كلماتى المكتوبة والمسموعة فى القمامة كما نويت ، ولكنى تمكنت بعزم شديد من وضع كومتى الزمنية المحنطة فى حقيبة قديمة تحت بقايا مقعد متهالك بركن مترب فى شرفة المنزل القبلية التى لايرتادها أحد من عشيرتى ، ليكون مصيرها النسيان المحتوم.

****

2- الوطـــــن:

صفر اليدين أعود بعد طول غيبة. ذهولى يؤازر حسرتى ، فالزوجة رحلت بأمر الله، والمال لم يعد بذى أهمية لاحتياجاتى المنقرضة من الحياة، أما الولد فتزوج من أجنبية وهاجر الى قارة أخرى. تأملت فيما مضى من حياتى فتضاءلت أهمية ما تبقى

منها . حتى لو كشفت عنى حجب الغيب وعلمت الآتى بتفاصيله زمانا ومكانا ، فلن يعنينى كثيرا.

من غربة أتيت الى غربة متأهبا لغربة. لن يذكرنى أحد ممن قضيت عمرى معهم فى تلك البقاع الباردة ، وحتى ان ذكرنى أحدهم على بعد آلاف الأميال للحظة عابرة – دريت بذلك أم لم أدر – فما جدوى ذلك؟..لن يعرفنى أحد ممن جئت محتميا بأنفاسهم وأزقتهم ومقاهيهم وعشوائية شوارعهم ورحابة قلوبهم وشمسهم الساطعة وحكامهم الذين لا يتغيرون.

الأمر الوحيد الذى أدرك جدواه تمام الادراك هو ضرورة عودتى اليهم ، وليكن بعد ذلك ما يكون. لقد تنبهت الى تلك الضرورة يوم أن تعرضت لواقعة واجهت فيها الموت ، حين أدركت أن تراب وطنى أولى بلحمى، وأن الطريق التى ينبغى على روحى أن تسلكها الى بارئها لابد أن تبدأ من محطة مصر.

****

3- <u>الرجال البيض:</u>

فى غفلة من الزمن انقض علينا بضعة رجال بيض ممن يعملون كأجراء لدى هيئات بيضاء عظمى. قالوا لنا وكان من بينهم من ينتمى الى قبيلتنا:

- لافائدة من الجدل ولا مفر من الطاعة مادمتم مدينين لنا باستمرار حياتكم

لم يكن هناك مبرر للدهشة مما سمعناه من قول.. فأنا ومن معى نعيش على طعامهم وآلاتهم وأموالهم وأسلحتهم ، فانصعنا لهم ، فأمرونا ببيع ممتلكاتنا وطرد أصحابها وخفض قاماتنا وتخفيض قيمتنا ، فانصعنا لهم ، فأمرونا ببيع مؤخراتنا بعد أن تعرت ، ورغم صعوبة التسويق فإننا لم نتردد...

وهكذا..ظلوا يطلبون ونجيب ، ويأمرون فننفذ ، حتى لم يبق لنا الا أرواحنا..وهاهم ينقضون علينا من جديد وقد تهيئنا تماما لإجابة مطلبهم الأخير.

****

4- <u>آخر العمر:</u>

حين التقينا لم يكن قد تبقى من عمرنا الا القليل ، فلم يعد هناك متسع من وقت أو طاقة للتبديد بغير طائل. لم تعد أبداننا قادرة – كما ينبغى أن تكون القدرة – على بذل الحب والارتشاف من رحيقه الساحر حتى الثمالة، وقد اعترانا الانكماش والذبول ، واستسلمنا لجفاف الحكمة وبرودة العقل.

غير أن انطفاء هذا الوهج المجنون لم يفقدنا الأمل ، فارتمينا فى أحضان ذكرياتنا المنصرمة ، ورحنا نرتع فى طفولتها التى ولت رغم يقيننا بأنها لن تعود. قال كل منا للآخر كل الكلمات التى لم يجرؤ على قولها لأقرب الناس فى حياته أو لأبعدهم عنها. أفضت الىّ بأسرار ظلت قابعة فى بئر لاوعيها خمسين عاما أو يزيد ، وهى الحريصة الذكية الواعية. فجرت فى أسماعها شكواى من الأيام والظروف والأحداث الجسام ، وأنا الصموت الكتوم المنطوى.

استمعت اليها بشغف ، واستمعت الىّ بحنان. ضحكنا وبكينا بحماس مثير أعاد لنا الدهشة والانبهار.. صرنا قادرين على الفرحة والغضب والتفكير فيما يمكن أن نفعله غدا..وحين التقت شفاهنا فى سكرة الحياة المنعشة لم يفكر أحدنا فى الموت لحظة واحدة.

****

5- <u>التسرب:</u>

من بين أصابعى تسربت معظم أمنياتى بدءا من الطفولة وحتى يومى هذا. كنت أحلم بأن أعلق بمنزلى – حين أكبر – صورة زفافى وقد ارتديت " البابيون".هاهى الصورة معلقة أمامى - بلا زوجة - فى تحد صارخ ورقبتى محاطة ب "الكرافات"..وكنت أتحرق شوقا الى العمل الديبلوماسى فأقرأ فى صباى عن الشيوعية والرأسمالية وألتهم سير العظماء.. هأنا اليوم أنفق العمر بين الطلمبات

والمـواتير والمحاليـل الصـناعية فـى شـركة قديمـة بمدينـة صـغيرة تبعـد كثيـرا عـن عاصـمتنا المرهقـة بالـديون وازدحـام النـاس والعربـات والعـادم المتسـرب مـن كـل مكـان الى الصدور والأرواح.

بكل الثقة تصورت أن تجمعنى يوما صورة فوتوغرافية بأصدقاء الطفولة من المسلمين واليهود والأقباط أحتفظ بها لأعلم أولادى ما علمتنى اياه أمى أن الأقباط أصلهم يهود وأن المسلمين أصلهم أقباط وأن العداء بينهم جميعا لامبرر له..هاهى الصورة لاتظهر الا ما تسرب الى أمعائهم من شياطين الحقد والفرقة والكراهية..وإلى تلافيف مخى تسربت صورة رمادية باهتة لعالم الانترنيت ومرض الإيدز وأقمار التجسس وآبار النفط المشتعلة والرصاص المصوب الى المصلين بالمسجد.

اندثرت معالم الصورة الوردية التى انطبعت فى ذهنى قديما عن مستقبل العالم الذى تمنيت أن أشب مطمئنا على أرضه، وهأنا اليوم أرقب الشيب يتسرب الى شعر رأسى ومعه – رغم كل ذلك - يتبقى إحساس خفى لايتسرب ، بالعدل والرضا والإيمان بالقدر.

****

6- الوهـــج:

فجأة أبصرت نفسى أقف وحدى عاريا فى قلب الكون. لم يكن من العدل ان ألقى باللوم على الآخرين وأتهمهم بأنهم تركونى ، مثلما لم يكن من العدل أيضا أن أدعى بطولة الاستغناء عنهم باختيارى.. أما الأسباب الحقيقية التى وضعتنى فى هذا الموضع فلست أعرفها ولا أدرك زمانها.

هبطت أمامى من حيث لا أدرى يحف بها عطر حنون. سترتنى بقماش ناعم الملمس زاهى اللون. لم أفكر فى تأمل ملامحها أو فى مجرد سؤالها من هى ولا من أين أتت أو لماذا فعلت بى ما فعلت.

كنت على يقين حسمته التجربة من لاجدوى المزيد من المعرفة ، وإلا ما انتهى بى المطاف الى هذه الحال. قالت لى بنبرات تفيض عطفا وإن لم تؤثر فى ملالتى مثقال ذرة:

- من الأوفق أن تعود
- لمن ولماذا ؟
- عد الىّ وسأعوضك عما فاتك
- لم أعد أسيانا على ما فات ، ولن أستطيع الفرحة بما قد يأتي

ألقيت بقلبى والسترة على وجهها وجريت مسرعا بعيدا عنها. استترت وراء سحابة شفيفة من أنغام خافتة تعزف على مقام سر الأسرار.لمحتها وهى تبحث عنى بفضول العاشق ، حتى وقفت أمامى ولم ترانى ، ولما يئست من العثور علىّ انصرفت ، فتملكنى العجب من دموع حارقة تساقطت من عينىّ..

كنت على يقين آخر- فى وقفتى العارية – من لاجدوى المزيد من الارادة ، فأنا لا أريد شيئا يدفعنى الى الانتقال من حال الى حال آخر..رغم ذلك فقد كانت هناك قوة سرمدية تحثنى فى دأب وحكمة على البحث عن طريق.

وكنت على يقين أخير من أن ذلك الوهج المتألق الذى أستبصره عن بعد بعيد ، سوف يجذبنى اليه..وسوف أعرف وأريد..وسوف أنجذب اليه..وأحترق!!.

****

7- السبيـــل:

قيل لى إما الجحيم وإما النجاة ، فلا بديل عن اختيار فورى حاسم ، ولامهرب من الزمان أو المكان ، فضلا عن انه عند توقيت زمنى مستقبلى مفاجىء سيتوقف العقل عن العمل ويدرك الشلل الارادة وتنتفى علل الاختيار.

قلت: النجـــاة..النجـــاة..

ساقونى الى ساحة إعدام. مقاصل ثلاث متجاورة تتمدد تحت أسلحتها الباترة رقاب ثلاث، تنبض ارتعاشاتها بدفقات رعب انتظار الموت..وجهان مكشوفان ، أما الثالث فمحظور أن أفكر فى رفع قناعه لأعرف من صاحبه أو صاحبته. قيل لى عليك باختيار واحد من بين الثلاثة. زر واحد تضغط عليه وتنتهى المسألة فتصير حرا طليقا ناجيا بالخلاص سعيد الأزل والأبد.. قالت ابنتى الجميلة ذات العشرين ربيعا ودموعها تكوى أرجاء قلبى:

- ان كنت أهون عليك يا أبى فلا بأس.. اقطع رقبتى واخلص
- لاتخافى ياقرة عينى فروحى فداؤك

وقالت من أفنيت عمرى وأبليت جسدى فى عشقها فلم تمن علىّ بنظرة رضا:

- اعتقنى وسوف أذيقك ما عرفته وما لم تعرفه من نعيم المتعة الخالصة

اقتربت من الوجه المقنع. وضعت يدى على رأسه فأصابتنى رعشة ولم ينطق ، كما لو كان مقهورا على ذلك. انحصر الاختيار بين اثنين: روح عذبتنى وروح أجهلها. وقفت طويلا يعتصرنى عذاب التردد. قيل لى:

- أنت حر فى طول الانتظار، ولكن احذر من مجىء التوقيت المفاجىء وإلا ما استطعت أن تتخذ قرارك.

.. ويا أيتها السماوات والأرض والجبال والأنهار والوديان والمحيطات.. انى أستغيث بتسبيحاتك ومناجاتك العلوية المباركة.. لا أسأل العون إنس ولا جان فقد عرفتهم ومللتهم وعزفت عنهم.

ظللت أعواما عديدة أتردد بين المقصلتين حتى تعلمت تسبيح الطير والنمل والجبل ، فخطوت بهدوء الى المقصلة الأخيرة وضغطت على زر الروح المقنعة.. وإذا برأسى تنفصل فى لمح البصر عن تلك الروح .. وأرقص نشوانا بالخلاص.

****

8- <u>الراكض فى البرية</u>:

بقوة جامحة اندفعت فى طريق البحث العلمى وفى نيتى ألا اتوقف حتى الموت.ما أن حصلت على درجة علمية عليا فى تخصصى النادر حتى أصابنى الملل وتوقفت.

بنفس القوة اندفعت فى طريق العمل المهنى مكتسحا فى طريقى كل العقبات حتى حصلت على منصب كبير بعد قتال دموى شرس مع المتنافسين . تعمدت أن أقف عند هذه المحطة غير ساع الى ما يليها من محطات فى رحلة المناصب العليا المرهقة ، كانت كل الظروف تؤكد قدرتى على الوصول اليها.

وبقوة أعتى جموحا انطلقت فى طريق الفن. ألفت العديد من الكتب وأنجزت العديد من الأعمال، حتى حصلت على جائزة رفيعة المستوى فى هذا المجال ، ثم لم أستطع بعد ذلك أن أكتب حرفا واحدا أو أنجز عملا واحدا ، فقد تمكن منى التعب.

احتضنت عودى أبثه حيرتى ووحشتى فأصدر انغاما شجية تقاذفتنى أصداؤها بين أحوال التغير والزوال..منذ سنوات خلت لم يكن هذا العود يفارقنى. كنت لا أتصور للحياة معنى بدونه ، ولكنى أنتزعه الآن من حضنى فى يأس لأضعه بجوارى كأى شىء من الأشياء ، فقد استبد بى الزهق.

وقادنى القلب على جناحيه الحريريين الى رحلة خلتها أروع رحلات عمرى ، فقلت ان الحب تعويض الهى عادل عن كل ما لاقيت فى حياتى من كد وضجر وملالة وعبث.

حين يتوسد رأسى صدرها الحنون ويحيط ذراعى بخصرها الهش ، أغادر الأرض بقهرها وقسوتها وملالتها ، لا إلى السماء حيث العدل والرحمة ، وإنما الى كون آخر يفصل بينهما مثلما يصل.. كون برزخى يستقطر فيه عسل الحب والرضا الى رحيق العشق المتفانى.. وهى تربت بكفها الرقيق الدقيق على رأسى لأذوب فى عبير عطائها

المسكر ، وكأنها تغسلنى فى ينبوع الخلد المتدفق من هذا الصدر العبقرى، لتزيل عن روحى أدران المادة وأثقال الشقاء ، وتمتص ذبذباتى وعذاباتي وقلقى وحيرتى..
أحببتها وتصورت أنها ستكون حسن الختام ، لكنى - رغم ذلك - تعبت وزهقت!..
كانت أعراض التعب قد بدأت تحل علىّ منذ سنوات عديدة تزيد قليلا عن سنوات عمرى الملول ، أى منذ أن عانت نطفتى بشدة حتى تمكنت من التعلق برحم أمى. كانت آلام المخاض رهيبة.. واندفعت مضغوطا الى الفضاء الكونى الغامض وقد ازرق لونى وعلا صياحى تعبيرا عن مخاوفى التى لاحصر لها، فأنا قد نزلت من مكان آمن – رغم معاناتى بداخله - الى مكان مجهول ، فعرفت الخوف.. والخوف أول التعب..والملل آخره !
فى البداية لم أشعر بذلك الخوف فى اندفاعى الى كل ما اندفعت اليه.. أما الآن فقد صار تعبى فوق حدود احتمالى ، فتوقفت عن كل شىء. فضلت أن أستريح وأبتعد، فكانت أولى خطواتى فى طريق القرب.

****

9- نعمة الهواء:
أجبرنى الخوف على المعيشة فى جحر خيل الىّ أنه آمن. لقد اخترته بمعرفة الأقدار فى بقعة نائية تشرف على الصحراء والنهر والحقل والبحر. كنت أصطاد العصافير والأسماك وأزرع الخضروات والفاكهة وأربى الدواجن وأخبز العيش دون أن يتعرض لى أحد فى مكمنى القدرى الرهيب.. غير أننى - من باب الأخذ بالأحوط – كنت أغادر جحرى من حين الى آخر كلما أتت الى مسامعى أصوات بشرية ولو كانت على بعد كبير من موقعى.. أخرج محملا بسيوفى ومدافعى وقد ارتديت درعا فولاذيا سميكا.. أسارع بإطلاق دفعات نيران كثيفة فى الهواء من حولى فى كل الاتجاهات، لإرهاب كل من تسول له نفسه الاقتراب، ثم أعود فى طمأنينة الى جحرى.. أخلع الدرع الثقيل وألقى بالأسلحة أرضا وأنام مستريحا ليتصاعد شخيرى فى السماء.
لكنى صحوت يوما على لدغة حية تمكنت منى فى قلب جحرى الآمن ، فهجرته الى الأبد بعد أن تخلصت من سمومها، وصرت أعيش فى العراء شاكرا الله على نعمة الهواء الطلق دون درع أو سيف أو خوف.

****

10- الإفلاس:
لم أكن لأصدق يوما أن الشعور الحقيقى للانسان المفلس مناقض تماما لكل ما يعتقده الناس عنه، الى أن أفلست من كل شىء وانغمست فى قلب التجربة حتى النخاع.
للمرة الأولى فى حياتى أشعر بالحرية دون حدود. لم يعد هناك أدنى رباط يقيدنى بشىء، فأنا لم أعد راغبا فى العمل أو الطموح أو الحب أو التفكير أو الحركة الهادفة..بعبارة أخرى أكثر ايجازا:
اننى لم أعد أريد شيئا..وتلك روعة الافلاس.

****

نشرت بجريدة الاهرام فى2001/2/28

أرق الخمســــــين

****

قال لى زميلى فى العمل بتلقائية صافية وكأنه يحدث نفسه:

- الحياة لم يعد لها طعم

كانت المرارة تقطر من فمه مترعة بحرقة الصدق ، حتى أننى لم أستطع النوم بسهولة فى تلك الليلة.. وحين خيل الىّ أننى غفوت ، رأيت الأطفال الذين كانوا يلعبون أمام البيت منذ عشرين عاما وقد تزوجوا وأنجب بعضهم ، ورأيت الرجال الذين كنت أناديهم بلقب العم وقد شاخوا ومات بعضهم ، والنساء اللاتى كان عبيرهن يهفهف فى حنايا السلّم، وضحكاتهن تجلجل فى أرجائه وقد شابت شعورهن وتهدلت أثداؤهن وجلودهن ، وصار الأبناء والأحفاد محور أحاديثهن.

التقينا جميعا فى قطار يقوده بهلوان يتوقف به حيثما يحلو له التوقف ، ليعاود السفر بنا الى المكان الذى لايعرفه ولا يعرفه أحد منا. فى محطة يلقون علينا الورود وتطلق النساء الزغاريد ، وفى محطة نسمع صراخا وعويلا ، وفى محطة أخرى يأمرنا بالنزول لنرقص ونغنى ثم يهرول مسرعا الى عجلة القيادة يحثنا على الهرب ، حين تنطلق مدافع وتنفجر قنابل وتدوى ضحكات ماجنة يعقبها نشيج مكتوم ، ويصيح راكب مخمور فى سعادة:

- ما أجمل الحياة

ويخيل الى أننى فى تمام الاستيقاظ حين يطرق بابى زميل دراسة قديم، حاملا معه عقد عمل فى بلاد النفط والدولارات قائلا فى حماس مقزز:

- هذه آخر فرصة فى عمرك

وأصعد الى الطابق الأخير من مبنى مركز البحوث العلمية ، فأنتقى غرفة مهجورة مظلمة أختفى فيها من الخوف ، متمنيا أن أرى شبحا آدميا يخترق الصمت ، حين يظهر عم سالم الساعى العجوز. يبتسم لى فى استسلام كاشفا عن البقية الباقية من زمن أسنانه الصفراء المثرمة متسائلا:

- أعمل لك" شاى" يا أستاذ ؟

وتنبعث آخر فتيات أحلامى من بين الظلمات فآخذها فى حضنى وأربت على شعرها وظهرها وخدها وأقبل عنقها.. تدفن رأسها فى صدرى قائلة فى أمومة جميلة:

- غنّ لعمرك الباقى

بعد حلم القطار كنت متيقظا تماما وفى كامل وعيى لكل أحداث السنين الماضية ، ابتداء من سلم المنزل ، عبورا بالقطار الذى يقوده البهلوان ، وانتهاء بفتاة الأحلام. الكل فى لحظة بدأ وانتهى رغم أنه يبدو مازال كائنا..وسألت زميلى فى العمل:

- لماذا تقول انه لم يعد للحياة طعم؟

أجاب بنبرة لا تخلومن تهكم وهو يحملق فى وجهى :

- اسأل الأرق المطل من عينيك

انهمكنا فى تناول الطعام وكلانا يجتهد قدر طاقته، محاولا استشعار ما انصرم من لذة دون جدوى ، اما النساء فلم ترد على الخاطر.. ويهبط عم سالم من الطابق العلوى حاملا كوب الشاى ومعه أسنانه المحطمة وسنواته اليائسة وابتسامته المسالمة ، فأسأله فى حيرة:

- لماذا تضحك يا عم سالم؟

نظر الى فى بلاهة ولم ينطق.. لكن صوتا رخيما شديد العذوبة غنى فى مسامعى بصوت عم سالم ، وكنت طائرا فى السماوات العلا على جناحى نشوة غامضة ، غافلا عن صديقى الذى يبدو انه كان يثرثر فى عصبية بكلمات مقتضبة عن شعوره بملالة الحياة بعد الخمسين، وقد بدأ يفقد الشعور بلذة الطعام والشراب والجنس ، مثلما بدأ يفقد الاهتمام بمتعة العمل والسفر والقراءة ولقاء الأصدقاء..وكلمات أخرى غاضبة عن بدء تآكل الأعصاب والعضلات والتهاب البروستاتا والقولون، وكلمات غائمة عن الدنيا والآخرة والموت والنار والجنة والملائكة والشياطين والفقر والغنى والحظ والسعادة و...و...و...

نشرت بمجلة حواء فى 2002/9/28

التمثيليـــة

****

كانــت تلــك هــى المــرة الأولــى التــى أكتــب فيهــا عمــلاً دراميــاً للإذاعــة وباللغــة العاميــة. سـبق أن أصـدرتُ العديـد مـن الروايـات والقصـص القصـيرة خـلال ربـع قـرن، فلـم يصــل صــوتى إلــى النــاس، ولــو فــى همــس خافــت. لا شــك أنـــه أمــر يســتحق دراســة مستفيضة، ولكن ليس هذا هو موضوعنا الآن، بل وإلى أجل غير مسمى.

كُتـب الـنص علـى الآلـة الكاتبـة وتـم تصـويره نسـخاً عديـدة بحيـث يتسـلم كـل ممثـل ورقـه كـاملاً. جلسـتُ خلـف المخـرج فـى الاسـتوديو. لاحظـت علـى الفـور أنـه الملـك المتـوج للمكـان بغيـر جـدال، فالكـل طـائع لأمـره بغيـر مناقشـة، والكـل ملتـزم بتقـديم فـروض الـولاء وإظهار مشاعر الود والامتنان له حتى لو كان الباطن غير ذلك.

حـين سـمعت اسـمى يتـردد بـين جنبـات الاسـتوديو بصـوت عظـيم مجسـم، تملكنـى زهـو جميـل، فلـولاى لمـا جلـس المخـرج علـى مقعـده هـذا، ولمـا وجـد هـؤلاء الممثلـون عمـلاً يُظهـرون مـن خلالـه مـواهبهم الفـذة ويتقاضـون عنـه أجـورهم العاليـة التـى تفـوق أجرى كمبتدئ بالإذاعة.

أذهلنـى أن المخـرج يقبـل الممـثلات بـلا حـرج كمـا لـو كـان يمـارس حقـاً مـن حقوقـه المشــروعة، وأنهــن يبادلنـــه القــبلات عــن نفــاق ، ربمــا يســتر النفــور أو الكراهيـــة عنــد البعض ، أو التسليم للأمر الواقع خضوعاً للقمة العيش عند البعض الآخر.

لـم أنبهـر بكثـرة إطـراء الممثلـين والممـثلات علـى عملـى الـدرامى لأننـى أدركـت منـذ البدايـة أن المسـألة كلهـا تمثيـل فـى تمثيـل، وكيـف لا يكـون الأمـر كـذلك والحقيقـة تقـول إن الجميع هنا مشتركون فى تقديم تمثيلية؟! .. قالوا لى:

- منذ عشرين سنة لم أمثل دوراً بهذه العظمة يا أستاذ.
- يـا أسـتاذ حـوارك نـاطق حـى يكـاد يسـتغنى عمـن يقـوم بتمثيلـه .. إنـه نفسـه يمثل!
- بـلا مجاملـة يـا أسـتاذ. رغـم حداثـة عهـدك بالكتابـة الإذاعيـة فإنـك تفوقـت بجدارة على كتاب الإذاعة المحترفين

وببســاطة شـديدة قالـت لـى إحـداهن بعـد أن جلسـت ملاصـقة لـى علـى مقعـد مـن مقاعـد الاستراحة:

- تعال جانبى يا عسل. كلامك حلو. تستاهل عليه بوسه!

ذهلت لرفع الكلفة بيننا دون تمهيد مسبق فأنا لا أعرف حتى اسمها الحقيقى، وإنما أعرف أنها سلوى فى تمثيليتى والسلام، مثلما أعرف أسماء الممثلين الآخرين بأسماء الشخصيات التى يؤدونها فحسب، ذلك أنه لم يكن لدى مبرر كى أزحم ذاكرتى بإسمين لكل شخصية.

بدون مناسبة همس المخرج فى أذنى قائلاً بحنكة:

- لا تصدق الممثلين، فهم يقولون الكلام نفسه لكل مؤلف.

لكن ملاحظته لم تهز ثقتى فيما أكتب واعتزازى به مثقال ذرة.

لفتت نظرى سيدة عجوز تجلس بجوار فتاة صغيرة فى ركن بعيد من أركان الاستراحة. كان عليها أن تنتظر عدة ساعات حتى يجئ دورها فى تسجيل الحلقات. ظننت أنها اصطحبت ابنتها أو حفيدتها معها لمجرد المؤانسة. نسيت أن هناك دوراً لطفة، وأننى مؤلف هذا الدور وحكايته.

يتجمع الممثلون والممثلات الذين لا دور لهم فى إحدى الحلقات فى قاعة الاستراحة. يتحدثون عن خزانة الإذاعة الخاوية، وعن اضطرارهم إلى الحضور عدة مرات لاستلام أجورهم والعودة بخفى حنين. يلعنون ظاهرة المركزية القاهرية فى كل شئ. يتبادلون النكات السياسية والجنسية الفاضحة بغير خجل من وجود سيدة أو فتاة. معظمهم يدخن بشراهة غير عادية، يلقون بأعقاب السجائر على الأرض بلابمالاة.

انتابنى حزن شديد حين لا حظت أن الممثلين يلقون بأوراقى على أرض الاستوديو بمجرد الانتهاء من تمثيلها، فيكنسها الساعى بمقشته مع أعقاب السجائر والأتربة وسائر النفايات. كل شئ يحدث هنا ببساطة وتلقائية.. النص الأصلى يُرسل إلى إدارة العقود حتى يمكن اعتماد الأجر بناء عدد الساعات المذاعة، ليتحول فى النهاية إلى مستند رسمى بإدارة الميزانية أيا كان الفكر الذى يحويه هذا النص. النص المصور لا يعنى الممثل فى شئ بعد أدائه، فلماذا يحتفظ به وهو يستعد لأداء دور آخر فى نص آخر فى اليوم التالى أو ربما فى اليوم نفسه؟!.. الإذاعة تبث النص فى الهواء للمستمعين فيستمعون إليه ثم ينسونه بعد قليل. حتى إذا أراد أحدهم أن يعود بذاكرته إلى مسمع معين لم يستطع، ما لم يكن قد سجل النص بمعرفته. قال لى المخرج:

- إذاعة النص عندنا تعادل نشر الكتاب عندك، فلا تبتئسْ!

- إذن فهو نشر فى الهواء.

- كل شئ فى هذه الدنيا فى الهواء.

لم يكن يقصد أن يكون حكيماً حين قال عبارته الأخيرة. ولكنى تعمدت أن أجد فيها حكمة فوجدت. حكايات معدودة وصلتنى من قراء متباعدين حول كتبى، ولكن مكالمات تليفونية لا حصر لها انهالت على بعد بدء إذاعة تمثيليتى المسلسلة. الناس تسمع إذن، وتهتم وتناقش أكثر مما تقرأ وتتأمل وتفكر. لا مفر من التسليم بالأمر الواقع هذا. ثم إن العائد المادى من الكتب بسيط للغاية، ولا يتكافأ أبداً مع الجهد المبذول فى كتابتها، ولا مع المراجع التى لا بد من الإطلاع عليها قبل الكتابة، ولا مع السجائر والدخان وانحناء الظهر وآلام الرقبة والتهاب أعصاب الأصابع والإرهاق الذهنى والتوتر العصبى والتذبذب الوجدانى وتقلب المزاج مائة مرة خلال فترة إنجاز رواية واحدة قد تدوم كتابتها عامين أو ثلاثة أعوام.

مازالت التمثيلية مستمرة. النص وأنا والمخرج والممثلون مشتركون فى التمثيلية، ومعنا مؤثرات موسيقية وصوتية متنوعة. وتقترب منى السيدة العجوز على استحياء.

- يا أستاذ. منذ ساعات ثلاث أنتظر مع ابنتى.

- معذرة، ماذا أستطيع أن أقدمه لك من عون؟
- دورى ينحصر فى حلقتين، ودور ابنتى فى حلقة واحدة.
- وماذا يعنى هذا؟
- يعنى أن أجرنا سوف يكون هزيلاً.
- وكيف تحل هذه المشكلة؟
- تطيل من دورى ودورها، أكرمك الله!
- ...
- إننى فى احتياج شديد، لا أراك الله كرباً!
- حاضر

لم أدر كيف وافقتها بسرعة على مطلبها، ولا كيف سأتصرف مع النص أو المخرج وفاءً لوعدى لها. انتحيتُ بالمخرج جانباً، وقررت إتقان تمثيليةٍ أخرى أؤديها أمامه لأقنعه بما نويت عليه من تغييرات فى بعض الحلقات بالحذف والإضافة .. ولم أدر أيضاً: هل أتقن المخرج التمثيل حين وافقنى، أم أنه صدقنى بالفعل معتقداً أن ما قلته حقيقة لا تمثيلية!!..

****

نشرت بجريدة أخبار اليوم فى 2003/12/20

النـــــــــــــادى

****

- إذا أردت أن تعمل شيئاً صحيحاً فدع غيرك يعمله لك!

تماسكت بصعوبة حتى لا أنفجر فى الضحك وأنا أتبادل النظر مع الجالسين لدى استماعنا إلى نصيحته الخطيرة.. المهم أنه يقولها بجدية شديدة ونبرات هامسة كمن يخشى على سره المقدس من الذيوع.

عرفته ضمن شلة النادى الدائمة التغير بالنقصان والزيادة ، تبعاً لانسحاب البعض وقدوم البعض الآخر، فالتجانس الدائم بين مجموعة متكاملة من الرجال والنساء يكاد يكون مستحيلاً بحكم التجربة، وقلما تجد مكانا مثل النادى يحفل بمثل هذا الخليط المتناقض من المستويات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ابتداء من رئيس النادى رجل الأعمال الشهير حسن تامر، وانتهاء بالمهندس الزراعى صفوت حمودة صاحب النصيحة الخطيرة والدخل المحدود.

فى الماضى كان النادى يمثل فئة اجتماعية متجانسة على نحو ما، ولكن تنافس رؤساء النادى على جلب الأصوات دفع إلى إعطاء العضوية لشركات كاملة جاءت إلى النادى بنوعيات من البشر لا حصر لتباينها الثقافى والاجتماعى.

فى بداية الأمر كان قدومه إلى الشلة متقطعاً لارتباطه بقدرته على التزويغ من عمله حسبما تسمح الظروف، وكنت أستاء لأمر رجل تجاوز الأربعين يرتضى لنفسه مثل هذا الموقف المهين من مهنته ووظيفته واحترامه لنفسه، ولكنى لم أسمح لهذه الملاحظة أن تنتقص كثيراً من قدره فى نظرى ، فربما كان ذا حسنات أخرى لم تشأ الظروف أن أكتشفها فيه، وعلى أية حال فضريبة الفراغ فادحة ولا مهرب من سدادها بالمزيد من الصبر والقدرة على تجاوز الصغائر من الأمور .. بعد ذلك أصبح تزويغه من العمل روتيناً يومياً يتباهى به، وكنا نفاجأ - نحن شلة المعاشات – بوجوده بيننا ابتداء من الساعة العاشرة من صباح كل يوم.

أراه منهمكاً فى حديث هامس مع أحدهم، وحين يلفت نظرى ذلك أتبين أن موضوع الحديث تافه للغاية ، حتى أنه لا يستحق ما تهدر حوله من كلمات. هذا ويتميز صاحبنا بابتسامة دائمة – مصنوعة- لا تفارق شفتيه، تذكرنى بابتسامة رئيس

الوزراء الخائبة ، كما أنه حين يتحدث إلى أحد فإن عينيه تتحركان دائريا لاستطلاع تأثير كلماته على الآخرين ، وكأنما يتسول التأييد المتواصل لما يهرف به.

ولقد بلغت بى الدهشة مداها أثناء انتخاب رئيس وأعضاء مجلس إدارة النادى، حيث ترك الرجال والنساء شئون حياتهم كافة، وتفرغوا للثرثرة حول هذا الشأن الغريب .. رأيت صفوت يؤيد رئيس النادى مع مجموعة من الرواد، ذاكرا حسناته وأفضاله على النادى باقتناع شديد، ثم يعارضه ويذم فى خلقه مع مجموعة أخرى بنفس درجة الاقتناع، حتى أننى لم أستطع تبين رأيه الحقيقى فى ذلك الرجل.. والأدهى أن إقامته اليومية طالت بالنادى فى تلك الفترة حتى بلغت اليوم بأكمله منذ بداية النهار وحتى إغلاق أبواب النادى.

كان إحساسه بنفسه طاغياً وكأنه يقوم بدور فى الحياة خطير ربما يتوقف عليه مصير البشرية بأسرها.

لاحظ صاحبنا انصرافى عنه وعزوفى عن الاستماع إلى حديثه، فبذل جهداً كبيراً لاستمالتى دون جدوى، فأنا لا أتمتع بقسط وافر من الصبر يتيح لى معاشرة مثل هذا النوع من البشر ولو للحظات قليلة، خاصة حين يعتقد البعض منهم أنه العارف الأوحد بالحقيقة المطلقة.

لم ييأس وإنما انتهز فرصة جلوسى وحيداً ، فدعا نفسه إلى مائدتى وراح يمتدحنى بغباء شديد.. وفى النهاية اقترب من أذنى هامساً كعادته:

- **أريد أن أبوح إليك بسر قد لا أستطيع البوح به لغيرك**
- **لماذا؟**
- **لأنك تجيد الصمت والاستماع**
- **وبماذا يفيدك البوح؟**
- **قد أستنير برأيك.**

فوجئت به يروى لى تفاصيل مقززة عن صميم علاقته الحميمية بزوجته. على الفور تذكرت حديث زوجته عنه فى محفل يجمع بين رجال وسيدات من أصدقاء الطرفين. كان مجمل حديثها عنه يشير إلى أنه رجل خائب بجميع المقاييس فى شتى النواحى، وساعتها لم أشعر تجاه هذه السيدة بأدنى حظ من الاحترام .

دون أن يدرى تشعب منه الحديث معبراً عن سخطه على رئيس النادى ، وعلى الساعى الذى يمسح المقاعد ، والنادل الذى يقدم الطلبات ، وأعضاء النادى الذين لا يتحدثون إلا بالنميمة، ثم تمادى بطرح وجهة نظر – يعتقد أنها سياسية – فى مشكلة فلسطين يرى فيها الحل الأمثل لكارثة عجز الجميع عن إيجاد مخرج منها يرضى جميع الأطراف. فاجأته بقولى له فى نهاية حديثة الأشبه بغثاء السيل:

- **طلقها!**

تراجع قليلاً إلى الوراء إذ شعر بتورطه. حاول أن يتكلم فلم يستطع وكأنه ابتلع لسانه .. طرقت بعنف متعمد على كيانه:

- **طلقها يا أخى مادامت هكذا.**

قال لمجرد القول، متردداً وبلا اقتناع:

- **لقد فكرت فى ذلك ولكنى وجدت بها بعض الميزات.**
- **أنت حر**
- **طبعاً أنا أقدس الحرية، ولكن أرجوك ألا يعلم أحد ما قلته لك عنها.**

كنت على وشك القيام لولا أن حضر عضو آخر، رسالته فى الحياة تنحصر فى الإقامة شبه الدائمة بالنادى متجولاً بين الموائد بعيون متلصصة وخطوات أشبه بقفزات الغراب، متحدثاً بفخر عن مولده بمطوبس "التى أنجبت العديد من عظماء مصر"

وعن أصالة عرقه ونسبه وعن أقاربه وأصهاره الذين يشغلون أرقى المناصب فى الدولة.

إسمه عبد الوهاب ، وهو كثير الحمد فى سجايا من يجود عليه بكوب شاى أو فنجان من القهوة، رغم أنه كان يشغل منصبا محترما بأحد البنوك.. أما الطلب الوحيد الذى يتجاسر عليه أمام النادل فهو كوب المياه.ودائماً ما كنت أسائل نفسى: متى يجلس هذا الرجل مع زوجته وأولاده وأحفاده فى المنزل؟!

يا إلهى!.. لم أستطع تحمل صفوت، فكيف بصفوت وعبد الوهاب معا، وأنا الذى أتيت إلى هنا لأريح دماغى من أعباء الحياة، غير آمل فى رفقة صديق أستطيع الائتناس بصحبته فى هذا النادى الكبير.

حاولت التخلص منهما بحثهما على الذهاب لمتابعة الندوة الثقافية المنعقدة بالبهو الرئيسى ، فتعلل أحدهما بثقل ظل الضيف- وكان مثقفا كبيراً أمقته – أما الآخر فقال بهدوء:

- **إن الصالة تكاد تكون فارغة من الرواد.**
- **لماذا؟**
- **لأن الضيف ليس نجماً سينمائياً أو راقصة شهيرة.**

ولم يكتف بذلك وإنما راح ينتقد ضحالة الأعضاء وخواءهم الفكرى لانصرافهم عن الجوهر إلى المظهر ، وانسياقهم وراء شهوة مشاهدة المشاهير، حتى أن النادى يكتظ بهم عند قدوم يسرا أو نور الشريف ، بحيث لا يكون هناك متسع لقدم بين أرجائه الفسيحة.

مرت أمامنا "وداد" – صديقة العمل القديمة – وبصحبتها سيدة أخرى تفوقها جمالاً. انتهزت الفرصة بدعوتهما إلى الجلوس معنا، آملا التخفيف عن كاهلى من حدة الشعور بالتقزز. عرفتها بالعضوين وعرفتنا بشقيقتها. سألتنى أول ما جلست عن آخر نكته فغمزت لها بعينى مشيراً إلى ضرورة انتظار رحيل الضيفين الثقيلين. تحدث عبد الوهاب عن مطوبس وعن أقاربه وأبدى صفوت وجهة نظر فلسفية فى حياتنا المعاصرة حين قال:

- **كل حاجة صح فى مكانها الغلط !**

وراح يجول بعينيه فى وجوه الحاضرين باحثاً عن الاهتمام والمشاركة والتأييد دون جدوى، فوداد وشقيقتها سامية لم تعبآ بوجوده على الإطلاق، وكان حديثهما منصباً معى على "حسام" زوج سامية الذى كان زميلى فى الجامعة. وحين تعمدت وداد توجيه الحديث إلىّ منفرداً ، شعر صفوت وعبد الوهاب بالحرج لكنهما لم ينصرفا. فجأة قامت وداد قائلة:

- **إن حسام ينتظرنا الآن فى "الكوفى شوب" وهو فى اشتياق شديد لرؤياك.**

تعمدت أن أترك صفوت وعبد الوهاب أمام النادى ، يتصارعان فى الظاهر على دفع ثمن المشروبات ، وفى الباطن على التهرب من الدفع. لم يكن حسام بانتظار أحد، وإنما دفعتهما الرغبة فى إنقاذى من الضيفين إلى هذه الحيلة النسائية البارعة .

فى البداية انطلقت النكات والضحكات ، وفى النهاية سالت دموع سامية التى أراها لأول مرة، وهى تروى لى عن قسوة زوجها الذى يضربها ويسرق مالها ويعرف الكثير من النساء عليها،،، فى تلك اللحظات الحزينة بعينها كان سمعى منقاداً إلى حوار من نوع آخر يدور على المائدة المجاورة بين شاب وفتاة يضع كل منهما أمامه "موبايل":

- **ولكن لكل حب نهايته المعروفة.**
- **إياك أن تتكلمى عن الزواج فهذا أمر مستحيل .**
- **فبماذا نسمى علاقتنا إذن؟**
- **سميها علاقة عصرية.**

فوجئت بعبد الوهاب قادماً بخطواته المتعرجة يقتحم علينا المائدة من جديد مخاطباً السيدتين:

- أستسمحكما فى دقيقه.

وأشار إلى بالقدوم إليه بعيداً عن المائدة قائلاً فى غضب مكتوم:

- كيف تتركنى وحدى مع هذا البنى آدم الممل؟

أيقنت أنه هو الذى اضطر الى دفع الحساب، ولكنى سألته:

- فيم كان حديثه الممل معك؟

- لقد تحدث عن أمور شخصية بحتة تخص زوجته ، وأوصانى ألا أبوح بالسر لأحد.

- ياه .. وماذا قال لك عنها؟

بسرعة البرق أفصح لى عن نفس التفاصيل التى سمعتها من صفوت، ولم أعلق حتى لا أسمح له بالبقاء طويلاً معى.. بعد انصرافه عدت إلى وداد و سامية قائلاً:

- يبدو أن كلام صفوت صحيح مائه بالمائة، وأنه حكيم زمانه

- كيف؟

- إن كل حاجة صح فى مكانها الغلط !

نشرت بجريدة اخبار اليوم فى 2003/7/16

****

"المعـــاش"

****

مازلت حتى هذه اللحظة غير قادر على الاطلاق أن أتصور أننى سأبلغ الستين من العمر بعد أيام قلائل.. ياه!! .. كيف انسرقت تلك السنين دون أن أدرى؟ .. وكيف أستطيع أن أشعر ببلوغى هذه السن وأنا مازلت أرى نفسى شابا فى بعض الأحيان وطفلاً فى معظم الأحيان.. إننى لست أعتبر نفسى هكذا فحسب، بل إن كل تصرفاتى تؤكد تلقائيا على ذلك دونما أدنى افتعال .. فأنا مازلت أنتج وأبدع وأعمل وأحب وأسهر وأكتسب صداقات جديدة وأبدأ فى مشروعات طويلة الأجل.

إننى أغنى وأرقص وأبتهج لسماع الموسيقا وقصائد الشعر ورؤية الزهور، وأهيم حبا فى جمال الطبيعة حين سكونها وحين ثورتها .. لا شئ يوقفنى عن الإقدام على الانصهار فى أتون الحياة والتعامل مع ألاعيبها والصبر على شدائدها والضحك منها حتى البكاء.

أتساءل أحيانا هل من المحتم أن أنضم إلى شلة المعاشات بالنادى والذين يسمونهم تأدبا بمجموعة الرواد، ليكون مقررا علىّ أن أستمع إلى أمجاد كل متحدث وذكرياته المنصرمة عن نجاحه فى العمل ومهارته في الإدارة ورفضه تقاضى رشوة هائلة كانت كفيلة بتغيير مجرى حياته، وانتصاره على خصومه فى صراعات عاتية تعرض لها.. لا أحد يتحدث أبداً عن فشله فى عمل ما أو عن عجزه فى تحقيق هدف ما .. الكل منتصرون على الزمن! .. فهل من الطبيعى بحكم الإندماج فى المجموعة أن أضطر أنا الآخر إلى سرد المصاعب التى واجهتنى، وكيف تغلبت عليها بحنكتى وذكائى وقدراتى الخاصة والتى ينبغى أن أؤكد على أنها قدرات غير عادية حتى أجذب التفات الجميع واهتمامهم بما أقول؟!

... رحت أسترجع فى خاطرى تجارب العديد ممن سبقونى إلى هذه الدرجة من سلم العمر المتصاعد المتهابط ، حتى أستوضح لنفسى – بالمقارنة – موقفى تجاه نفسى أمام هذه القضية الهامة.

****

- **فى اليوم الأول من عامه الحادى والستين عبر "عبد الهادى" – كناس المصنع- بوابة الدخول حاملاً مقشته وغلقه. استوقفوه بلباقة وهو لا يفهم سبباً لما يحدث. قيل له:**
  - **لقد أحلت إلى المعاش منذ الأمس.**
  - **أعرف ذلك.**
  - **إذن لماذا جئت اليوم؟**
  - **جئت لأكنس المصنع ككل يوم.**
  - **ولكنك لن تتقاضى أجراً عن ذلك**
  - **ومن قال إننى أريد أجراً؟**

أصابهم الارتباك فتركوه يكنس المصنع ثم يغادره فى موعد الانصراف العادى.. بعد عدة أيام نقل رئيس الأمن من موقعه واستبدل به رئيس آخر يتمتع بغباء العقل وخلو القلب من الرحمة. أصدر فرماناً خطيراً بمنع عبد الهادى من دخول المصنع. جاء عبد الهادى فى الصباح فمنعوه من الدخول. احتضن مقشته وظل جالساً أمام بوابة الشركة حتى انصرف العمال والموظفون فانصرف معهم إلى بيته.

تكرر الحال لخمسة أيام متتالية وفى اليوم السادس وجدوه ميتا أمام البوابة والمقشة بين يديه.

*** * * * ***

- **دق جرس التليفون بمنزلى. كان المتحدث موظفاً كبيراً بمؤسسة يعلم أننى صديق لرئيسها ..**
  - **أهلاً يا ممدوح كيف حال الشغل؟**
  - **سوف أتركه بعد عدة أيام.**
  - **لماذا؟**
  - **المعاش**
  - **أهنئك على قرب تمتعك بالراحة والحرية.**

فى البداية قال إن رئيس المؤسسة يحتال عليه بكل السبل حتى يقبل أن يجدد له العمل عاماً آخر، ولكنه يصر على الرفض. لم يكن هناك مبرر لأشك فى صدقه، ولما سألته عن السبب كانت إجابته غير مفهومة أو غير واضحة، ولكنى فوجئت به يشيد إشادة بالغة برئيس المؤسسة: "الوطنى الهمام الذى لا يهتم إلا بمصلحة بلده، والذى هو نظيف القلب واليد ولا يعرف الوساطة أو الرشوة أو التربح من الوظيفة بأى شكل من الأشكال" .. ولهذا فإنه يتمنى أن يصيغ هذه المشاعر فى قالب لغوى جميل فى بريد الأهرام عرفانا بجميل هذا الرجل وتقديراً لكفاءته ووطنيته.

قلت له ببساطة:

- **جميل .. فلتكتب وتنشر ما تريد.**
- **ولكنى لست فى مهارتك الأدبية.**
- **تريدنى أن أكتبها لك؟!**
- **أرجوك..**

وتشاء المصادفة أن ألتقى برئيس المؤسسة فى أحد المحافل، وأن أروى له مادار بينى وبين ممدوح من حديث طيب عنه. فوجئت بالرجل يشيح بيده فى قرف:

- **هف! .. إنه بنى آدم غير معقول.**
- **كيف؟**
- **يريدنى أن أجدد له ويلحّ فى طلبه، وأنا ما صدقت أن خلصت منه.**

*** * * * ***

- نجح المهندس "شريف" فى خداع الجميع خاصة بعد أن اختتم عامه التاسع والخمسين بزيارة البيت الحرام وقبر الرسول. الكل تحدث عن أمانته ونزاهته وكنت – أوربما كنت – الوحيد الذى لم يقتنع بذلك. كان هناك إحساس خفى بداخلى يؤكد لى أنه رجل منافق يتمتع بنعومة غير عادية تتيح له النفاذ من خرم إبرة، بغية تحقيق مصلحة له ولو على حساب الآخرين.

كان رئيسنا الأكبر لصا كبيراً يتمتع بفجر شديد فى انحرافه وتسخير سلطته فى خدمة جيبه، وكان شريف على خلاف دائم معه بحكم اقتراب المنصبين من بعضهما هيكليا. اعتقد الجميع أنه خلاف الصالح مع الطالح، أما أنا فكنت أعتقد أنه خلاف الحرامى مع المحتسب على توزيع النهيبه.

ولما اقترب العام الستين من نهايته فوجئ الجميع بتودد شريف إلى الرئيس بشكل فج، مما أثار حفيظتهم، وكنت على ثقة من أن الثعلب الكبير يتلذذ بهذا النفاق ، إذ أنه يعرف سببه معرفة يقينية.

فى حفل الوداع جلس شريف بجوار الرئيس وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة المنتصر، لولا أن قال الرئيس فى نهاية كلمته إنه كان يود أن يجدد خدمة شريف، لكن اللوائح تمنعه من ذلك. حينئذ غابت الإبتسامة واكتسى وجه شريف بلون لا هو أزرق ولا هو أصفر، وبعد أن انصرف الرئيس لعنه شريف على الملأ وتمنى موته دون المشى فى جنازته.

****

- بلغ الأستاذ "موريس" مدير الإدارة الستين إلا قليلاً، وكانت درجة المدير العام شاغرة ومن المفترض أن يرقى عليها، لكن رئيس الهيئة أصر على الرفض محتفظاً لنفسه بأسبابه. والحق إن موريس لم يكن جديراً حتى بمنصب مدير الإدارة لافتقاده الكفاءة الفنية والإدارية معاً. لكنه كان يفضل الموت على إحالته للتقاعد قبل أن يشغل منصب المدير العام ولو ليوم واحد، وكان هذا الأمر يدهشنى كثيراً خاصة أنه لن يعود عليه بنفع مادى على الإطلاق.

تعود موريس أن يحضر إلى مكتبى بين الحين والآخر ليفضفض لى عن مشاعره وآلامه، ولما وصل بنا الحديث إلى قضية الساعة سألته على سبيل تخفيف الحمل عن كاهله:

- ما الذى يضيرك يا أخى لو أحلت إلى التقاعد على درجة مدير إدارة؟
- أنت لا تفهم شيئاً لأنك مازلت صغيراً.

كان يعاملنى كأخ أصغر وكنت أحب فيه طيبته الفطرية. قلت له باسما:

- دعنى أفهم منك.
- حين أجلس مع أصدقائى بعد المعاش وأقول إننى مدير عام سابق، فإنها تختلف كثيراً عن الأخرى.
- أعتقد أن كلمة "سابق" تجب المدير والمدير العام معاً.
- ألم أقل لك أنك مازلت صغيراً!

أما الأمر الذى أثار تأملى فهو ما علمته فيما بعد عن موريس، انه يمتلك العديد من الأطيان والعقارات والنقود السائلة فى البنوك.

* * * * *

- كان شهر العمل الأخير "لأسامة السبكى" مدير الشئون القانونية، وكان رصيده من الإجازات السنوية المتراكمة يقارب تسعة أشهر. توقعنا جميعاً أن يأخذ هذا الشهر إجازة متصلة ولكنه أصر على مداومة الحضور كل يوم فى الموعد الرسمى. أدهشنى ذلك فسألته:
  - لماذا لا تأخذ هذا الشهر إجازة؟

- لابد لى من الحضور حتى أسلم زميلى كل الملفات المتعلقة بالادارة .
- ولكنك لن تسلمه مفاعلاً ذريا.

مط شفتيه علامة الامتعاض من حديثى، وفوجئنا بعد ذلك بسيل من الجزاءات يوقعها أسامة على موظفيه لأتفه الأسباب. تضاعف حماسه للعمل بشكل مثير وكثرت أخطاؤه وتضرر منه الرؤساء والمرؤوسين فعاودت نصحه بالإجازه ولكنه كان أكثر تشبثاً بالتواجد فى العمل.

قبل انتهاء خدمته بيوم واحد صدر أمر إدارى بتكليف مجموعة من المسئولين بالقيام بعمل ما، وكان اسمه ضمن القائمة من باب التكريم فقط لأنه لن يشارك فى هذا العمل.. ثار ثورة عارمة لأن إسمه جاء فى الأمر تاليا لإسم موظف آخر أحدث منه، وطالب رئيس العمل بإعادة صياغة الكشف وطباعته من جديد مع مراعاة أقدميته!

حاول الرئيس إقناعه بلا جدوى ما يريد، ولكنه امتثل لطلبه فى النهاية حين رأى زبداً كثيفاً يتناثر من فمه أثناء ثورته..

ولحظة مغادرته الشركة كان بكاؤه أشبه بعويل النساء عند موت عزيز.

* * * * *

إنى أتعجب لأمر هؤلاء الناس حينا وأتعجب لأمرى حينا آخر، ذلك لأننى أشعر بسعادة غامرة وفرحة طفولية طاغية بقرب إحالتى إلى التقاعد. أشعر أننى كمن يولد من جديد. أتأهب لاستنشاق نسمات الحرية بالتخلص من عبودية الوظيفة وأسرها الكريه. الاستيقاظ كل يوم- لمدة أربعين عاما – فى نفس الموعد كان شيئاً قاتلاً سأتحرر منه. الذهاب إلى العمل مع نفس الوجوه بحسناتها وسيئاتها سأنجو منه .. أليس هذا شيئاً رائعاً ؟! .. أن أفلت من رؤية نفس الرؤساء والمرؤوسين كل يوم وأن أؤدى نفس واجباتى الوظيفية كل يوم وأرى نفس الشوارع والمبانى والمنشآت التى لا تموت أبداً كما يموت البشر كل يوم!!

قيل لى إننى سوف أكون سعيداً فى البداية، ولكن بعد مرور عدة أشهر من الفراغ لن أجد ما أعمله وسوف يصيبنى الاكتئاب والكدر .. ولكن، من قال إننى سأتوقف عن العمل والإبداع والرقص والعبادة والغناء والسياحة .. ابتهاجاً بالحرية؟!

وجاء اليوم الأخير..

لم أعبأ بكونه يوم ميلادى الذى أحتفل به كل عام، إنما غمرنى حزن شديد لأننى فى هذا اليوم سأغادر هذا المكان وسأترك هؤلاء الناس وأفارقهم إلى الأبد.. آخر راتب شهرى .. آخر توقيع على آخر مستند .. آخر لجنة فنية أحضرها .. إنه آخر عمل لى بالشركة .. آخر كل شئ اعتدت تكراره حتى خلته أبديا لا ينتهى!..

فى ذلك اليوم فاجأنى رئيس الشركة بقوله:

- نحن بحاجة إليك وسوف تستمر فى العمل معنا.
- كيف؟!
- سنتعاقد معك كمستشار فنى لمدة سنة قابلة للتجديد.

لم أعرف ماذا أقول له وقد أخذت بالمفاجأة التى دمرت كل ما أقمته من حصون أواجه بها لحظة انفصالى عن مهنتى التى ظللت أمارسها وأتعيش منها عمراً طويلاً.. والحق أن سعادتى كانت بالغة بما سمعت.

* * * *

نشرت بجريدة أخبار اليوم فى 2003/5/3

"الانتفاضة والملل"

****

استبد بالكون غيم ودب فى نفسى ملل كئيب. تعقبت فى دأب مصادره المحتملة فوجدتها متعددة متشعبة متشابكة يلفها ضباب كثيف. فكرت فى محاولة الانفراد بكل مصدر على حدة. أدرسه وأحلله لأصل إلى أسبابه، ثم أقرر كيفية القتال معه للقضاء عليه. كانت المحاولة قاسية. أشبه بمعركة. لم أتردد. أعددت أسلحتى. رصصتها فى مواقع حصينة. الإيمان. الصبر. المنهج العلمى فى التفكير. الثقافة الواسعة. النظرة المتفائلة للحياة والحذرة فى آن واحد. الأمل فى المستقبل. الاستفادة من تجارب الماضى وخبراته استشرافاً للمستقبل. شحن العزيمة وشحذ الهمة.. وأخيراً وقفت فى موقعى معتمداً على الله.

أدرت قرص الهاتف طالباً صديقى الحميم "سعيد". لا أحد يفهمنى ويحسنى مثله. تصل درجة التقارب بيننا إلى التفاهم بالأعين دون كلام. همومه لا تختلف كثيراً عن همومى فنحن أبناء جيل واحد ومهنة واحدة وهواية واحدة هى القراءة. سعيد يتميز عنى بأنه لا يكتفى بالقراءة وإنما يبدع قصصا وأشعاراً جميلة . سأقوم أنا بالمبادرة الأولى لفتح الحوار حتى نصل إلى نهايته المرجوة وهى الوقوف على أسباب مللى وملله كخطوة أولى.. من أدراك أنه يعانى الآن مما تعانى منه؟ أليس من الجائز أن يكون الآن فى أصفى حالاته النفسية؟" .. استنكرت هذا الخاطر. اننى أتحدى مواطناً عربياً معاصراً من أصحاب الضمائر اليقظة ان يستطيع الاستمتاع بلحظة صفاء نفسى طويلة الأجل ..

لكن ما هو الأمر المحدد الذى فجر القضية وجعلك تطلب صديقك؟ .. ان الملل لا يأتى دفعة واحدة بل يتسرب فى دهاليز القلب بخبث شديد، فما هو الحدث الذى أشعل الفتيل فألهب مشاعرى وأحال مللى إلى غضب شديد؟!

عبر الهاتف أتانى صوت ناعم غريب: من يتكلم؟ أنا أعرف أن سعيداً رجل أعزب. تزوج الكتب والموسيقى والقصص والأشعار زواجا شرعياً. كما أعلم أنه رجل

ملتزم بقيم دينه. لم تدخل بيته امرأة من غير أهله وأقاربه. ترى هل توصل سعيد إلى وسيلة جديدة لتدمير الملل الذى طالما اشتكى إلى منه؟.. إذا كان قد تزوج فلابد أنه قد جن.. لقد مضى يومان فقط على آخر لقاء جمع بيننا ولم يصرح أو يلمح بكلمة عن الزواج:

- من المتكلم؟
- أنا محمود
- محمود من؟

اقترحت عليه – قديماً- أن يكمل نصف دينه لكنه رفض أن يجلب التعاسة لأسرة لن يعرف كيف ينتمى إليها وإلى زوجاته الأربع فى آن واحد.

- معذرة يا سيدتى. من أنت؟
- أنت الذى طلبت فلا يجوز لك أن تسألنى من أنا.
- أليس هذا رقم 9628680؟
- هو صحيح.
- إذن فأين سعيد؟
- سعيد من؟

مقالتك يابن إدريس هى السبب فى هذه الورطة. لولاها لما خطر ببالى الآن أن أتصل بسعيد. قرأتك تصرخ على صفحات "الأهرام" قائلاً: افصلونى –أرجوكم- معه .. ذلك الطالب الذى أراد أن يقيم معرضاً بمعهده يصور فيه مشاهد القمع الصهيونى الإجرامى لأطفال الانتفاضة الفلسطينية الجبابرة.. وذلك العميد الذى ادعى الموافقة على إقامة المعرض ثم أبلغ جهاز المباحث ففصل الطالب من معهده .. ماذا أقول لها؟

- سعيد صاحب هذا الرقم.

كان صوتها عذباً ونبراتها لينة وأسلوبها كريماً

- أى رقم؟
- 9628680
- أمتأكد أنت من صحته؟
- تماماً.
- إذن ففيم كنت تريد "سعيد"؟
- اعتقد أن هذا ليس من شأنك خاصة وأننى لم أعرف حتى الآن من تكونين.

بمجرد أن انتهيت من قراءة مقال يوسف إدريس الذى يطالب بفصله من عمله تضامنا مع الطالب المخدوع، أيقنت أن لكل شئ حدوده وأن الملل الكئيب الذى يعتصر نفسى لابد أن يقتل. سوف أسأل صديقى عن رأيه فى هذا المقال وسوف يجيبنى وسوف نتبادل السخط والهم والكدر ونفتش فى نفسينا وننقب فى قلبينا ونتفحص فى عقلينا كيف يمكن أن نفعل شيئاً يساهم فى تغيير واقعنا الكريه.

- لو قلت لى فيم كنت تريد الحديث مع سعيد أقول لك من أنا.
- لايهمنى أن أعرف من أنت.أين سعيد؟
- لو أصررت على موقفك سأضطر آسفة إلى وضع السماعة.

كانت لهجتها مزيجاً من المصرية والشامية. لاحظت على نفسى أننى مقدم على حالة من الانفراج غير منتظرة.. سألتها فى ود رقيق:

- هل أنت مصرية؟
- لا يهم. أنا عربية من أى وطن عربى. فيم كنت تنوى التحدث مع سعيد؟

استنامت أعصابى لرقتها. تعجبت لحالى والزمان لا يخلو من أعاجيب .. نسيت "سعيد"!

- ربما لا يعجبك موضوع الحديث أو لا يستهويك
- ما هو؟
- مقالة يوسف إدريس.
- قرأتها
- معقول؟!!
- ولم لا يكون معقولاً؟ انتم أيها الرجال لا تحترمون عقلية المرأة العربية أبداً.. لم هذا؟!
- أنا آسف. لم أكن أقصد أية إهانة.
- لقد قرأتها وشعرت بضيق شديد وتمنيت أن أتحدث بشأنها مع أى مخلوق.

نسيت"سعيد" مرة ثانية، ونسيت أننى أعانى من الملل والغضب. تدفقت الدماء فى وجهى وشعرت بريقى يجف قليلاً.

- فلنتحدث
- وهل تظن أن يثمر حديث تليفوني مقتضب عن شئ ذى قيمة؟
- بالقطع لا
- إذن فما الحل؟

ها هى تطلب موعدا للقاء. ما هذا الحظ الجميل يا ولد. أكرمك الله يابن إدريس فمقالك وجه السعد .تشجع أيها الملول الغاضب.

- ليس أمامنا إلا أن نلتقى ما لم يكن لديك مانع
- نلتقى

ترى ماذا يفعل سعيد لو علم بما حدث؟ .. من تكون هذه السيدة عنده؟ .. لابد أننى أخطأت فى الرقم. لو كانت قريبته فهذا ليس من شأنى. لم أجرب الرقم مرة ثانية. أنا لم أخرج معها عن حدود الأدب واللياقة.. هى التى عرضت وأنا قبلت.

- أين؟
- فى المكان الذى تحدده
- أتناسبك قاعة فندق.....؟
- أوافق. أنه مكان أنيق ومحترم وقريب من مسكنى
- أين تسكنين؟
- إلى الملتقى يا محمود .. كم الساعة الأن ؟
- السادسة
- نلتقى فى السابعة بإذن الله.

وضعت سماعتها برفق. أما أنا فظللت ممسكاً بسماعتى عاجزاً عن إغلاق فمى وقد انفتح ذهولاً عن آخره.

نسيت أن أسألها عن اسمها.. لون الثوب الذى سترتديه. نسيت أن أصف لها معالم وجهى الأسمر الملئ بالخطوط المتداخلة المتعرجة. لم أذكر لها أننى أضع نظارة سوداء على وجهى وحلة رمادية على جسدى النحيل.

ما هذا العبث يا من تجاوزت الأربعين؟ أعقل أيها الرجل وعد إلى صوابك وتجنب مغامرة صبيانية قد تحط من قدرك أمام نفسك وأمام الآخرين.

فى قاعة الفندق على مقعد قريب من المدخل ، رأيت كثيراً من الضيوف الأجانب والعرب يأكلون الحلوى ويشربون القهوة ويضحكون. شاهدت نزلاء الفندق من أثرياء المصريين وعلى وجوههم صرامة مصنوعة وفى ضحكاتهم عصبية واضحة. انى أعشق التلقائية فى كل شئ. جلوسى فى هذا المكان يؤرقنى. أنا الذى اخترته تباهياً وحذلقة أمام امرأة مجهولة. أدفع

الثمن يا بطل من راتبك الذى يعانى من الأنيميا المزمنة منذ عصر محمد على، أم تريد الدنيا والآخرة فى لحظة واحدة؟

حملقت فى وجوه الجالسين والواقفين. من المؤكد أن أحداً منهم لا يفكر فى الانتفاضة أو فى يوسف إدريس أو فى الطالب المفصول عقاباً له على تضامنه مع الفلسطينيين .. فيم يفكرون إذن؟

ازداد موقفى حرجاً. كلما شاهدت فتاة أو سيدة تدخل الفندق وحدها أظنها هى. زاغ بصرى لسرعة تعاقب متابعتى القلقة للغاديات والرائحات. أى مأزق هذا الذى وضعت نفسى به. كلما نظرت إلى احداهن مصطنعاً ابتسامة دون جوانية واثقة صفعتنى بنظرة لا تليق إلا بأبله. ماذا أفعل إذن؟ .. هل أجرب نظرية المحاولة والخطأ كما تعلمتها بالكلية؟ . قد تؤدى بى العاقبة إلى قسم الشرطة أو إلى المستشفى الأميرى . لا مفر إذن من التراجع ..

لكن .. من هذه الفتاة الرائعة الجمال التى تمر بثقة بين الموائد متفحصة وجوه الجالسين فى كبرياء؟.. لا بد أنها هى!! نظرت إلى بإمعان ثم اختارت المائدة المجاورة لى تماماً وجلست. استلهمت شجاعة الشباب المنصرمة وابتسمت لها فابتسمت . سألتها فى توجس:

- هل أنت ...؟!

لم استطع اكمال الجملة. ابتسمت لترددى وأجابت بعد أن استحالت ابتسامتها إلى ضحكة برئية مرحة:

- نعم أنا

انتقلت على الفور إلى مائدتها وجلست. لم تعترض ولم تتخل عن ابتسامتها وإنما قالت فى دهشة.

- انك لشديد الثقة بنفسك

كنت انتفض من داخلى وكانت ركبتاى ترتعشان.

- أفضل أن نتعارف أولا قبل أن نبدأ الحوار.

طال الحديث بيننا دون أن نتعرض للمحادثة التليفونية. تناولنا موضوعات شتى عن العلاقة بين الرجل والمرأة فى مجتمعنا العربى. كاد الحديث أن ينحرف بنا إلى متاهات أخرى لا أجيد الخوض فى أسرارها رغم شدة ولعى بها فأنا إنسان خجول. أما الحديث عن المقال فلم يبدأ. فجأة نظرت إلى ساعتها واعتذرت عن ضرورة انصرافها على الفور، حين بقيت شارداً لا أعى بحدود زمان أو مكان.

تملك منى الهلع حين تذكرت أنى نسيت أن أسألها عن سعيد. قررت أن أخاطبها هاتفياً بمجرد عودتى إلى المنزل. أدرت الرقم نفسه.جاءنى صوت سعيد مرحبا باتصالى به.ارتج على القول فلم أدر ماذا أقول له. لم يخطر ببالى أن أسأله عن المقال. انهيت المكالمة بأسلوب مرتبك أثار دهشته. رحت أحاول استبدال الأرقام السبعة الواحد وراء الآخر. جربت جميع التباديل والتوافيق ولم أسمع فى كل مرة إلا جملة واحدة فأجيب "آسف" .. وأغلق السماعة. اتصلت مرة أخرى بسعيد وقد بدأ العرق يتصبب على جبينى. كانت مشاعرى تختلف تماماً عن مشاعر الملول والغاضب. سألته بأنفاس لاهثة:

- أين كنت منذ ساعة؟
- كنت بمنزلى .. لماذا؟
- هل كان أحد معك؟

-كنت وحدى .. ما هذه الأسئلة الغريبة؟

- متأكد؟
- ما الذى جرى لك يابنى؟

- سأشرح لك كل شئ فيما بعد ولكن قل لى: هل قرأت مقال يوسف ادريس؟
- لا.

* * * *

نشرت بمجلة اليوم السابع فى يوليه1989

الألـــــــــــــــم

-1-

حبيبتى الغالية..

تسأليننى ببساطة "ما هى المشكلة"؟!..

وكأنك لا تدركين كم أتعذب وأحترق من أجلك .. وكأن الله قد سلطك علىّ ليطهرنى من كل ما ارتكبت فى حياتى من ذنوب وآثام بأن وضع قلبى الهش بين يديك الرقيقتين تتبادلان اللعب به،، وقلبى ياحبيبتى ليس دمية من ورق.. فتلك اللطيفة الربانية الغارقة فى السر الإلهى لم تخلق للعب والعبث، وإنما خلقت لتمتلئ بنور الله وتحيا على حبه.

وأنا ياحبيبتى إنسان مبتل بالمعرفة والإنكار فى آن واحد، فإرادتى فى وادٍ يبعد عن معرفتى آلاف الأميال، وموقفى فى وادٍ يبعد عن إراتى بآلاف أخرى من الأميال..

وأنا ياحبيبتى أحبك وأعرف أنك تحبيننى، ولكن المستحيل بشحمه ولحمه وشرره المتطاير من عينيه يقف حائلاً بيننا وفى قبضته الهائلتين يمسك برهائنه المساكين: زوجتى وزوجك وأبنائى وأبنائك!!..وعلى جبينه العريض تصرخ رهينة أخرى أوقع بها فى أخاديده العميقة: رهينة الزمن الذى هرب منا دون أن ندرى فأضاع منا فرحة العمر فى نذالة لم أعرف لها نظيرا،تفوق نذالة المستحيل الذى يحتمى بصدارة العرف والتقاليد والموروثات كرهائن أخرى يقف من خلفها فى جبن، يهددنا بالفضيحة والعار والدمار .. يجعلنا نرتعد خوفاً كلما قبض بيديه العظميتين على عنق حبنا يخنقه بلا رحمة. يجعله يرفرف بين يديه والدماء تنزف من عينيه، وقلب العصفور ينتفض انتفاضة الموت!

آه ياحبيبتى لو ذقت لوعة الحب وألمه العظيم! .. آه لو فكرت طويلا قبل أن تسأليني ما المشكلة! انى لا أريد أن أصدق أذنى .. أو ربما كان حافزك إلى السؤال

رغبة فى إثارتى ومداعبتى واستنفار كلماتى التى تحبين الاستماع إليها بكل ذرة من كيانك .. أكاد أوقن من ذلك حقاً..

لا .. ليس قلبى دمية بين يديك لأنى أراه فى حضن قلبك .. ينبضان معا وينثران زهور الحب على كل الأحياء .. لكن بالله دلينى كيف أنت كذلك؟ .. كيف تنعمين بحبى والمستحيل ماثل أمامك بكيانه المتعملق المخيف. كيف تتحايلين على القدر بهذا الجبروت المذهل الذى لست أعرف كيف أصفه أرقة هو أم عناد. أثقة هو أم استسلام، أم قناعة بالمتاح الممكن الخداع فى ظهوره واختفائه ثم معاودة ظهوره من جديد.

إنك لا يبدو عليك سوى السعادة بحبك فى وجود المستحيل وتحت أزيز صوته وبين قرقعه رعوده، ثابته كالطود

وكأنما وجود هذا المستحيل أمامك هو المستحيل نفسه.. ياإلهى؟!.. أمن الممكن أن يصل حبك لى إلى هذا الحد الأسطورى الذى لا يطيقه مخلوق بشرى؟.. يا إلهى .. أبلغ بى الغرور والضعف حتى لا أدرك أننى لم أعرف كيف أحبك مثلما أحببتنى وأنا الذى يتشدق بأنه من علمك الحب ومن دكّ قلاع عزلتك واقتحم قلبك وتربع على عرشه؟

- 2 -

حبيبى المعذب .. أنت رجل مجنون بالحياة، ولقد بلغ بك الجنون أن جعلتنى أعشق جنونك وأنا من يعرفنى الجميع بالوقار والتحفظ. لقد اكتسحت حياتى كشلال هادر يتدفق بالحب والجمال. انتشلتنى من حيث لا أدرى من حياة كئيبة ملولة باردة لتضعنى فى غفلة من الزمن بين أتون قلبك الملتهب. أصبحت أرى فى كل ما مضى من عمرى ضبابا ينقبض له صدرى وأحلم فيما هو آت من أيامى بزهور وعطر ورياحين وطيور ملونة ترفرف فى كون من الموسيقا الحالمة. لقد بلغ بك الجنون أن تتصور، وتجعلنى أتصور معك أن حفيدتى هى ابنتنا التى أنجبناها فى خيالك معا .. صدقنى ياحبيبى إن لمسة يدك لى تحيل جسدى ذى الخمسين عاماً إلى جمرة ملتهبة ربما لا تعرفها فتاة العشرين... تقول لى إن للحب قانونه الخاص وأصدقك. تفصل ما بينه وبين الدين بحلاله وحرامه من جهة وبين العرف والمواريث من جهة أخرى وأقتنع بما تقول.. تقبلنى بشفتيك الحنونتين المجنونتين فينصهر عمرى بأكمله فى رضابهما المسكر... تغازلنى بكلمات يعجز السحر أن يأتى بمثلها وأستمع إليك بقلبى وأذنى وكل جوارحى حتى أغرق فى بحر النشوة بغير أمل فى النجاة.. تتحكم بخيالك الواسع ومطالبك الصبيانية الرائعة حتى فى ألوان ملابسى الداخلية وأطيعك لعل ما يعطيه الخيال يعوضك عما يستحيل فى الواقع.

حبيبى انى غير راغبة فى مقارمة حبك بل انى أتوق إلى المزيد .. تقول إننى آخر عربه فى آخر قطار يقوم بآخر رحلة فى عمرك، وأقول انك عمرى كله أراه قد بعث على يديك فرأيت فيه مالم أكن أحلم برؤتيه حتى آخر يوم فيه .. أنت الطريق الذى سوف يجتازه ذلك القطار من بدايته وحتى نهايته، فبالله ماذا تريد منى أكثر من ذلك؟! ..انكم يامعشر الرجال تتهموننا نحن النساء بالرومانسية المفرطة وأنتم غارقون فى الخيال. صدقنى يا حبيبى إن قناعتى بهذا الحد من حبنا لهى صمام الأمان لحياته. أستحلفك بحياتى ألا تطالبنى بالمزيد وإلا أطعتك وأعطيتك كل ما تطلب، طاعنة المستحيل بقوة فى قلبه،، لكن حبنا حينئذ لن يدوم .. فهل تريد ذلك؟!

-3-

محبوبتى الفاتنة .. تقولين إنك تجدين فى الحبيب والشقيق والصديق .. ما أسعدنى يارب بهذا العطاء. فأما عن الأخوة والصداقة فهذان كنزان لا ينفدان مدى العمر، وما أتعس من حرمته منهما الأيام.. وأما عن الحب فمفاتيح كنوزه – ويا أسفى – ليست بيدى وحدى، كما أنها ليست بيدك أنت الأخرى. إن المستحيل يضعها تحت قدميه ساخرا منا، واثقاً أننا لن نجرؤ على سحبها من تحتهما.

كنوز حبنا يا عصفورتى أرض خصبة لو حرمت من الماء تشققت وبارت جذورها وتساقطت أوراقها وثمارها .. فدلونى يا مخلوقات الله من إنس وجان هل هناك حب بلا قرب، وهل هناك زرع ينمو بلا ماء.. يا أناشيد الرحمة ويا كلمات الوجد ويا حروف الموسيقا أليس الحرام نفسه حرمان حبيبين من لقاءات الوجد والأنس والمناجاة؟! أليس الكفر بعينه هو السجود تحت أقدام المستحيل والخضوع لتهديداته الإجرامية القاسية؟!

لا يا حبيبتى. أنت تضنين على بالقرب وأنت تعلمين أننى قادر على الاختفاء بك بين ضلوعى وتحت أجفانى وفى حنايا قلبى .. ألا من يوم واحد تهربين فيه معى من هذا العالم الذى لا يطاق بخداعه وأكاذيبه وتصنعه وساديته وقبحه .. ألا من ساعات محدودة أريح فيها رأسى المصدوع على صدرك المعطاء. أحرام أن تتحسس أناملك الحبيبة شعر رأسى وتتأملينى فى صمت الحب السحرى؟! .. أستحلفك بابنتنا الحبيبة أن ترحمى ألمى يوماً. أطلقى لقلبك العنان ساعة أو ساعتين وامنحينى شفتيك وكلماتك وأناملك ونظراتك الحبيبة إلى عينى.. أم أنه لا يعنيك كثيراً أن أتألم أكثر من ذلك؟!

-4-

ها هى السماء تمطر .. والزهور تتفتح .. ويستحيل الكون إلى روضة من رياض الجنة تعبق بالعطر، وفيها تشدو الملائكة بأعذب الألحان.

****

نشرت بمجلة حواء فى 1993/12/11

الفـــــــــــــرح

****

لأول مـرة منـذ ولـدت تجتـاحنى فرحـة كالسـيل. تنشـلنى مـن أعمـاق الـزمن إلـى عـالم مـن النـور والانشـراح والبهجـة. أشـعر بالرغبـة فـى الطيـران. أهـيم فـى حـب كـل النـاس والحيوانـات والحـوائط والطيـور والأنهـار والحشـرات والبحـار والجبـال والأشـجار. البسـمة تضـئ وجهـى وتسـرى فـى دمـى. كـل خليـة مـن خلايـا جسـدى تضـحك. كـل نبضـة فـى القلـب تسـكب الضـياء والمحبـة للكـون ومخلوقاتـة وخـالقهم. أريـد أن أخلـع ملابسـى وأجرى فى الشوارع حافيا أصيح أيها الناس إننى فرحان .. لماذا لا تفرحون مثلى؟!

إن مـا يحـدث لـى الآن يـذهلنى، فهـى ليسـت لحظـة عـابرة أو هاجسـا يـدوم سـاعة أو سـاعتين. إنـه شـعور طـاغ مستبد، أشـك كثيـرا فـى أنـه لـن يلبـث أن يـزول كمـا زال غيـره مـن قبـل. لسـت أدرى ولا يهمنـى أن أعـرف كيـف أو لمـاذا جـاءنى واجتـاحنى بهـذه القـوة وبـدون سـابق أسـباب، حتـى أننـى استسـلمت لـه بكامـل إرادتـى وبكـل مـا أختـزن فـى ضميرى من وعى.

واقترب موعد الجنازة..

قتـل صـديق عمـرى برصاصـة إرهـابى تطـارده الشـرطة. أعـددت نفسـى لـوداع حـزين أفـارق فيـه فرحتـى الطارئـة لأغـرق فـى دمـوع الفـراق النهـائى وأسـوح فـى شـجنى متـأملا غـدر الحيـاة وعبثهـا، متفكـرا فـى كونهـا دار فنـاء رغـم مـا تسـخو بـه أحيانـا مـن اللذائـذ والمتع والشهوات.

انتظـرت فـى صـمت أن ينقـبض قلبـى ويكسـو الشـرود معـالم وجهـى، وينـتفض جسـدى برعشـة الخـوف والرهبـة مـن مصـيرى المحتـوم. توقعـت أن أنفجـر فـى البكـاء حـين أرى جسـد رفيـق عزيـز محمـولاً علـى الأكتـاف سـاكت الحـس والنطـق والحركـة، بعـد أن كان يفيض حيوية وبهاء وحكمة.

لكـن شيئاً مـن هـذا لـم يحـدث. بـل إننـى كنـت أبـذل جهـداً رهيبـاً كـى أقـبض أسـارير وجهـى المنبسـطة بـين السـائرين فـى الجنـازة. اسـتبد بـى الشـعور بـالفرح ولـم يفـارقنى لحظـة واحـدة، وكأنـه كـائن مسـحور يدغـدغ أعصـابى ويهدهـد مشـاعرى ويحيـل ذهنـى إلـى شـعلة مـن الصـفاء البللـورى المتـألق.. لا تـرى عينـاى غيـر ورود ولا تسـمع أذنـاى غيـر موسيقا حالمة تنساب من بين أعطافى فى هدوء.

كنـت أريـد أن أحتـوى الـنعش والمعـزين فـى صـدرى، وأغمـرهم بحنـان الـدنيا وأربـت علـى صـدورهم وأسـألهم ألا ييتئسـوا وألا يحزنـوا، فـإن لـم يفهمـونى حـذرتهم مـن الغفلة والجنون، فلماذا لا يفرحون؟!

صاح أحدهم:

- وحدوووووو....ه

فردد الجمع:

- لا إله إلا الله

أمـا أنـا فكنـت مشـغولاً فـى تلـك اللحظـة بشـكر الله وحمـده علـى مـا أنـا غـارق فيـه مـن فضـله بتلـك النفحـة النورانيـة مـن السـعادة والفـرح، والتـى كـان يبـدو لـى أنهـا منحـة أبدية سوف تقودنى يوما إلى الفناء فى ذاته الجليلة.

رغم هذا فقد كان سمعى منصباً على تعليقات السائرين وأحاديثهم فى الجناز.

- مات شهيداً
- مات وخلاص.. صل على رسول الله
- كان ماشياً فى حاله لا به ولا عليه.
- الفاتحة على روحه. ربنا يستر على البلد.

ولكى أمنع نفسى من انفجار فرحتى المباغتة رحت أبحث عن مبرراتها المحتملة والمنافية فى اعتقادى لكل أسباب المنطق. ولم يكن يخطر ببالى أننى سوف أنجح فى العثور ولو على مبرر واحد لتلك الظاهرة العجيبة.لكنى تساءلت لماذا لا أفرح باقتراب ساعة النجاة من شرور هؤلاء الخبثاء مادام الناس يضحون بحياتهم لتأمين حياة الغير وحمايتهم من المجرمين.

لكنك فقدت صديق عمرك. لو كان لديك بقية من حياء لانفجرت صارخاً من الحزن والغضب والاشمئزاز والتقزز مما حدث ومما يحدث، ولكنك فرح تعانى من الرغبة فى الضحك وحث الحزانى على الفرحة.

لابد أنك قد أصبت فى عقلك. أم أنك فرح لأن الذى مات لم يكن أنت. لابد أن الأمر كذلك، بل انه حقا لكذلك.

توالت ضربات قلبى بعنف مفاجئ فى غير انتظام. حذرنى الطبيب من التدخين ولم أمتثل لتحذيره. قال إن شراييني تتصلب وإننى مهدد بجلطة قد تودى بحياتى فى لحظة، وهاهو صديقى الذى لا يعرف السيجارة قد مات وأنا حى أنعم بوجودى بين مخلوقات الله من إنس وجن فلماذا لا أرقص طرباً بنشوة الحياة؟!

لا تعجب فأنت لم تأت بجديد، لأن كل بنى آدم يمشى فى هذه الجنازة ويفكر فى الميت، يظن أن كل الناس سوف يموتون فيما عداه، فالمسألة لا تخصه بأى حال لأنه لم يمت بعد .. وهكذا أنت أيها الفرحان السعيد.

تسللت إلى صف آخر. كان أحدهم يسأل رفيقه فى تضرع:

- أقرضنى عشرين جنيها حتى آخر الشهر.

أجابه جاره فى بلادة:

- العين بصيرة واليد قصيرة
- سوف أفتضح أمام أولادى
- الحال من بعضه

وعاود أحدهم الصياح:

-وحدووووه...

فردد الجميع:

- لا إله إلا الله

لم أتألم لما سمعت، بل ازدادت فرحتى بنعم الله على. أخرجت من جيبى عشرة جنيهات واقتربت منه مادا بها يدى. قلت له فى ابتسامه ودودة:

- تسمح لى أن أقرضك نصف المبلغ

ارتبك الرجل وغرق فى حيائه وتلعثم فى كلماته:

- من أنت؟ أتعرفنى؟!
- أنا أحد أصدقاء المرحوم

كررت المحاولة لكنه أصر على الرفض

كنت فرحا لمحاولتك إسعاده فأصبحت فرحا لنجاتك بجنيهاتك العشرة التى أنت بحاجة إليها مثله تماما. لا مفر من الفرحة إذن. إنها تحاصرك فى كل الأحوال بقيد حريرى رهيب.

ابتعد الرجل عنى ولكنه ظل ينظر إلى من حين آخر بطرف عينه متشككا فى أمرى،وكأنه لا يصدق فكرة وجود إنسان يسره أن يساعد إنساناً لايعرفه فى محنة.تواريت فى صف آخر لأعفيه من الانشغال بأمرى، فمصيره كمصيرى ولا مبرر لانشغال أحدنا بالآخر.

- يا عم كلنا مديونون. البلد نفسها غارقة فى الدين
- أهلكنى جهاز البنت. عيشة تقرف.

- ألا يساعدك إبنك؟
- كيف يساعدنى ولم يجد عملا حتى الآن؟
- ياهوووه. وقد تخرج منذ ثلاثة أعوام!!
- أسمعنا آخر نكته الله لا يسيئك

لو سمحا لك أن تشاركهما الحوار لفاقت سعادتك الوصف. لو كنت تعرف أحدهما على الأقل لقلت له إن بناتك الثلاث على وشك الزواج، وأنك منذ أصبت بالفرحة لم تعد تشعر بذرة من القلق بشأن تجهيزهن رغم أن رصيدك بالبنك قد انخفض إلى تسعة وسبعين جنيهاً بعد ربع قرن أمضيته فى خدمة الدولة.

- ربنا على الظالم
- عنده الآن مارسيدس وفيلا على البحر بالإسكندرية
- مصيره ان يقع يوما
- مثله لا يقع لأنه مسنود
- يبدو أن كلهم لصوص أولاد كلب

فلماذا لا أفرح بيدى النظيفتين وراتبى الحلال. قد أكون شريفا بالمصادفة فالغيب لا يعلمه إلا الله، ولكن الحقيقة أننى لم أمد يدى للحرام حتى هذه اللحظة، وحيث أننى محسوب ضمن الشرفاء فمن حقى أن أكون فرحانا بغير حدود.

- أهذا وقته يا رجل؟
- الحى أبقى من الميت والمشوار طويل. قلت لك حجاز كار .
- وأنا أقول إنه مطعم بالصبا
- لم ألحظ ذلك على اللحن
- ليس ذنبى أن أذنك غير موسيقية

وكأن الفرح يمعن فى إحكام حصاره من حولى ، فأهل الفن يشاركوننى العزاء فى الفقيد أجمل مشاركة. أين انت يا ليالى الرقص والطرب والسهر حتى الفجر ووصل الليل بالنهار والنهار بالليل واستحلاب نعيم الدنيا وبهجتها؟.. أنساك الغم والكدر والسعى اليومى كل هذا وخيل إليك انها ذهبت إلى غير رجعة . ها هى الفرحة تبشرك بعودتها من جديد. تعالى أيتها الليالى ولا تفلتى من بين أصابعى مرة أخرى ولو شاب الشعر وتراخت العضلات. سوف أتشبث بأجنحتك الطليقة إلى الأبد لأطير معك فى فضاء السعادة الرحب. جاءت بك الفرحة ولن أدعك تذهبين منى. الشهيد عليه الرحمة ، سوف ينعم بجنات الخلد، فلأفرح لأجله ولتلتئم صحبة العود والكمان وليمتلأ الكون كله بأغنيات الحب حتى الثمالة.

لم لا أفرح؟.. دلونى أيها الناس على سبب واحد تكفهر من أجله أساريرى وتتقلص عضلات وجهى ويغضب قلبى وتغم نفسى... لماذا لا تفرحون معى بالوجود؟!

- أحبها بجنون
- وهى؟
- لا تبادلنى الشعور نفسه
- أتحب غيرك؟
- لم تبح بسرها
- إذن فدعها وتوكل
- لا أستطيع.. أنت لا تعرف الحب

أما أنا فأعرفه أكثر مما أعرف نفسى. أعرفه فى عينيها حين أستخلص منهما لعينى رؤية ما فى الدنيا من جمال. هى روحى ولحظتى الحاضرة والفائته والقادمة. كل أفراح الدنيا فى كفة وحبها فى كفه.. وكيف لا يكون هذا حالى ومقامى وانا ثمل بمحبتى لا أصحو... وأنا أعرفه

وأراه وأحبه فيها ومن خلالها. ينبوع فرحتى هى حين تبتسم أو تشرد أو تضحك أو تدمع عيناها الحبيبتان.

ما الحنان إن لم يكن حبيبتى، وما الدنيا وما معنى الوجود فى غيبتها؟.. لك الحمد يا رب على عطائك فاحفظها لى من كل سوء. بالله لا تتركينى يا حبيبتى مهما كانت الأسباب. أتوسل إليك يا خالق السماوات والأرض وما بينهما. لقد سلمت أمرى اليك، وفرحت بنفحتك فرحا لا يغضبك فأنا أعرف أنك لا تحب الفرحين.. فرحت بها الفرح الخالص الذى سوف يدفع بى يوما إلى الخلاص فأهديها فرحتى كاملة وأقترب منك وأقترب وأقترب، لعلى أكون يوما من عبادك المخلصين، فلابد للطالبين السالكين من المحبة ولابد للمحبين من الزهد فى الفرحة.

اقترب موكب الجنازة من منطقة شعبية تحفل بالضجيج والزحام وصراخ الأغانى الراقصة المنبعثة من أشرطة الكاسيت على المقاهى والحوانيت، حين بدأت أشعر بقرب وقوع كارثة. ذلك ان سيطرتى على فرحتى قد بدأت فى التضاؤل. انهارت كل أسباب المقاومة وسقطت كل المبررات وبدأت خلايا جسدى بكل دقائقها المجهرية ترقص بالفعل محرضة جوارحى على مشاركتها الفناء فى الله. وشيئا فشيئا فقدت اتصالى بالشهيد والجناز والإرهاب والعوز والبطالة والغلاء والفساد والديون وليالى العشق والنشوة، ووجدت نفسى أنسحب إلى أقرب مقهى وأشد مقعدا بثقة متناهية، ثم أقف عليه صائحا بيقين:

-أيها الناس !!!

فيلتف الجمع من حولى وعلى أفواههم ابتسامات ساخرة، وكأنهم فى أمس الحاجة إلى مجنون يزيل عنهم كدرهم ويكشف غمتهم.

- لماذا لا تفرحون؟!

وتتناثر الضحكات من كل اتجاه، لا عن رغبة فى الفرحة بناء على دعوتى، وإنما سخرية من تلك الدعوة، فكان عزائى أن هذا دائماً حال أصحاب الرسالات منذ قديم الأزل، فلا عجب أن أمتثل الآن لضميرى وأسلم لسانى وأذنى وكل جوارحى طائعا مختارا إلى تلك الأنغام الباطنية التى تعزفها الروح على مقامات الفرحة.. مستسلما لتقلبها وتنقلها بين القبض والبسط والصعود والهبوط والأنس والهيبة والحزن والطرب والشوق والوحشة والحب والفناء.

****

نشرت بمجلة حواء فى 2001/1/13

الفصل والوصل

****

لم أكن أعرف – إلى عهد قريب كم عدد البحيرات عندنا، وأين تقع على خريطة البلاد، كما لم أكن أعرف أن مياهها عذبة تنبع طبيعيا من الأرض وتصب فى البحر. أما أهم ما كنت – ومازلت – أجهله حقا فهو ذلك السر الإلهى السابح فى المنطقة التى تصل – وتفصل فى الوقت ذاته – ما بين البحر والبحيره، أو كما يقولون : ما بين المالح والحلو.

من هنا انتابتنى رغبة جارفة فى التعرف على هذه المعلومة الجغرافية الطبيعية، بدأت بالقراءة وانتهت بذهابى إلى أقرب بحيرة لمدينتى وهى بحيرة "إدكو".

عند المنطقة التى يمتزج فيها النهر بالبحر والتى يسميها الصيادون بـ "البوغاز" التقيت بصياد عجوز قرأت فى معالم وجهه الاستعداد الواضح لتحمل الحديث معى، بينما كان يطرح شبكته فى الماء ممسكاً ببدايتها وقد تجسدت على تضاريس وجهه وخطوطه الغليظة المتشابكة كل معانى الرضا والصبر بعد طول جدل مع متناقضات الحياة.

لم أبذل جهداً يذكر فى اقتحام عالمه البسيط الهادئ، ففى غضون دقائق قليلة كنا نتحدث كما يتحدث الأصدقاء. قال والسيجارة مدلاة من فمه وقد بلل رذاذ الموج جزءا كبيرا منها:

- فى هذه المنطقة يعيش سمك الحلو مع سمك المالح.

تناثرت حبات المياه على وجهينا بعد ارتطام موجة بالصخرة التى نجلس عليها، وشردت قليلاً حين تذكرت ما كنا ندرسه فى علم المعادن عن الطبقة الفاصلة بين المعدن وطلائه والواصلة بينهما أيضا والمسماة بالإنجليزية **The Transition Layer**.

لم أعاود انتباهى إليه إلا حين سمعته يقول فى وقار شديد:

- مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان. صدق الله العظيم

فقلت بانبهار تلقائى شديد:

- سبحان الله.

تجسدت العلاقة بين الماء والشمس والهواء والشبكة والسمك والرزق والحظ والحياة والموت جميعا على الكرمشات الجميلة تحت عينيه بتجاعيدها المتداخلة فى شكل هندسى بديع.

عاودنى الشرود حين انتقلت من عالم البحار إلى عالم المعادن إلى عالم الوجوه البشرية التى تفنن الخالق فى إبداعها على أكمل وجه، ولأول مرة أنتبه إلى مغزى نظراتها التى اتضح لى الآن فقط – وأنا أنظر إلى وجه الصياد العجوز – أنها لا تختلف فى جوهرها عن طبيعة المسافة الواصلة بين العذب والمالح، أو بين المعدن وطلائه الزجاجى.. تلك الطبقة التى تشتمل عناصرها المكونة لها على نسب لابد أن تتوازن فيها بين خواص المعدن وخواص الطلاء كيمائيا وطبيعيا وإلا تشقق الطلاء وانفصل عن المعدن وتركه عاريا معرضا للتأكسد والصدأ والتآكل.

لو لم ألتق بهذا الوجه النحاسى المريح، لما تبين لى كم أنا غرير ساذج يسيل لعابه وتنفتح مغاليق قلبه على مصاريعها حين تمن عليه محبوبته بنظرة هى الوعد والوعيد، مثلما هى المعدن والطلاء. الحلو والمالح.. الحلم والواقع!

وبحماس يقول لى الصياد:

- كم من أساتذة جاءوا وحللوا المياه هنا فعادوا مبهورين بالسر الإلهى.
- كيف؟
- المسافة لا تتجاوز أمتار قليلة يسبقها مباشرة ملح ويليها مباشرة عذب، وأما التركيز فلا يتغير أبداً.. هنا أو هناك!

تماما كالمسافة بين وجهها وقناعها.. تلك المسافة التى كانت خافية عن عينى وقلبى فلم أحسب لوجودها حسابا، لأن المسافة بين نوايای وأقوالى لا تتجاوز الصفر قيد أنملة .. تماما مثل هذا الصياد.

تقول لى هامسة فى دلال يمتزج بالحياء:

- أحبك . أحبك.

وتصب على وجهى نظراتها الواصلة الفاصلة فينساب من فمى نهر من حلو الكلام.. "قد ظمئنا فكان ريقك وردا .. وثملنا فكان خدك وردا .. جمع الله شملنا فوددنا .. أن بين الصباح والليل سدا .. أحبك يا غزالى يا قطتى ياوردتى ياعصفورتى.. أحبك".

البحر ثائر أمامى أما البحيرة فهادئة .. والسر قابع فى المسافة المائجة بينهما.. تستمع إلى غزلى فى نشوة وشبق. ويختفى السر فى المسافة. يذوب الأبيض فى الأسود. يا إلهى. كلما أمعنت النظر فى وجه الصياد تنهال على الرؤى وتسقط الحجب ويتوالى الكشف .. انها تستمتع حتى النخاع بذوبانى فى مسافتها الرمادية بين الملح الأجاج الفاصل والعذب الفرات الواصل .. تتفنن فى الحرص والحذر والريبة والتوجس. تدرك جيدا أنها لا تستطيع السيطرة والقيادة والتحكم إلا من منطقة البرزخ. لو أنها أقدمت أو تراجعت شبراً واحدا لأحبتنى مثلما أحبها وأطلقت قلبها من إسار عقلها الفولاذى، لكنها لا تريد .. رغم أنها تعلم علم اليقين أننى لا أعرف كيف أعيش بلا طمأنينة تمتزج فيها الحقيقة بالحلم فينصهران بلا مسافة. يتوحدان تماماً.

قال الصياد فى سكينة رائعة وهو يسحب الشبكة وقد امتلأت بالأسماك من القبيلتين مثلما امتلأ وجهه بفرحة هادئة:

- لا تتحرك من جانبى حتى الطرحة الأخيرة

أسعدنى أنه متفائل بوجودى فأومأت برأسى موافقا فى سعادة. قال بلهجة آمرة:

- ستتعشى معى اليوم إن شاء الله.

سوف تقول لى فى قلق والخوف يدب فى قلبها:

-لماذا لا تصدق أننى أحبك مثلما تحبنى؟

-لأنك لا تدركين كم أحبك .. وكيف أحبك.

وسوف تدرك بفطرتها أننى وضعت يدى فى قلب البرزخ. قلبت بها مياهه وحركتها يمنة ويسرة وصنعت بها دوامات ودفعت بها الماء فى وجه الفراغ وقادنى الصياد إلى منزله. تصاعدت رائحة الشواء فى فضاء المقابر. المسافة بين منزله ومقبرة أبيه لا تتجاوز أمتاراً قليلة تضم بعض البيوت الصغيرة، ولحم السمك شديد البياض شهى المذاق.

يقول العجوز إنه كثيراً ما يأتى فى الليل ليتحدث مع أبيه حتى أنه يكاد يسمع صوته كلمة بكلمة.. أشعل نرجيلته وبرقت جمرات الفحم بلون أحمر قان يشع بالدفء والحرارة ووهج المؤانسة فى ضوء القمر. قال وهو ينفث سحابة كثيفة من دخان المعسل الذى أحب رائحته:

-لم أشعر أبداً أنه مات

-كيف؟

-هناك وصل بينى وبين برزخه.

سوف يزداد خوفها من أن تصل يدى إلى عمق أكثر فى المنطقة الرمادية .. أنا اليوم أبصر وأسمع جيداً. صرت أستشف ضباب الفصل فى نظراتها وأسمعه فى نبراتها.

رائحة الشاى تتخلل سحب الأوهام الوردية .. أوهامى. أوهام الصياد العجوز وكل الذين عشقوا أوهامهم وعاشوا بها سعادة وشقاء دون حرص أو حذر .. المسألة تتلخص فى أنهم يطلقون لأرواحهم العنان على الأرض فى البرزخ. فى فضاء الكون العظيم.

ويرتشف العجوز الشاى بصوت مسموع .. يستحلب لذته فى أزير حاد يصل إلى مسامعى ممتزجاً بإنذار سرى قاطع بثته روح هائمة من حوله.

-احترس من وقود النار.

فأقول لها غاضبا حين ألقاها:

-أنت لا تعرفين الحب

وتتساقط دموع رمادية من المسافة الفاصلة الواصلة .. ولن أصدقها من جديد حين تقول:

-ورحمة أبى أحبك.

فأسألها بخبث طفولى:

-هل تشعرين أنه مات؟

-ماذا تقصد؟

-هل هناك وصل بينك وبين .....

ولا أكمل فلا تفهم ويعود بى العجوز إلى البوغاز .. يصافحنى وأتناول منه لفافة السمك ثم يفاجئنى بقوله مودعا:

-أنت رجل طيب جدا

وتنتابنى الدهشة فأسأله فى فضول شديد

-وكيف عرفت؟

قال بعينين لن أنساهما ما حييت:

-من نظرتك للمياه لحظة الامتزاج.

****

كف مريم

كنت أتصور أن الذى يدفع حركة الدماء ويضخ الحياة فى هذا الكيان الخرسانى المتصخر، إن هو إلا قلب قُدّ من فولاذ.. ولكن ما أن اقتحمت القلعة من بابها السرى الذى لم يهتد إليه أحد من قبل، إلا وجدت نفسى أمام قلب عصفورة صغيرة. قلب أخضر اللون زجاجى البنيان رقيقه .. يا الله .. أهذا قلب مريم؟! .. أم ترانى فى حلم جميل؟!.

اندفعت إليها بلهفة عمرى كله .. بخمسين عاما ولت فى ثوان .. بالعمر المتبقى الذى لن يكتب قبل القبلة الأولى .. بعينى طفل يرى الدنيا لأول مرة ولايعرف الضلال ولا الهدى.. بقلب شاب لا يخطر الموت بفكره. اقتربت بوجهى من وجهها . كانت وجنتها تفاحة حمراء صابحة، وكانت المسافة بين جبهتينا لحنا غامضاً يعزفه القدر.

تسلل أريجها إلى أنفى وكانت أنفاسها نبض الحياة منذ بدء الخليقة .. وعندما اقتربت المسافة بيننا كانت الدنيا بأسرها لقاءً حافلا يدعو إلى العناق .. وكانت الآخرة امتداد لها، فكانت الجنة وكانت النار، وكان التاريخ والتراث والدين والأعراف والأخلاق والأزل والأبد، ونسمة صيف لافحة وترنيمة طير أخضر رقيق .. ذابوا جميعاً فى عناق تلك المسافة الصغيرة الفاصلة بين وجهينا، والتى كلما انحسرت أشعلت حرارة الشوق فاستحال الانحسار إلى اتساع لا نهاية له.. كون سرمدى يعج بأسرار الخلق والبدء والانتهاء والوجود والعدم كان يشغل تلك المسافة زمانا ومكانا.

ما أروع أن تجتمع مائة عام بين شفاه أربع يتهددها الفراق الوقتى .. أن يذوب كل هذا العمر فى لحظة هى رشفة من رضاب الحب المسكر .. أن تهدر شلالات الذكريات بين أعطاف ذلك التّماس الشفيف الحانى، وأن يتكثف الوجود كله فى لحظة ملهمة تنصهر فيها الأسرار والمعانى وكل ما لا يقال وما لا يدرك بحرارة قبلة الخمسين، فحبيبتى مسافرة غدا.

وفى اللحظة التى تلاشت فيها المسافة واقتربت الشفاه اقتحمنا هاجس غامض متوحش لم أدر من أين جاء بسطوته وقوته وجبروته ليضع بيننا حاجزاً عنيدا على يد مريم تخفى به وجهها الجميل لتحول دون انتشاء اللحظة المقدسة!.. ويضيق فؤادها بالسر فيتفجر فى اللامسافة لحن القدر بقوة رعدية تحيل العناق إلى حرب قاسية يشتعل فيها الصراع بين النار والجنة، والشياطين و الملائكة، والحرام والحلال، والخيانة والأمانة.. على جبهتين تحارب إحداهما انتصار للحب والثانية لدموع الشفق.

-لا ...

شهقت بها مريم وقد تقطعت أنفاسها فى الهوة السحيقة الفاصلة بين وعيها ونقيضه، وقد أسفرت الحرب عن تمزيق روحها إلى شطرين تفصل بينهما تلك الهوة، ومريم عاجزة عن لم شملها فيها .. وكان الشارع خالياً من المارة، وكان السر حبيس جدران العربة، وأسلحة الأضداد مشهرة فى عقلينا بعد أن نجح ذلك المجهول الغامض فى حصارنا داخل عربة صغيرة فى شارع ضيق بمدينة مزدحمة، ودنيا الله واسعة بالمروج والصحارى والوديان والغابات والبحار والأنهار.

منعنا ذلك الهاجس اللعين من اللقاء على الملأ. حال دون خلوتنا فى مكان آمن. سلبنا القدرة على الكلام الحر. أفرغ عفونته فى ضميرنا الواحد المتوحد الذى لم يهتد الشر إليه، لتقول لى مريم بعينين دامعتين متوسلتين:

-لا ...

تقولها بنبرة عذراء مرتبكة فى العشرين لتحيل بحيائها روحى إلى رجفة يتنازعها الخوف والرجاء. يحرمون علينا الحب ويتمنون الوقوع فيه. يقيدون أرواحنا بالفولاذ فأرى على كف مريم – الماثل أمام شفتى – خطوط القتال وأنهار الدماء ومقابر الضحايا وصيحات الملوك وهدير الجنود وانهيال الرماح وتساقط الصواريخ وبكاء الآباء على الأبناء ومعاهدات الصلح وعناق الكذب وتوقيعات الزعماء على الوثائق .. وتبحث شفتاى عن شفتى مريم فلا تجدهما .. وتبكى مئذنة!

لا يامريم..

أنا الذى أقولها الآن .. أحبك فوق التصور. لن أخضع للابتزاز والكذب. أحبك صفحة إنجيل وتوراة ومصحف.. أقتلونى ومزقوا جسدى وبعثروا مزقه فى أرجاء الدنيا، لكنكم لن تحرمونى من قبلة الحبيبة!

يا مريم حطمى حصون الوهم وأغمضى نجمتيك الباهرتين لنور القمر. إنى قادر على هزيمتكم أيها الأوغاد، فلقد استحلت فجأة إلى وحش يمسك بكف مريم. يزيحها بقوة عن وجهها فتتساقطون كالذباب ولا نامت يا مريم أعين الجبناء.

ماذا فعلتم بحبيبتى يا أعداء الحياة حتى جعلتم فزعها منى يماثل فزعها منكم وأنا أمنها وطمأنينتها. أنا سكينتها ونشوتها ولن أكون لها غير لك.. فكيف أحتمل مشاهدة ذلك الفزع الرهيب فى عينى نجمتى العسليتين ولا أتراجع إشفاقا عليها؟!..

بالغدر انتصر الهاجس على لائى فابتعدت لأربت على ظهرها وأكتفى بتقبيل يدها ودموعى متحجرة فى عينى وروحى حبيسة ابتسامته الخبيثة الظافرة.

أحقا تسافرين يا مريم وتتركيننى وحيدا فى مواجهة الغرماء؟ .. أحقا لن أراك قبل مرور ألف وأربعمائة وأربعين ساعة يا أدق دقائق عمرى، ورغم ذلك تحول كفك المرتعشة بين شفتى وشفتيك حتى لا أقبلك؟!

انتزعت من روحى بسمة من يرى نهرا من حنانه يسيل من العربة إلى أرض الطريق وكنت أرى النجوم تتساقط أمامى والأقمار وأنا عاجز عن التقاطها.

وحين أدركت أن عمرى القادم لم يكتب بعد ، كان لابد أن نغادر الشارع ليعود كل منا إلى جدرانه الأربعة حيث عالمه المستقر القديم.

****

حكايتى مع الخواجات

-1-

فى الصغر سلمتنى أمى إلى الخواجة آندرز لأعمل بمصنعه مع الصبية فى تعبئة أكياس الشاى خلال إجازة الصيف لقاء خمسة قروش فى اليوم. بهرتنى شخصيته القاطعة المعالم والقرارات.

استرحت له وتمنيت أن أكون مثله عندما أكبر وأصبح مسئولا عن عمل. من يعمل يكافأ ومن يهمل يفصل ولا حل وسط. لم يكن الحب مبعث اهتمامه بى، فتلك كلمة لا يعرفها قاموس العمل عند آندرز. لكنه كان بالتأكيد معجبا بكفاءتى الإنتاجية وعزوفى عن الثرثرة مع الصبية وردودى المختصرة على أى سؤال يوجه إلى .. حتى أنه قال لى يوما:

-يابنى .. لقد ولدت فى المكان غير الصحيح!

لم أفهم ما يقصده تماما، حتى اصطحبنى يوما إلى مكتبه وأخرج لى كتيبا ملونا عن بلاده. راح يفر صفحات الكتيب ليفرجنى على مدينته التى غادرها منذ عشرات السنين. خرجت عن إطار زمانى ومكانى بفعل قوة خفية غامضة ورحت بكيانى كله إلى عالم خيالى مسحور تتجاذبه ألوان الزهور والبحار والجبال والطيور والمساكن الصغيرة ذات الطرز الأنيقة والأسقف القرميدية المخروطة والمحاطة بالحدائق من كل مكان .. وتساءلت فى ذهول:

-هل فى الدنيا مدن وبيوت ومناظر بهذا الجمال؟!

نظر إلى فى إشفاق وأضاف إلى يوميتى قرشا ومنحنى يوما إجازة. بلغت من السعادة غايتها حين قال لى بنبرة موحية:

-لو اجتهدت فى حياتك فسوف يمكنك أن تنعم بهذا الجمال.

ولكنى لم أجرؤ على سؤاله:

-فلماذا تركت إذن بلادك الجميلة وجئت إلينا لتعيش بيننا كل هذا العمر؟

فى المنزل حذرتنى أمى من أشياء غريبة. اندفعت الدماء إلى أذنى ونكست رأسى فى حرج والحسرة تملأ قلبى، فكيف تصدر من أمى مثل تلك الكلمات الشاذة عن عجوز طيب مثل الخواجة آندرز؟!.

أردت أن أعيد إليه قروشه وأترك مصنعه، ولكنها بحاجة شديدة إلى تلك القروش، فتراجعت عن فكرتى متوقعا أن يغفرلها الله سوء ظنها بالخواجة وقلة ثقتها برجولتى.

فى اليوم التالى بدأ آندرز يدربنى على العمل فى ورشة الصيانة قائلاً إنه يضع بذلك أول حجر أساس لمستقبلى. فى خلال فترة وجيزة أثبت كفاءة أذهلت آندرز حتى أنه أصبح يعتمد على مهارة أصابعى فى تخليق بعض قطع الغيار غير المتوفرة بالمخزن. ثم عيننى مساعدا للخراط بعد أن طرد صديقى "سوكة" – المساعد القديم – بتهمة محاولة السرقة.

عندما اقتربت الإجازة الصيفية من الانتهاء قال الخواجة لأمى:

-إصرارك على تعليم الولد سيضيع عليه فرصا لا تعوض كخراط محترف

-أتضحك علىّ يا خواجة؟! ..خراط محترف عمره خمس عشرة سنة؟

-إبنك ياسيدتى صانع عبقرى والفلوس أهم من التعليم. صدقينى حتى لا تندمى .

وقال "سوكه" باكيا:

-والله العظيم أنا برىء.

-أنا عارف والله

-منه لله قطع عيشى ولوث سمعتى

-المهم أنه لم ينجح فى أن يفرق بيننا.

وفى المساء قلت لأمى بحرقة:

-أوحشتنى المدرسة يا أمى

نظرت إلى فى توجس ثم أخبرتنى بنبرة استفهامية مثقلة بالتردد:

-تقابلت اليوم مع الخواجة و .....
انتظرت أن أسألها عما انتهى إليه اللقاء ولكنى سألتها بإهتمام:
-هل اشتريت لى حقيبة العام الدراسى الجديد؟
لم تجد بدا من عرض القضية على صاحبها فربما خفف ذلك عن كاهلها قليلاً. قالت فى حياء:
-ينصح الخواجة بأن تترك المدرسة وتتفرغ للورشة
رغم صغر سنى قلت بلا مبالاة محسوبة:
-اتركيه لحاله إنه رجل مجنون
تبددت حيرتها وقالت وهى تتنهد:
-غدا إن شاء الله أشترى لك الحقيبة

-2-

فى عمر الشباب أحببت كريستينا إبنة جارنا الخواجة أسطفانوس صاحب محل البقالة الذى يقع بجوار بيتنا مباشرة. علمتنى أن أقرأ لبلزاك وجوركى وجوجول. علمتها كيف تقرأ سورة مريم وشرحت لها معانيها من كتاب التفسير، كما علمتها أمى كيف تطبخ محشى الكرنب والكوارع بالحمص والدمعة، أما هى فعلمتنى كيف أرقص برشاقة على أنغام التانجو والديسكو .

لم يخطر ببال أبى أن تنشأ بينى وبين كريستينا علاقة عاطفية، فقد اعتاد الجميع أن يرونا نلعب معاً كأخ وشقيقته منذ الطفولة.. والحقيقة أن كريستينا كانت تتمتع بالعديد من الصفات الجادة التى تميز معظم الرجال، مما ساعد على انتفاء أية شبهة حول علاقتنا الراسخة.

وحين بدأنا نروى زهرة حبنا النضرة من ماء الشباب الدافق بالحيوية والجنون، ازداد تعلق كل منا بالآخر حتى انكشف أمرنا وبات المستور مفضوحاً أمام الجميع.

ثارت ثائرة الخواجة اسطفانوس. جاء الى بيتنا يهدد أبى ويتوعده ويعيره بالفجوة العميقة بين مستوانا ومستواه الاجتماعى. لم يسكت أبى – رغم مفاجأته بما حدث – وإنما صدمه بالحقيقة قائلاً:
-ما الفرق؟ أنت بقال وأنا ميكانيكى. أنا صاحب البلد وأنت ضيف. أما مكسبى فأضعاف مكسبك؟!

خفت حدة هياج الخواجة حين تيقن من قوة خصمه. تحولت عنصريته المستترة إلى ما يشبه الاستكانة أو التواضع المصنوع حين قال بأدب:
-من فضلك ابعد إبنك عن بنتى.
صاح أبى فى حسم:
-ابنى ليس لعبة فى يدى يا خواجة. هو حر فى حياته. قل أنت لابنتك أن تلم نفسها.
.. ويوم مات أبى مشى الخواجة فى جنازته وبدا كما لو كان حزينا على فراقه. وبعد الجنازة بعدة أيام جاءنى بعرض جيد للعمل فى شركة كبرى باليونان بحاجة إلى تخصصى النادر فى الميكانيكا. فرحت به وشكرته وطلبت منه أن يمهلنى وقتا للتفكير.

حين اختليت بكريستينا قالت إنه يريد إبعادى عنها ونصحتنى أن أرفض العرض. استجبت لرغبتها رغم حاجتى الشديدة إلى المال لأدبر به شئون أسرتى المرتبكة، ووعدتها ألا يفرق بيننا إلا الموت. كان دخلى من وظيفتى متواضعاً فطلبت من كريستينا- على استحياء -أن تمهلنى لعامين حتى أدبر نفقات الزواج. أدهشنى أنها انفجرت فى الضحك فجأة فسألتها:
-ما الذى يضحكك؟
-هذا الزواج الذى تتحدث عنه
-ألا تحبيننى؟
-بالطبع أحبك ، ولكن ما علاقة هذا الأمر بالزواج؟
-أنا لم أطالبك بتغيير دينك.
-ليس السبب هو اختلاف الديانة أيها الشرقى الساذج.

-إذن فما السبب؟
-لست مضطرة أن أوضحه لك
أسرعت إلى أبيها وأعلنته بقبول العقد فقال لى:
-هذا عين العقل يابنى.
وسافرت إلى اليونان وانقطعت صلتى إلى الأبد بكريستينا وأبيها.

-3-

فى اليونان أثبت كفاءتى فعينت مندوبا متجولاً للشركة فى العديد من دول أوروبا. كانت فكرة الزواج تلح على من حين لآخر أملا فى حياة مستقرة وأسرة سعيدة ... لكنى لم أفكر يوماً فى الزواج من أجنبية لأننى لم أعد أتصور الزواج من امرأة لا تعرف أن تقول لى فى ثورة غضبها:
-يا شيخ بلا نيله!!
لم أشعر بدفء البيت والوطن فى أى بلد زرتها. كنت أشعر أننى ريشة خفيفة تطيرها نسمة هواء رقيقة قد تهب فى أية لحظة. لم يكن شعورى المكثف بالغربة ناجماً عن ضيق ذات اليد أو صعوبة العمل، إذ أننى جمعت مالا وفيرا وأنجزت أعمالاً ناجحة عديدة، وإنما هو إحساس بالبرودة والخوف والاختناق.
وحين استقر بى المقام لفترة طالت فى أمريكا عرفت "كاتيا" . بهرت بمصريتى وأسمتنى بـ "الفرعون المهيب" وبذلت أقصى ما تستطيع أنثى أن تبذله للإيقاع برجل. أصبحت على يقين من أنها تحبنى فتزوجتها لأحقق لها أمنيتها بالحصول على فرعون صغير منى.. وجاء الفرعون فملأت به دنياى حبا وسعادة، ويا شيخ بلا نيله! كانت أحوالى مستقرة فى العمل حتى ظهر الخواجى "بربونى" اليهودى الأمريكى ذو الأصل الإيطالى، فأحال حياتى إلى حجيم من الغم والكدر. ظل يوقع بينى وبين رؤسائى ويدبر ضدى المؤامرات للتشكيك فى قدراتى المهينة وكان يسمينى فى غيابى بالمتخلف!
ولما نجح مسعاه لم يبق أمامى إلا العودة إلى وطنى وكفى الله المؤمنين شر القتال. لكن محبوبتى رفضت قائلة انها لا تستطيع الحياة فى الصحراء لأنها تكره الجمال والحمير ولأنها لا تطيق الذباب والضجيج والزحام، ولا يمكنها أن تطمئن على فرعونها الصغير من طلقات رصاص الإرهابين الدمويين المتعطشين إلى حكم دولة فقيرة تعانى من أعباء ديونها الخارجية الباظهة.
لم أنجح فى إقناعها بشتى السبل، ولما هددتها بالطلاق لم تعبأ وقالت انها تستطيع الحياة بدونى مع فرعونها الصغير وإن لديها العديد من الأصدقاء الذين سيعوضونها عن غيابى كثيرا!
قررت ألا أحرمها من فرصة أخيرة فاصطحبت الولد فى غيابها وتوجهت به إلى المطار للسفر إلى القاهرة وتركت لها رسالة بها عنوانى فى مصر وكلمات رقيقة أتوسل بها إليها أن تحكم عقلها وتأتى مصر حين تشاء.
أمام بوابة المغادرة فى المطار ألقى البوليس القبض على وحوكمت بتهمة "اختطاف إبنى" ! وصدر على حكم بالسجن والغرامة .. وبعد السجن عدت إلى بلدى فرعونا وحيدا محطماً.

-4-

فى الأربعين من عمرى سألنى المستر جاكسون الخبير الإنجليزى:
-كم تتقاضى راتبا عن وظيفتك هنا؟
-ما يعادل ستين جنيهاً استرلينيا.
انفجر الخواجة فى ضحك متواصل.كان واصحا أنه يسخر من ضآلة الراتب فسألته:
-كم يتقاضى من يشغل مثل هذه الوظيفة فى بلادكم؟
-على الأقل ألف استرلينى.

أوضحت له طبيعة المعادلة الاقتصادية فى بلادنا وعلاقة الأسعار بالأجور فى ظل التضخم واختلال ميزان المدفوعات وزيادة النسل المطردة وقلة موارد العملة الصعبة وما إلى ذلك ... قال لى إن الحل الوحيد لأزمتنا الاقتصادية هو تطبيق نظام السوق الحرة تطبيقاً كاملاً كما هو الحال فى كل الدول الرأسمالية المتقدمة، ثم أردف قائلاً:

-كل ما تسوقه من أسباب هى مجرد حجج باطلة يتشدق بها حكامكم الفاشلين ليظلوا قابعين على أنفاسكم حتى الموت.

-5-

جاء هذا الخبير إلى مصر ليشرف على تركيب ماكينة جديدة بالمؤسسة التى عملت بها مؤخراً. سألت عن أجره فعلمت أنه يتقاضى عن اليوم الواحد ما يقرب من سبعمائة جنيه استرلينى بالإضافة إلى مائة جنيه مصرى كمصروف جيب ومائتى جنيه "بدل سكن"، وذلك بناء على تعاقد رسمى بين مؤسستنا والمؤسسة الموردة للآلة. فى البداية تصورت أن هناك خطأ ما فى تقدير مثل هذا المبلغ الباهظ كأجر يومى للخواجة، وكان لابد أن ألفت نظر أحد كبار المسئولين إلى ذلك حتى أريح ضميرى على الأقل. ثم إنى كنت معتقدا أن خبرة هذا الرجل فى التركيب لابد أن تكون مستندة إلى مؤهل علمى شديد التخصص نادر الشيوع، وإلا لما وافقت المؤسسة على منحه تلك الثروة اليومية التى تكفى للإنفاق على أسرة مصرية متوسطة الحال لمدة عام كامل. وبالبحث والتحرى تبين أنه حاصل على شهادة فنية متواضعة تعادل فى بلادنا الدبلوم المتوسط. غير أن شاربه الأبيض ووجنتيه الحمراوين وجسده الفارع وخيلاءه الشديد قد ساهموا جميعاً بقسط كبير فى تضخيم قيمة سيادته – المادية وغير المادية- فى عيون السادة أبناء البلد المحترمين والمسئولين عن تحديد رواتبنا ورواتب الخبراء من الخواجات.

لم أستطع كتمان غضبى فقررت إثارة الموضوع على أعلى مستوى بالمؤسسة باعتباره جريمة فى حق الوطن والمواطنين. توجهت إلى نائب الرئيس لأستفسر عن ملابسات وقوع هذه الجريمة وللبحث عن أسرع وسيلة لإيقاف نزفها المستمر. كان هناك جمع من المنتظرين بمكتب السكرتارية فانضممت إليهم وجلست منتظراً دورى فى الدخول. فجأة جاء الخواجة جاكسون فاندفعت السكرتيرة واقفة وتبعها الجميع فى تلقائية غريبة. جرت السكرتيرة إلى باب النائب ففتحته ودخل الخواجة – دون انتظار – تسبقه ابتسامته الصفراء الظافرة المتعالية.

من خلال الباب نصف المفتوح لمحت النائب يقف منتصبا كجندى منضبط حين رأى الخواجة، وبابتسامة عريضة ساذجة ترك ضيوفه وأهملهم وراح يرحب بحرارة بالخبير الإنجليزى.

غادرت المكان وعدت إلى مكتبى متباطئاً منكسراً حزينا.

-6-

بعد إحالتى إلى التقاعد وزعت يومى بين الاستماع إلى نشرات الأخبار بالراديو والذهاب إلى المسجد للصلاة والاستماع إلى القرآن الكريم.

كلما استمعت إلى النشرة طاردتنى أشباح آندرز واسطفانوس وبربونى وكاتيا وجاكسون فى كل مكان بالعالم. أرى أيديهم ملطخة بدماء المسلمين من البوسنة وحتى العراق وفلسطين، فأستمع إلى القرآن بقلبى وغالبا ما تنتابنى الرغبة فى البكاء لكنى أبتسم.

****

عشرة قصص قصيرة جداً

1- السقف:

هرولت إليه شاكيا باكيا سوء حالى وتشرد عيالى، فقد انهار بيتى الصغير. فى البداية هنأنى بنجاة أسرتى من الموت ثم وعدنى بأن يتوسط لى لدى المسئولين لتدبير مأوى عاجل لأسرتى. غمرنى بكرم ضيافته وسخاء يده حتى كدت أذوب خجلا من إنسانيته. لكنه حين وقف يودعنى كانت نظراته نارية وهو يقول لى:

-لا تنم تحت سقف مهدد بالسقوط!

2- النظرية الجديدة:

لم يقض لى مطلبى إلا بعد أن رشوته بناء على طلب صريح منه. ولما سألته كيف يبرر موقفه هذا لنفسه، قال بثقة إنه يساهم بإيجابية فى تحقيق نظرية التكافل الاجتماعى الإجبارى بين المواطنين. ومضى يفسر نظريته قائلا إن الناس لا يستجيبون لقوانين السماء التى تكفل العدالة للجميع فلا يدفعون زكاة ولا صدقة، كما أنهم لا يستجيبون لقوانين الأرض المماثلة فيتهربون من الضرائب، ولهذا كان لابد من اختراع النظرية الجديدة.

3- الخصمان:

كانا خصمين لدودين تضاربت المصالح واشتعلت بينهما أوار حرب ضروس لا تنتهى. لكن أحدا منهما لم يتمكن من القضاء على خصمه. ولم يبق الزمن كدأبه على حال، إذ شاءت الظروف أن يتفقا معا على خصم ثالث فكانت حربا من نوع جديد، تضافرت فيها الكفاءتان وانتهت بضرب خصمهما فى مقتل. تأملت ما حدث وقلت لنفسى:

- ما أهون الكراهية حين تفرق بين الناس إلى الكراهية حين تجمع بينهم!

4-- الوريث:

فى لمح البصر وقعت الحادثة وتهشمت العربة فقتل الرجل وزوجته ونقلت الجثتان إلى المستشفى. وقع المحقق فى حيرة أمام الشهود ليعرف أيهما صعدت روحه إلى بارئها قبل الآخر. سألت عن أهمية هذا الأمر فاتضح لى أن الذى تصعد روحه أخيراً هو الذى يرث من صعدت روحه أولاً!

5- الحلم:

اقتحم على خلوتى مبتهجا بتحقيق حلمه القديم. نظرت إليه فى فضول شديد. قال وأنفاسه تكاد تتوقف:

- لقد رأيته رأى العين.
- إذن فصفه فى أدق تعريف مختصر.
- رأس ثعلب وقلب عصفور وقبضة من فولاذ!

6- الحب فى الوقت الضائع:

غابت عشرة سنين فى سفر وجاءت ملهوفة تخاطبى فى الهاتف:

- كيف حالك. هل أنت بخير؟ أما زالت معافى؟ أخشى ألا أعرفك حين أراك.
- أنا بخير. الجديد هو بياض شعر رأسى، أما العافية فخضعت بالطبيعة لحكم الزمن.
- ألن تكون قادراً على مواصلة حبى؟
- أحبك ولكن احذرى.. فلم يبق أمامنا إلا الوقت الضائع!.

7- المستقبل:

كنت أستمع إلى أغنية قديمة لأم كلثوم فى التليفزيون حين جاء ابنى يحدثنى بحماس شديد عن تخطيطه للمستقبل وتطلعاته الجامحة للشهرة فى عالم الفن الحديث. أمعنت النظر فى استغراق "الست" فى الغناء وذوبان القصبجى فى عوده وعبده صالح فى قانونه والحفناوى فى كمانه.

كنا نقرأ لطه حسين وعباس العقاد فماذا تقرأ اليوم يا بنى؟ .. كنا نجد القدوة حين نبحث عنها فى أى كهف فأين تجدها اليوم يا بنى؟ لم أشأ أن أحبطه فدعوته للصمت علّه يتعلم كيف يستمتع معى بالاستماع.

8- الاختيار:

وقفت أمام بائع الكتب أجتر فراغى. لفت نظرى كتابان متجاوران على أحد الأرفف عنوان الأول "ما ينفع المسلم من البخارى ومسلم" ، وعنوان الثانى "عاشق الأختين". أردت مداعبة البائع دون رغبة فى الشراء فسألته بوقار أن يقترح لى أحد الكتابين لأقرأه. أجابنى بوقار أشد:

- اشتر الكتابين على أن تبدأ بقراءة الثانى ثم تعقبه بالأول مباشرة.

ظننت أنه ينتهز الفرصة لرفع مبيعاته. لكنه أثبت لى صدق نيته حين سألته عن الحكمة من هذا الترتيب فقال لى:

- العبرة بالخواتيم ومن الخير أن تأخذ بالأحوط!

9- الماضى:

حكمت على الظروف القاهرة ألا أعيش زمنى أبداً. فى الطفولة عشت مرحلة الصبا بحكم اليتم والاضطرار للعمل المبكر. فى الصبا عشت الشباب إذ نفر منى الصبية لاعتقادهم بأننى أتعالى بأفكارى عليهم، وفى الشباب عشت كهولتى فلم يكن لدى متسع من الوقت للحب والمرح. وهأنا أعيش اليوم شيخوختى المبكرة قبل الأوان وبلا أمل.. إننى لست حزينا على مراحل عمرى التى لم أحيها فى حينها، لكنى أستثنى منها طفولتى الضائعة.. أفديه بعمرى كله من يعيدها إلى!.

10- الحل:

أهلكنى القلق فسألتها الحل فقالت:

- يجب أولاً أن تعرف موقعك على الكوكب بعد أن تعرف موقعه من الكون وموقع الكون من صاحبه.

قلت لها:

- كم انهكتنى المعرفة

قالت:

- لا جدوى من معرفتك ما لم تكتشف تفاهة المسألة وتدرك مدى عجزك.

شربنا حتى الثمالة وقالت فى أسى:

- ليتك تستطيع العثور على الكلمات التى لم تقلها.

قلت لها بثقة شديدة:

يبدو أن الحل ليس سهلا كما يتصور البعض.

****

القصة المكررة

ظهر فى حّينا فجأة. استأجر شقة صغيرة فى بيتنا يقيم بها وحده. نراه يوما بطوله جالسا إلى المقهى ويوماً آخر بالمسجد ويوما لا يفارق شقته، وحين تعبق رائحة البيت بالبخور فهذا ينبئ بوجوده.

دائما هاش الوجه وان كان لا يحادث أحدا إلا فيما ندر. ظن البعض أنه مجذوب وظن البعض الآخر أنه هارب من حياته لسبب غامض.

شديد الطول نحيف القوام وإن كان يبدو فى أتم صحة رغم تجاوزه الستين. كثر تهامس النسوة عنه. قلن انه فقد أسرته بكاملها فى حادث. قلن إنه مصدوم فى زوجته أو فى ذريته. ولم يخل الأمر من حديث عن وسامته وعن ذلك البريق الغامض الذى يشع من عينيه.

دفعنى الفضول إلى الاقتراب منه فى حذر. فتشت فى الظروف المحيطة وفى خفايا النفس عن موضوع يصلح كمدخل إليه، يليق بوقاره ولا يصطدم برغبته فى الوحدة، فلم تسعفنى القريحة بشئ ، ومما زاد من حيرتى أننى لم أوفق فى اختيار المكان الأنسب: أيكون المقهى أم المسجد أم شقته العبقة برائحة البخور؟!.

بدأت بالمسجد. تعمدت الصلاة بجواره. صافحته بعد الختام فابتسم فى وجهى وقال:

- **تقبل الله صلاتك يا بنى.**

ثم انصرف عنى إلى تسبيحاته. ظللت انتظر لفترة طويلة حتى يفرغ من استغراقه الشديد فى عالمه ولكنى لم أطق صبرا فقلت إن المقهى سيكون أنسب.

حين أقبلت عليه كان يدخن النارجيلة فى شراهة أهل الدنيا. رحب بى ودعانى لتناول كوب من الشاى . تحررت قليلا من توترى وارتباكى وأعددت نفسى لاقتحام سره، لكنه فاجأنى بابتسامة واثقة وهو يسأل فى رقة واستكانه:

- **ماذا تريد منى؟**

لم أدر ماذا أقول له على وجه التحديد. أجبته متلعثما ولكن فى صدق:

- **نحن جيران وأنا فى شوق للاقتراب منك.**
- **لماذا؟**
- **لست أدرى**
- **كم عمرك؟**
- **أربعون عاما.**
- **ماذا تعمل ؟**
- **أعمل مدرسا.**
- **ما أقدسها من مهنة. لعلك تقدركم هى عظيمة مسئوليتك**
- **نعم أقدر ذلك ولكن ما عملك أنت؟**
- **أنا لا أعمل حاليا**
- **فماذا كنت تعمل من قبل؟**
- **لم أترك مهنة الا وخضت غمارها حتى أصابنى الملل.**
- **وكيف تكسب قوت يومك؟**
- **مستورة والحمد لله.**

لم يكن مبالغا فى قوله إذ اسفرت رقابتى المكثفة لتحركاته عن اهتدائه الدائم فى يسر إلى فقراء الحى، حيث يغدق عليهم من خيرات ما لم يحلموا به. لكنى سألته متطفلا.

- **أبحاجة أنت إلى عمل جديد؟**
- **لا، فقد انتهى عهدى بالعمل. أنا الآن أنشد الراحة والخلود والصفاء**

ثم أشاح بوجهه عنى وكأننى لست جالسا بجواره.. هام فى شرود عميق ثم قام فجأة ودفع ثمن المشروبات للنادل، وحين تذكرنى قال فى هدوء:

- **السلام عليكم.**

وانصرف مسرعا إلى شقته المواجهة لشقتنا مباشرة.

منذ سكن هذا الغريب بيتنا الحافل بالضجيج والشغب، حل به السلام وسكنته الطمأنينة فامتنع الشجار وانقطعت أسباب الخلاف وبات الناس يتساءلون عن سر المحبة التى ثملوا بنشوتها فى غفلة من الزمان.

فى المساء كنت أفكر فيه بعمق والحيرة متمكنة منى، ورغبتى فى النفاذ إلى سره قد تضاعفت، حين ترامى إلى سمعى عزف شجى على العود صادر من شقته.

كان أفراد أسرتى يغطون فى نوم عميق، بينما خيم صمت غير عادى على البيت بأكمله فى تلك الليلة لغير ما سبب.

جلست بكل حواسى أستمع إلى العود فى نشوة وسكنية وخشوع. لم أدر أن الدموع تنساب فى غزارة على وجهى إلا حين توقف العزف.

وجدت نفسى مساقا بقوة مجهولة أطرق بابه فى رجاء أصيل. فتح الباب وبدا أنه لم يفاجأ بزيارتى. قال بابتسامته المعهودة:

- **أمازلت مصرا؟**
- **بل إنى أتوسل إليك.**
- **أدخل**

قبل أن أجلس أمرنى بالوضوء فتوضأت ثم سألنى.

- **هل صليت العشاء؟**
- **نعم عقب الأذان مباشرة.**
- **إذن فلتصل ركعتين شكرا لله على قبولى لك**

شعرت لأول مرة بشئ من الاعتراض على هذا الغرور العارم، فمن يظن بنفسه هذا الطويل المبتسم الغامض؟! لكنى حين صليت فما كان شكرى لله على قبوله لى كما طلب، وإنما على نعمه التى لا تحصى.. لمحت العود موضوعا على أحد المقاعد فقلت له بحرارة:

- **إن عزفك مؤثر للغاية.. هل أنت موسيقى؟**
- **قلت لك إننى أمارس شتى الحرف.**
- **لكن الموسيقا فيما يبدو هى حرفتك الأساسية.**
- **الموسيقا ليست حرفتى وانما هى دنياى التى غرقت فى لجتها حتى اليأس**

تأملت كلماته بحرص حتى أفهم مرماه بينما كان يرقبنى فى فضول، ثم سألنى.

- **هل مازلت مصرا؟**
- **بل لقد ازداد إصرارى.**
- **سوف أرهقك.**
- **سأتحمل.**
- **ولا تسألنى عن خصوصياتى مرة أخرى.**

كلما ازداد استبداده بى وجدت نفسى أزداد خضوعا لسحره وسطوته. نسيت فضولى الطاغى لمعرفة سره وتنازلت عنه فى لحظة دون أن أعرف لذلك سبباً.

- **لن أسالك وسأكون طوع أمرك.**
- **فلتبدأ بحفظ القرآن.**
- **كله؟!**
- **كله**
- **قد يستغرق هذا سنين عديده.**
- **ثم عليك بتعلم العزف.**
- **لكنى أفتقد الموهبة**
- **لو لم تكن موهوبا لما أتيتنى دامعا.**
- **لو تفرغت لحفظ القرآن وتعلم الموسيقا فلن أجد وقتا لممارسة مهنتى التى أرتزق منها.**

- أحترس فى انتقاء كلماتك فلا أحد يرتزق من مهنته.
خشيت الاستمرار فى المجادلة حتى لا يحرمنى من مجالسته لكنى لم أستطع أن أمنع نفسى عن رجائه.
- سؤال أخير لا أستطيع كتمانه.
- اسأله.
- ما الحكمة من وراء ما تطلبه منى؟
- لن تستوعبها الآن.
- لماذا؟
- الطريق طويل رغم قصره والزاد قليل رغم وفرته.
- أغثنى بها من فضلك وكرمك.
تفرس فى وجهى طويلا ثم قال بثقة شديدة:
- الجميع يرحلون.. والقصة مكررة.
..ثم دعانى إلى مشاركته الطعام والشراب.

تقاسيـم قصصـية

الدخول:

تمنـى أن يعمـر طـويلا. عـاش عمـره محافظـا محـاذرا يخشـى العلـة والمـرض. تجنـب الانفعال والكدر. تحاشى الحزن والضجر. مارس الرياضة بانتظام. لم يعرف السيجارة أو الكأس والسهر.حضر أفراح أبنائه وبناته. داعب أحفاده وأبنـاء أحفـاده.. ولمـا تجـاوز المائـة وهاجمتـه شياطين الشيخوخة أيقن أنه مهزوم لا محالة. فلا المال ولا الأبناء ولا الأحفاد أعانوه على صد ذلك الهجوم الشرس.

مقام أول:

فى البداية لم أفهم الحكمة من أن أكون الطفل الوحيد فى الحارة الذى لا أب له. ثم تطور الأمر إلى شعور بالغيرة والالم، وكان عذابى فوق احتمال طفل. سألت أمى فى لوعة.

- **كيف مات أبى؟**
- **سقط فجأة ودون مقدمة.**
- **ألم يكن مريضا؟**
- **بل كان صحيحا فوق العادة.**

حالت فطرتى دون الجرأة على التمادى فى المزيد من الأسئلة، وفى تلك اللحظـة زرعت فى قلبى بذرة الإيمان.

مقام ثان:

عولت على الحب كثيرا فمنحتها قلبى وروحى. ظننت أن الحب يغنينى ويعطينى فلم أعد أريد شيئا. عشت حياة الاستغناء فكنت ملكـا متوجـا بالرضـا والحبور. عرفت الفرحـة فرقصت وطربت وأكلت وشربت وانتشيت وكان طعم نومى لذيذا. ثم غابت عنى إلى غير رجعة فتعلمت أن كل شئ الى زوال، وان البديل عن التسليم بالقدر والاستسلام لـه هو الجنـون. اعتصرنى العذاب قبل أن أدرك أنه من الحكمة ألا يعول الإنسان على شئ أرضى.

مقامان متداخلان:

استبدت بى الرغبة فى النجاح والتفوق والتفرد. كان خصمى عنيدا فاحتدمت بيننا حرب طاحنة لا تنطفئ نيرانها ولا تكف قنابلها عن الانفجار. كانت براكين الحقد والغيرة والغضب تشتعل فى صدر كل منا حين يحقق الآخر نصرا مرحليا عليه. تبددت معانى القناعة والرضا وتسربت السنوات دون حياة ولم يكف أحدنا عن القتال.

وفى معركة ظنناها حاسمة ظهر فجأة خصم ثالث فقضى علينا معا.. وفتحت قبضة يدى متفحصا ما بها فلم أجد شيئا.

مقام ثالث:

وقفت أرقب البنايات الشاهقة التى قمت بتصميمها وتنفيذها. ها هى تمتلىء بالسكان. تضم بين جدرانها قصص حياة جديدة لا أحد يعرف نهاياتها المحتملة. أمعن النظر فى عيون المتزوجين حديثا. تسعدنى رؤية الأمل فى حدقاتهم يشع بريقا متوهجا، فما أسعدهم بحدود رؤيتهم الضيقة، وما أتعسنىبحكمتى، وما أعذب الجنون.

تمردت على أيامى وعشت حياة جديدة حافلة بكل مثير. دمرت كل نظام يخضعنى للثبات أو التكرار أو حكم العادة. أسافر. أبيت يوما فى فندق ويوما عند صديق ويوما فى بلد آخر. أسهر حتى الصباح يوما وأمضى يوما آخر بطوله نائما بلا طعام أو شراب. أنهل من نبع الحب حتى آخر قطرة وأضحك واقهقه وأبكى على فراق الأحبه... وفى النهاية كان لابد أن أعود، أما لماذا فهذا ما لست أعرفه.

مقام رابع:

عابر سبيل التقيت به لأول مرة.. تحدثت معه بمودة عجيبة. كان الصفاء يغمر وجهه. أفرغت بأدق أسرار حياتى فى قلبه دفعة واحدة. قادتنى إليه المصادفة فقادنى إلى صحبته

لأشاركهم النشوة. التقيت بقوم ذوى حدائق غناء رابية فى صدورهم، تعبق روائحها بالمسك والفل والياسمين. انعكست ابتساماتهم الشفيفة على روحى فشعرت أننى أخف وأخف ولم أدر بنفسى إلا طائرا فى جنة من الأحلام الملونة. غمرتنى نفحة من النور حولتنى إلى وهج موسيقى يتألق بنشوة الحب الأزلى الخالد.. فيالها من مصادفة، وياله من عابر سبيل التقيت به لأول مرة ولم أعثر عليه بعد ذلك أبداً.

عدة مقامات متداخلة:

كانت رحلتى طويلة لكنى كنت أخفف من إرهاقى بالتوقف عند محطات عديدة. أنفض أحمالى عن كاهلى وأتحرر من ملابسى ولحمى وجلدى حتى أسترخى فى سلام غير عابى بشئ. بعد ذلك أواصل رحلتى فى هدوء دون أن أنظر خلفى، حتى أتوقف عند محطة تالية. غير أنى كنت فى بعض الأحيان أواصل السير بلا توقف رغم مرورى أمام بعض المحطات.

تعرضت فى الطريق للسرقة من الزمن عدة مرات، وكلما أخذت الحذر منه مرة نسيت فى المرة التالية فسرقنى من جديد.

وفى يوم اقتربت من محطة عنوانها "ان الباب الذى تدفعه ريح المقارنة لا ينفتح إلا على جحيم".. فأدركت أن رحلتى قد أوشكت على نهايتها.. وحين خلعت عنى كل شئ ونمت كان شخيرى عميقا.

الخروج:

واجه التأفف والتضرر ونظرات الاهمال والتهرب ونكران الجميل بروح متسامحة وعقل واع بكارثة الوجود وجماله. لكنه تمنى أن لم يعمر طويلا.. وفى مرحلة متأخرة أدرك أن أفراحه وأتراحه وأبناءه وبناته وضياعه وممتلكاته، لم تعد جميعا أكثر من ذكريات غير جديرة بالتذكر.. واستسلم فى هدوء لقدره المحتوم.

****

أخـــى

حـين قصـد رجـل أخـا لـه فـى الله يسـتعين بـه علـى أداء ديـن عاجـل فأعطـاه مـا يريد، ثم دخل على زوجته يبكى، قالت له فى دهشة بالغة:

- ما يبكيك وقد كان فى وسعك أن تعتذر له ولا تعطيه؟

أجابها والندم يمزقه:

-ما على المال أبكى ،ولكنى أبكى لأننى ضيعت حق أخى فلم أتفقد حالـه، حتى حملتـه على أن يسألنى.

بهذه الشفافية الروحية كان أخى يعاملنى طيلة حياته، فقد كان ميسور الحال ذا تجارة واسعة ورزق وفير. أما أنا فقد كنت ومازلت أكن له بالغ المودة والامتنان على أخوته الحقة لى. كان يختلق الأسباب والمناسبات حتى يفيض علىّ من كرمه بحنان بالغ دون أن يشعرنى أنه يعطينى شيئا من عنده. وأغلب ظنى أن دافعه إلى هذا المسلك الكريم كان كان نابعا من يقينه بأن العاطى هو الله. ولقد لحظ علىّ يوما بعض الحياء والحرج، فأراد أن يوصل ذاك المعنى الشفيف إلى عقلى بأن حكى لى طرفة عن رجل نزل من بيته حاملا مبلغا من المال بنية التصدق به على أول محتاج يلقاه فى طريقة... وما أن غادر بيته حتى التقى أول ما التقى بفقير من أبناء الحى، لكنه لم يكن يحبه لسبب لا يدركه. ربما كان يتشاءم من رؤياه، أو ربما كانت ملامحه تثير الارتباك فى كيمياء جسمه فتسلبه الشعور بالطمأنينة والارتياح، أو ربما لم يكن لهذا الشعور الغامض من سبب على الإطلاق، فليس على القلب سلطان يأمره أن يحب ويكره.

فى البداية تردد قليلا قبل أن يقترب منه. وللحق فإن هذا الفقير هو الآخر لم يبتسم يوما فى وجه الرجل رغم الجيرة، وانما كان دائما يتحاشى الاقتراب منه ويتفاداه كلما شاءت الظروف أن يلتقيا فى طريق دون أن يدرى هو الآخر سببا ملموسا لذلك التباعد.

وحين حسم الرجل تردده استوقفه على الفور ماداً له يده بالمال قائلا فى لهجة حيادية مواربا بها ضيقه وتردده:

- خذ.. هذا المال ليس لك

حين نطق بهذه العبارة شعر بارتياح شديد، إذ عبرت بصدق عما يعتمل فى ضميره، فهو لا يعطى المال لهذا الفقير لذاته، وإنما يعطيه لله جل شانه.

لكنه فوجئ بالفقير يمد يده بثقة ودون حرج ليأخذ منه المال قائلا بنبذة الظافر المنتصر:

- هات.. فهذا المال ليس منك!

منذ أن حكى لى أخى هذه القصة لم أعد أشعر بحرج حين يزورنى محملا بالملابس الجديدة لأطفالى السبعة حينا، ولى ولزوجتى حينا آخر.. أو حين يحضر فى بداية كل عام دراسى فينقدنى مبلغا كبيرا من المال يفى باحتياجات العام الجديد.. أو حين يحضر فى عيد الأضحى حاملا معه نصف خروف أو فخذ عجل فيندفع نحوه أطفالى يقبلونه ويتلقون منه أوراق البنكنوت الجديدة اللامعه ذات الطرقعة اللذيذة فى سعادة وحبور.

ورغم زوال حرجى وحيائى منه إلا أنه لم يخطر ببالى طيلة حياته أن أتوجه إليه يوما لأسأله العون فى أزمة طارئة، وكم من الأزمات غير المنتظرة يواجهها من هو مثلى فى هذا الزمان وهذا المكان من أرض الله الواسعة بحيث لا تستطيع معونة الأخ أن تصد وحدها جحافل الالتزامات الحياتية الجوهرية، ويكفى أن يتعرض الموظف منا لأزمة صحية تحتاج إلى عملية جراحية يعد اللجوء حيالها إلى التأمين الصحى بمثابة الانتحار.. ذلك ظرف واحد على سبيل المثال، لا مبرر لنسج ظروف مماثلة على منواله وإلا ظللت أكتب حتى الصباح.

ولطالما فكرت بعمق فى طبيعة العلاقة بينى وبين أخى فلم أجن غير الارتباك والحيرة. ذلك لأننى- كأى إنسان- أفكر بأداة التفكير الوحيدة عندى وهى العقل. ولما كان عقلى يعانى من فساد شديد فى الجزء الأعظم من خلاياه بحكم تكوينه الغربى، إذ نما وتربى على نصوص غربية فى مجالات الفكر الإنسانى كافة، كالعلم والفن والأدب، فإنه كثيراً ما كان يتناقض فى

تصوراته للأمور مع الجزء الأدنى من خلاياه السليمة، مما ينعكس على بحالة من التشويش الذهنى أقرب ما تكون إلى حالة مسطول تعاطى من الحشيش أكثر مما يطيقه دمه، فراح يهيم فىعوالم متناقضة لاضابط بينها ولا رابط.

يقول لى عقلى حينا أننى غير مستحق لما أتلقاه من أخى من عون لا ينتهى، ويبدو أنه لن ينتهى إلا بموت أحدنا- وهذا ما حدث بالفعل- فهو يشقى ويكدح للحصول على هذا المال، متعرضا للقلق والسفر والأرق وتقلبات السوق وتغير السياسات وغدر الشركاء، أما أنا ففى جميع الأحوال أتقاضى راتبى كل شهر وأتناول عشائى كل يوم ثم أصلى وأنام فأحلم وأضرط وأشخر غير عابئ بشئ فى هذه الكون على الاطلاق.. أفبعد ذلك يكون من العدل أن أستحل لنفسى عرقه ورزق أولاده؟!

وتنجذب عواطفى بقوة إلى خلاياه السليمة ليقول لى عقلى نفسه إن عطاء أخى حق لى وواجب عليه.وتستنيم جوارحى لهذا التكاسل المثمر فأبحث فيما كتبه العلماء حول هذه المعضلة، لأجد أن للأخوة عندهم منازل ثلاث: أدناها أن ينزل المرء أخاه منزلة خادمه فيقوم بحاجته من فضلة ماله، فإن سنحت له حاجة أعطاه إياها ولم يحوجه إلى السؤال وإلا اعتبر مقصرا فى حق الأخوة.

أما أوسطها فأن ينزل المرء أخاه منزلة نفسه ويرضى بمشاركته فى ماله وينزل منزله وقيل كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

وأما أعلاها فهو أن يؤثر المرء أخاه على نفسه ويقدم حاجته على حاجته وهذه منتهى درجات الحب.

ويصيبنى ذهول شديد حين أكتشف أن الأخوة المشار إليها هى الأخوة فى الله، فهى حق إذن على الأغراب فما بال الأقارب وما بال الأخ الشقيق الذى نزل إلى فضاء الكون من نفس الرحم؟!

هكذا يقودنى عقلى دائما إلى الحيرة بين جانبيه المتناقضين، فيما يضاعف كرم أخى من تلك الحيرة ويؤجج نارها التى ما كان أسهل من إخمادها لو عرف الشح طريقه إليه أو أصيب بداء الخوف على نفسه وماله من عينى فابتعد وانزوى. حينئذ كنت سأجد العديد من المبررات التى تضعنى بلا معاناة فى صف أحد الجانبين المتصارعين: فإما أن أقول ان كل إنسان حر فى أوجه إنفاق ماله الذى حصل عليه باحتهاده، وإنه غير مسئول عن مساعدة غيره ممن لم يستطيعوا أن يوفروا بعقولهم وأبدانهم حياة كريمة لأنفسهم لاتحوجهم إلى الغير، وإما أن أقول إن أخى هذا لا يعرف شيئا عن قضية الرزق وعن حقوق الأخوة، وإنه بخيل جاحد لنعم الله ينكر صلة الرحم، وإن اللجوء إلى الأصدقاء وقت الحاجة أكرم وأشرف وأهون من اللجوء إليه ألف مرة، وربما تزيد إلى ألفين او ثلاث طبقا لتناسب الرقم مع حدة الغضب أو شدة الحاجة والله أعلم.

لم أخلص من حيرتى إلا على قول صديق:

- من الحمق أن تنشغل بفكرة تدبير الأرزاق، ومن الجنون أن تنشغل بفكرة توزيعها.

وصرفت اهتمامى كلية عن التفكير فى تلك القضية، وارتحت لخلاصى من حساسيتها. لكن باعثا غريبا أثارها فى نفسى مرتين متتاليين بينهما فاصل زمانى صغير.. فجأة وعلى غير انتظار!

فى المرة الأولى كنت أقرأ جريدة يومية حين وقع بصرى على خبر وفاة راقصة شهيرة بعد أن بلغت من العمر أرذله، وذكر فى الخبر أن المجارى قد انفجرت قبل وفاتها بفترة داخل مسكنها فطفحت المياه بالغرفة التى تحوى صورها التذكارية المتعلقة بعملها منذ امتهنته فى شبابها وحتى اللحظة الأخيرة فأفسدتها تماما. وحين جاء عمال الإصلاح صرخت فى وجوههم بعصبية شديدة:

- تاريخى كله ضاع فى المجارى!

لجأت إلى خلايا عقلى بشقيها الفاسد والسليم معا بعد أن توصلت إلى صيغة عربية تلفيقية توفيقية مؤقته للجمع بينهما، محاولا التوصل إلى أدنى علاقة يمكن العثور عليها بين قراءة هذا الحدث وبين إصابتى المفاجئة بداء الحساسية تجاه عطاء أخى وكرمه، فلم أفلح!.

ما الذى جعل موت الراقصة العجوز وثورتها العارمة على تاريخها الضائع يفجران فى نفسى بركانا كنت أحسب أنه خمد منذ مقولة الصديق؟.. على أية حال هناك أمور ثلاثة هى الحساسية والموت وتاريخ الميت، يمكن محاولة إيجاد رابط بينهما ولو على سبيل الرياضة الذهنية، لعل هذا الرابط يقودنى إلى مفتاح للعلاقة الغامضة بين الموضوعين.

ولقد وصف المحرر مشهد تشييع جثمان الفنانة الشهيرة بعبارات تفيض بالحزن والأسى وهو يذكر أن عدد الفنانين والفنانات الذين شيعوا الجنازة لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة! .

فى المرة الثانية قال لى الترابى أمام مقبرة أبى:

- لا داعى لقطعة الرخام. وفر ثمنها لأولادك.
- لماذا؟.. لقد طلب تثبيتها على مقبرته قبل وفاته.
- ليكن فى علمك أنها ستسرق فور انصراف المشيعين، ولن يهنأ بها قبره ليلة واحدة!
- كانت أهم وصاياه الاهتمام بتسجيل تاريخ وفاته.
- نحفر التاريخ على جسم المقبرة نفسه فيتعذر محوه أو طمس معالمه مع الزمن.

فى هذه المرة أيقنت أن الموت ذو علاقة وثيقة باستثارة قضيتى، لأن الظاهرة نفسها تكررت فى المرتين. ولقد أجمعت خلايا عقلى على ذلك اليقين بعد إضافة ظاهرة الزمن إلى الظاهرة المتكررة لتصبح المسألة أكثر تعقيدا عن ذى قبل.

والآن حان وقت حسم هذه المسألة.. فمن السخف أن أظل أعانى إلى أجل غير معلوم من ازدواجية شعورى تجاه كرم أخى الحاتمى، الذى يشعرنى بالذنب حينا ، وبطمأنينة الاستحقاق بحكم السماء حينا آخر.

انتظرت قدومه محملا بالعطايا كعادته وقد أضمرت ألا أقبلها إلا بصفة قرض طويل الأجل، ترد قيمته كاملة أو مقسطة حين ميسرة.

ولقد نويت أن أرفض بشدة قبول عطائه مالم يقبل اقتراحى. كان هاتفا خفيا يهتف بى أننى اعلم أنه سوف يرفض، وان هذا قد يسعدنى رغم انه سيوقعنى من جديد فى ورطة الحساسية، وأننى يجب ألا أستسلم لضعفى البشرى أمام المادة حين تأتى بغير عناء مهما كان الاحتياج إليها ملحاً. غير أنى كنت واثقا

أنه حتى لو وافق على اقتراحى كرماً منه ومراعاة لحساسيتى الشديدة فإنه محال أن يتجاوز فكرة القبول بالقول المنطوق إلى فكرة أن يمد يده ليأخذ منى جنيهاً واحداً.

ومرت أيام عديدة ولم يزرنى. اتصلت كثيرا بمنزله وبمكاتبه المتعددة فى مختلف الأقاليم ولم أوفق فى العثور عليه. التمست له العذر لكثرة اشغاله ولم أغضب، فمثله لا يجوز مطالبته بما يطالب به ذوى المهنة الواحدة الذين يتمتعون بقسط وافر من الفراغ. إنه يعمل فى الحديد و الأسمنت والمقاولات البحرية وتجارة الأقمشة والأحذية والمواد الغذائية وأشياء أخرى لا أعرفها. أما ممتلكاته العينية والمادية فلم أفكر يوما أن أسأله أو أن أسال عنها أحدا من أفراد الأسرة- الذين يتطفلون على حياته- وذلك لسبب وحيد، هو أننى أفتقد أى دافع لمثل هذا السؤال، فالأمر لا يعنينى بأى حال لانه من شأن صاحب الأمر وحده.

بعد مضى شهور ثلاثة اتصل بى هاتفيا يعتذر عن طول غيابه، وليبلغنى أن المقعد الصغير الذى كان قد وعد به أحد أبنائى ليذاكر عليه- بدلا من مقعده القديم المتهالك- قادم إلينا فى الطريق على عربة من عربات إحدى شركاته.

وقبل أن أسأله متى سوف نتمكن من رؤياه قال لى بنبرة حاسمة:

- المقعد ثمنه خمسون جنيها.

وسمعت رنين تليفون آخر، فكان مضطرا لأن يعتذر لى ويستبقينى على الخط حتى يخاطب محدثه على الخط الآخر.. ولما طال حواره معه حول صفقة أقمشة من التى تغطى بها نعوش الموتى، انتابتنى قشعريرة شديدة وتمنيت أن ينهى معى هذه المكالمة المرعبة وحمدت الله أن فعل على الفور.

لكنى لم ألبث أن تذكرت عبارته الأخيرة عن ثمن المقعد فلم أفهم مقصده، وبمرور الأيام وفى غمرة اختفائه الطويل نسيت ما دار فى هذه المكالمة وبدأ القلق يساورنى عليه.

ولقد صدق حدسى ، إذ علمت بطريق غير مباشر أنه يعالج فى الخارج من مرض غامض، وانه أوصى أبناءه ألا يعلنوا هذا النبأ إلا بعد عودته.

على فراش المرض جلست بمواجهته أشد من أزره متمنيا له الشفاء والصحة من صميم قلبى الملتاع. سألنى بصوت واهن متجاهلا دعائى:

-هل وصل المقعد؟

شردت قليلا.. أيها الإنسان ما أغربك! .. أهذا وقته؟!..

- وصل من زمان، وانى لا أعرف كيف أشكرك.

ثم راح فى غيبوبه طويلة. استدعينا طبيبه الخاص الذى بانت على وجهه امارات اليأس بعد أن فحصه واطلع على تقاريره الطبية القادمة من الخارج. قال لى الطبيب هامسا بعد خروج زوجته من الغرفة:

- الأمل ضعيف جدا، ولكن الله موجود.

هزتنى الصدمة من الأعماق وداهمنى ألم الخوف من الفراق. لكنه أفاق فجأة لينتشلنى من غمى. ما أن رآنى حتى قال لى منازعا وفزع غريب يشع من عينيه الذابلتين:

-متى ستدفع ثمن المقعد؟

ومات بعد سؤاله بدقيقة على وجه التقريب.

****

رجع الصدى

بعناية فائقة راحت "نسمة" ترتب المائدة استعدادا للوليمة المرتقبة. على مقعد الصدارة سوف يجلس حسن فهو رب الأسرة وحبيبها. هنا تجلس نرجس وبجوارها يجلس وحيدها الصغير. وهنا علاء وبجواره ابنته.. أما هى فلا يعنيها على أى مقعد تجلس. المهم أن تقوم على خدمتهم جميعا وترقب الفرحة فى عيونهم حتى ينتهون من التهام الطعام كله.

منذ سنوات عديدة لم يجتمع خلالها شمل الأسرة،وهى تتناول وجباتها على مقعد حسن... يخيم الصمت على كل الغرف ويخص بمعظم ثقله البغيض غرفة المائدة. محطة الموسيقا تعمق من أشجان الوحدة. المحطات الأخرى أغان خليعة وأحاديث مستهلكة وبرامج مبتذلة. اما أفلام التليفزيون فتذكرها بأحداث شهدتها غرف المنزل تثير الذكريات البهيجة، وحين تفيق منها على المقاعد الشاغرة فإنها تفقد السيطرة على دموعها.

كثيرا ما استمعت إلى أناس يحدثونها عن مرارة الشعور بالوحدة. تألمت لألمهم ودمعت عيناها تعاطفا معهم ليقينها من أن الوحدة شئ مخيف شديد القسوة. لكنها ما كانت تتصور أن تعانى هذا الشعور بمثل ما كابدته اليوم لدرجة التوحد معه والذوبان فيه، بحيث أصبحت فى غنى عن الحديث عنه لمخلوق. بل ان مفردات اللغة أصبحت تعجز فى ظنها عن التعبير الصادق عن مشاعرها الحقيقية.

لم يفلح الراديو ولا التليفزيون فى تبديد وحشة الصمت أو كسر شوكة الوحدة، وبخاصة فى غرفة المائدة وأثناء تناول الوجبات. فى تلك اللحظات المحددة يخيل إليها أنها تفتقد القدرة على الفهم أو ربما الرغبة فيه وتتمنى ألا يكون فى هذه الحياة شئ له معنى حتى لا تدخل اختبار الفهم مضطرة.

فى تلك اللحظات تثبت مؤشر الراديو على محطة تتوسط محطتين عاملتين لتستمتع بصوت التشويش والشوشرة الجامعة بين ما تبثه المحطتان من أصوات متداخله تحوى الغناء والاحاديث ونشرات الأخبار والموسيقا بحيث لا تفهم شيئا معقولا يمكن أن تلتقطه أذناها.

وكم كان يسعدها أن تكون احدى المحطات بلغة أخرى غير العربية لكى تزداد المسالة تعقيداً ويستحيل الفهم حتى لو أمكن الاستماع.

منذ أحببت حسن، وحتى من قبل أن يتزوجنى كنت على يقين من صدقه. لقد عاهدنى ألا تفرق بيننا قوة على وجه الأرض وصدق وعده. رغم ذلك فقد غاب عنى. تركنى أتقلب وحدى على الفراش الذى كنت أزاحمه فيه وأرفسه خلال نومى المتوتر بقدمى مرة وبركبتى مرة أخرى.

حين يكون مزاجه معتدلاً يقول لى:

-ان الملائكة تداعبك يانسمه

وحين يكون مهموما يقول لى :

-أنت تنامين كالعفاريت

ومرة دفعته بكوعى فى وجهه فقام بهدوء وأعد لنفسه فراشا على الأرض نام عليه دون أن أشعر. وفى الصباح قال لى:

-هذا أفضل بكثير من عاهة فى أنفى أو عينى.

سوف تكون المكرونة حمراء فى لون الدم. انه يحبها كذلك. لقد وضعت بها كثيرا من حبات الثوم المقطعة قطعا صغيرة كطلبه. أما طبق اللحم هذا فمخصص له وحده لأنه غارق فى البصل، والأولاد لا يحبون البصل. فليأكلوا من المشوى أو المسلوق أو المحمر كيفما شاءوا.

لم ينس ولو مرة واحدة فى حياته معى أن يبسمل قبل أن تمتد يده إلى الطعام، ثم يقول بصوت عميق تخشع له جدران غرفة المائدة المزينة بلوحات خضراء:

-سبحان من حلل الحلال وحرم الحرام.

وفى سرعة البرق ينتهى من تناول وجبته، رغم أنه لا يكف عن نصح الأولاد بالبطء فى الأكل حرصاً على مستقبل المعدة والقلب، وللمزيد من الاستمتاع بلذة الطعام وحمدا لله عليه وشكرا.

ولأنه لم يكن قدوة للأولاد فيما يقول فإن علاء ونرجس كانا يسبقانه فى الإجهاز على أطباقهم وهم يرددون نصيحته ضاحكين من الأعماق.

وضعت زهرية الورد فى منتصف المائدة ونظرت فى ساعتها وقالت تحدث نفسها بمشاعر حيادية :

-باقى ساعة على انطلاق مدفع الإفطار.

ثم عادت إلى المطبخ لتتذوق ملوحة الطعام وتجس درجة نضجه. اليوم لا مبرر للتشويش والثرثرة لأنه يوم ذومعنى. أدارت مؤشر الراديو إلى محطة محددة. كانت أصوات الجيران وهم يعدون طعامهم تتصاعد إلى مسامعها كأنغام مرحة تشعرها بالأنس والفرحة.

للجو رائحة محببة قبل انطلاق المدفع فى فصل الخريف. رائحة تمتزج فيها سكينة النفس بطمأنينة القلب، تحملها نسمة ذات لسعة خفيفة من البرد المنعش اللطيف.

لم يبق الا أن تتخلى عن حيادها فى هذا اليوم المفترج وتترك نفسها للفرحة، فانطلقت إلى غرفة المائدة كراقصة باليه تحركها أنغام سحرية تنبعث من أعماقها المسرورة وهى تدندن بأغنية حالمة.

هنا مقعدك يا نرجس. هل تذكرين ما فعلته لأجلك؟ .. لقد تحديث مجلس الكلية بأكمله حتى تعينى معيدة بالقسم الذى أرأسه. احتج خصومى من الأساتذة مستندين إلى شكوى الطالبة المنافسة، ولكنى خلطت الحق بالباطل لأنتزع لك المقعد منها ونجحت باقتدار. يومها قالت لى أم هذه الطالبة بحرقة:

-منك لله يا ظالمة.

اكتفيت بالاشفاق عليها لأنى اعتقدت أنها ما كانت لتفعل غير ما فعلت لو كانت مكانى.

ان الجيل الجديد من أساتذة ومعيدى وطلبة الكلية فى هذه الأيام يختلفون عنك كثيرا يا نرجس. فأنت تفوقينهم ذكاء وعلما ولماحية وأناقة وجمالا وأدبا وتربية.

ولكن ما أن حصلت أنت وزوجك على درجة الماجستير حتى تبدلت دنياى وتمنيت أن أفعل أى شئ حتى لا تغيبى عن عينى مثلما غاب حسن. تذوقت طعم الشعور بالظلم يوم لم يكن هناك مفر من أن تنفصل دورة حياتك عن دورة حياتى وينفض الالتحام الحميمى بينهما. لقد أصبح لك زوج تحبينه وولد هو قرة عينك، أما أنا فقد انتهى دورى وتضاءلت أهمية وجودى فى فلك حياتك .. يالقسوتك يا نرجس وانت تبخلين على بمجرد اتصال هاتفى تسألين فيه عن صحتى ومزاجى.. هذا الخرشوف المحشو باللحم المفروم والملئ بالشطة والفلفل الأسود صنعته خصيصا لك. كليه بالهناء يا حبيبتى ولكن احذرى أن يأكل منه صغيرك لئلا يؤذيه لهيبه الحارق.

لم يبق على انطلاق المدفع سوى نصف ساعة.. راحت وجاءت فى قلق شديد. تساءلت لماذا لا يحضرون جميعاً أو حتى البعض منهم قبل انطلاق المدفع ليتحدثوا معها؟..

أم أنهم سوف يأتون لمجرد تناول الطعام ثم ينصرفون؟

******

-سلمت يداك يا نسمه

هكذا كان يخاطبنى علاء بعد تناوله الطعام. يدللنى كما لم يدللنى أبوه. ينادينى باسمى ويداعبنى ويعبر لى فى كل مناسبة عن حبه لى وتعلقه بى. يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة ليرضينى رغم احتفاظه لنفسه بقراره. يقول لى انه لا يستطيع أن يتصور شكل حياته ومعناها حتى لو بلغ الشيخوخة دون أن أكون بجواره أو قريبة منه، وإلا فمن يعاكس غيرى من أجمل السيدات ويقول لها بنبرته المرحة:

-تعالى هنا يا بنت لأبوس يدك.

يالها من جاحدة تلك الحرباء التى اختطفتك منى فى غفلة من الزمان. عجزت عن التماس عذر واحد يبرر كراهيتها الشديدة لى وغيرتها الساحقة منى. منذ بداية الأمر لم أسترح لقبح وجهها وثقل ريحها حتى أننى سألت علاء:

-ألم تجد يابنى غير هذه العبوس لتعاشرها مدى الحياة؟!
-القلب وما يهوى يا أمى.
الأرز بالخلطة. طبقك المفضل أيها الحبيب البعيد، ولعنة الله على حب المال الذى جذبك من أحضانى إلى صدر هذه الحرباء. أنا أعلم أنها هى التى شجعتك على الهجرة ، فأنت آخر من كان يهتم بالمال وجمعه. أنا لا أريد أن أصدق أنك لم تتذكرنى ولو بهدية رمزية منذ زمن طويل. أنت لم تسألنى عن أحوالى المعيشية أوعما إذا كنت بحاجة إلى المال أم لا .. هل أنت ولدى الوحيد؟.. سوف أشكوك إلى ابنتك الصغيرة حين تحضر ياعلاء.وسوف أجعل منها حكما بينى وبينك، ثم أوصيها ألا تفعل بأمها حين تكبر مثلما فعلت أنت بى.

انطلق مدفع الإفطار. كانت المائدة حافلة بشتى المأكولات والمشروبات تتوسطها آنية الزهر الكبيرة وقد تفتحت ورودها بعد ارتوائها بالماء. لم تجلس نسمة على أحد المقاعد وإنما راحت تدور حول المائدة تتمم على الأطباق وتعدل من أوضاع الملاعق والسكاكين والشوك.

فى هدوء بالغ تناولت جرعة من شراب قمر الدين وقالت لنفسها ان حسن أو أى مخلوق آخر لم يكن بمقدوره أن يتحدى الموت. وبذلك تصبح العهود والمواثيق التى يتبادلها البشر غير ذات معنى، ولكن لا بأس من اجترار الذكريات الحلوة ،كمداعبة الملائكة وثرثرة الأسرة المجتمعة حول مائدة الطعام وضجيج أصوات الملاعق والسكاكين وهى تصطدم بالأطباق متداخلة فى بكاء حفيد وصراخ ممثلة فى الراديو وصوت أجش يغنى من كاسيت عند الجيران.

كان الصمت المخيم على عقل نسمة فى تلك اللحظات أشبه بصمت النوم الذى قد تتخلله الأنفاس الهادئة حينا أو الشخير المزعج حينا آخر، ولابد أن تكون نرجس غارقة الآن فى نومها ففارق التوقيت بين مصر وتلك الولاية الأمريكية سبع ساعات كاملة. أما علاء فلعله ينعم الآن بأحضان الحرباء أو بمداعبة صغيرته الوحيدة، لكن عقله لابد صاخب بضوضاء التخطيط والترتيب وبراعة الإنجاز وإغراء المال وضجيج النجاح.

اتجهت فى خطوات واثقة إلى الراديو. حركت المؤشر. راحت تجمع الأطباق من المائدة لتعيد تفريغها فى أوانى الطبخ وهى مستمتعة بالتشويش والشوشرة والكلمات المتداخلة بلا معنى.

****

البوتقـــــة

منذ آلاف الأيام أجلس خلف نفس السائق فى نفس العربة لأذهب يوميا إلى نفس المكان ثم أعود منه. من قبل أن يولد جدى اعتدت الملل وشربت معه من ماعون واحد، عليهم اللعنة جميعاً: جدى والملل والماعون!

حفظت معالم هذا القفا الوسخ. أغبر الشعر كثيفه. نادرا ما يقصه أو يغسله. احتكاكه بياقة القميص يصنع على حافتها خطا ترابيا بنى اللون، يتحول بالتقادم إلى لون أسود كريه. كل يوم أراه.. أتفحصه رغم أنفى. أزحف بعينى إلى مؤخرة رأس عثمان الصغيرة كرأس كتكوت... وتأتى سحابات دخان سجائره التى لا تنقطع فأكاد أختنق وأصيح به:

-كفاك تدخينا يا عثمان. الله يخرب بيتك.

يلتفت إلى بنظرة يائسة تحمل نفس لون أسنانه الصفراء المثرمة.

-لا أقدر يا بك.

وأغوص فى دماغى المشحون بالأفكار ذات الرغبة الجارفة فى الانصهار بقلب الحياة وفى الانفلات منها حينا آخر، حتى أقف متأملا فيما يعتمل بذلك القلب من أشجان، وفى جدوى إدراك هذا كله ثم الانفعال به فى موقف فعلى محدد.. فأرى أن المسألة برمتها لا تخضع لأكثر من احتمالين:

إما التعطش للنجاح وما يتبعه من شعور بالفخر والسعادة والاستعلاء، وإما الفشل وما يذيله من تعاسة وشعور بالدونية ... وسقطت فجأة إلى الأرض بمعزل عن الزمن.

فى كل صباح أسترجع ذنوبى. أستعيد كل ما اقترفت فى حياتى من آثام. أقول شكرا يا رب لأنك تعاقبنى برؤية ذلك الشئ القذر كل صباح ولا تفعل بى ما هو أقسى من ذلك. ولكنى أقول أحياناً إنه يستحيل أن تكون هناك فى الدنيا عقوبة – أو ربما فى الآخرة – بمثل هذه القسوة : أن أرى قفا عثمان كل يوم. اللعنة!!.. لو كان سائقى الخصوصى لأمرته بحلاقة قفاه وارتداء قميص نظيف مكوى ولمنعته تماماً من التدخين فى العربة. لكنه السائق الذى خصصته لى المؤسسة التى أعمل بها والتى لا سلطة فيها لأحد على الآخر بناء على أطنان من القوانين المائعة الهائمة التى تنظم العلاقة بين أفرادها فى فوضى لا مثيل لها فى الدنيا.

أنا لا أصلح نهائياً للعمل فى إطار هذه النظم أو المجموعات .. بل انى أرى نفسى وقد تناثر نسلى من حولى واتسعت ممالكى وتلاحمت وانفصلت. أرى التلاحم بأجنحة عصافير خضراء تزقزق وترفرف وتعلو ثم تحط على فروع الشجر فى طمأنينة. أما الانفصال فبأسلاك الكترونية مكهربة قاسية كالعقل باردة كالجليد . وأما الناس فيمشون تحت الأشجار وبين الأسلاك بنفس القدرة.. وهذا ما أدى بى إلى المزيد من التردد والتعثر فى اتخاذ قرار ما.

يفهم مما سبق أننى عجزت عن تغيير السائق لأسباب إدارية، لكن المصيبة أن هذا العجز راجع من جهة أخرى إلىّ بصفة شخصية. ذلك أن هناك رابطة خفية من التعاطف - "السادى المازوكى"- ربطت بينى وبين قفا عثمان عبر آلاف الأيام المنصرمة، بحيث أصبح الاستغناء عنه – تماما مثل الإبقاء عليه – أمرا مستحيلاً .. ففى الحالتين سوف يصيبنى مكروه لست أدرى ان كان مصدره من الإنس أم من الجان؟!

رغم هذا كله فقد فكرت جديا فى قتل عثمان حتى أرتاح من قفاه اليومى المقرر، ولكنى تمكنت من القضاء على شيطانى المجرم باللجوء إلى حيلة جهنمية وهى أن أتحدث بصفة مستمرة مع زميلى الذى يجلس بجوارى على المقعد الخلفى للعربة .. إما هذا وإما القتل!

لكن الحديث مع الزميل كان يعذبنى فوق ما تحتمل طاقتى، حتى أننى ظننت أن تكسير الجبل فى ليمان طره أو أبى زعبل بالفأس بين المجرمين أشد هونا على نفسى من الحديث مع هذا الزميل، وبالتالى رجحت عندى كفة الاغتيال فى البداية، ولكن بقليل من التأمل تبين لى أنه لا فرق على الإطلاق بين عذابى برؤية قفا عثمان وعاقبة قتله تجنباً لمشاركة زميلى الحديث.

أما الذى جعل المسألة أكثر تعقيدا فهو أننى لا أحب الكراهية- تلك الآفة التى يحبها كثير من الناس دون أن يدروا – فكيف يجوز لى أولا أن أفكر بقتل مخلوق آدمى برئ قد يفضله الله

علىّ يوم القيامة ويدخله جنته محمولا على الأعناق، بينما ادخلها زاحفاً على صدرى ان كانت قد كتبت لى.. وكيف يجوز لى من بعد ذلك أن أستنكف الحديث مع جارى وهو كيان إنسانى من نسل آدم وحواء- مثلى تماما – بل إنه يجلس بجوارى هو الآخر منذ آلاف الأيام على نفس المقعد الذى أجلس عليه من خلف قفا عثمان الطويل والذى لا يمثل عنده أدنى أهمية.

لقد أعادنى الشعور بالذنب إلى مملكتى المشتهاه، فدعمتها بالحصون وملأت خزائنها بالذهب وعينت من نسلى حُراساً وحكاما ثم تفرغت بعد ذلك لقتل مللى.. ذلك أنه فى أتون بوتقة الصهر تبين لى أن كل الأحداث التى عشتها تتحرك فى حياتى على شكل دورة تكرارية شديدة الملالة ..وحين انفلتُّ من القلب هام عنى وغمر لياليه فى الموسيقا والنساء والكأس والبخور الهندى والشعر الصوفى وأحاديث الجن وأغانى الملائكة وبقى الذهب فى خزائنه يعلوه التراب.

صحيح أن صفات هذا الزميل وطباعه تصيبنى بالغثيان، لكن ضرورة الطعام والشراب والسكن والكساء تلزمنى جميعاً بتحمل هذا الإنسان حين يفتح باب العربة وهى مندفعة ليبصق فى الطريق، أو حين يوقف العربة – فى طريق عودتنا من العمل – لشراء الخضروات والفواكه الرخيصة لنفسه ولأقاربه كل يوم، حيث يمضى وقتا طويلاً فى المماطلة مفاصلا فى الثمن ليوفر بضعة قروش يستنزفها من بائع جوال يتحصل بالكاد قوت يومه. وبفضل هذه الممارسات أصل إلى منزلى متأخرا كل يوم عن ميعاد عودتى الطبيعى بما لا يقل عن نصف ساعة، لأجد الأولاد قد تناولوا غداءهم بعد أن يئسوا من انتظارى.

زميلى الاضطرارى لا يكف عن ذم خلق الله وإحصاء نعمه عليهم بلسان حاد وقلب معتم وعين حارقة تصيبنى أحيانا بالرعب الشديد من الحياة والموت معا. ولكن مهما كان من الأمر فهو أخى فى الله ولا فرق بين عربى ولا عجمى إلا بالتقوى.

وأعاود انفلاتى من قلب الحياة. أستخلص نفسى من المصهور لعجزى عن الذوبان فيه والتوحد بمكوناته الرهيبة ، مكتشفا فى النهاية ألا فائدة. ولكن ما العمل، ولماذا لابد أن يكون هناك عمل، بل وما دافع التساؤل ذاته عن أى عمل ينبغى أن يكون؟! لقد دأبت الممالك المجاورة لممكتى الواسعة على حب الصراع والمنافسة والرغبة فى تملك المزيد من الأرض والماء والهواء والناس والأشجار والبيوت والماكينات والحيوانات لسبب غير واضح.. وكان لابد من تأديبهم حتى يؤبوا إلى رشدهم وحتى يقنع كلّ بحدوده ويرضى بما هو كائن، ولا تناوشه الرغبة فى الكبر والسيادة والتفوق والتميز.

إن ملامح أنف زميلى الحادة وتقاطيع شفتيه الحادتين الدقيقتين كشفرتى سلاح، وأسنانه المدببة وأنيابه الطويلة وشكل حاجبيه المعقوفين كشيطان، وعلامات النهم المفزغة المرسومة على خطوط وجهه والمشعة من نظرات عينيه، يذكروننى جميعا بالنهاية الذرية المرتقبة للعالم والتى قد تكون بمشيئة الله على يد حاكم مجنون بالبارانويا أو الميجالومانيا عاشق لفتنة العظمة والسيادة .. ولكن مهما يكن من الأمر فهو زميلى فى الإنسانية، وليس من حقى أن أتكبر عليه أو أتعالى وأنا الذى خرجت من مجرى البول مرتين، فالكبرياء لله تعالى وحده.

إننى يا إخوانى (!!!) أخاف من هذا الزميل. ولكن كيف لى أن أنسحب منه بغير أن أسبب لنفسى أو له الضرر. ثم كيف أتخلص منه ومن قفا عثمان فى آن واحد بغير أن أستقيل من المؤسسة وأتعرض – أنا وأسرتى – للجوع؟!

كل يوم أفكر بهذه المسألة وأنكوى بها حتى أنهكت مخى، وكنت واثقاً أن وزن رأسى قد ازداد إلى الضعف لكثرة حضور شياطينى وانصرافهم طبقاً لتقلب أحوالى النفسية والمزاجية والمعنوية.

لقد انتهى بى الأمر إلى أن كتبت محاضرة مطولة بغية إلقائها على سكان الكون لأؤكد لهم ألا فائدة من كل هذا التعب – كان من الأولى أن أؤكد ذلك لنفسى أولا ولكنى لم أفعل- وأنه من الأفضل للإنسان –بصفة خاصة- أن يجلس ويستريح ويتأمل .. لكنى -ودائما لكنى- مزقت المحاضرة حين ضغط طنين عنيف على أذنى من كل مكان حتى كدت أفقد أعصابى. تكاتفت

ضدى أصوات البشر والآلات المعدنية وأمواج البحر والزوابع والأعاصير. كلّ يقارن قوته بقوة غيره فى تبجح واستفزاز. أصابتنى رغبة شبه دائمة فى القئ وكنت متقززا من نفسى أيضا، حتى أننى فضلت فى قرارة روحى أن لم أوجد.

ولما كانت الحاجة أم الاختراع فقد اهتديت يوما إلى فكرة رائعة: أن أترك مقعدى وأجلس بجوار عثمان. وبدأت أمهد لتنفيذ فكرتى بالتعلل مرة بفساد مقبض رفع الزجاج، ومرة بارتخاء مسند مقعد عثمان لدرجة الارتطام بركبتى... وأخيرا تجرأت باتخاذ القرار وتنفيذه صباح يوم محدد عقب آخر تمهيد اصطنعته لمغادرة مقعدى.

فى ذلك اليوم تقرر إضافة زميل ثالث لنا بالعربة بعد أن تمت ترقيته إلى فنة الإدارة العليا، تلك الفئة التى لا يحق لغيرها ركوب العربات الصغيرة، فبقية الموظفين يركبون الأوتوبيسات ويأكلون بداخلها وينمون ويدخنون ويتآمرون ويتشاجرون.

أخشى ما خشيته بعد تلك المفاجأة غير المنتظرة أن يضاف إلى كاهلى عبء ثالث بعد قفا عثمان وكيان زميلى، ولكن القدر كان رحيما بى إذ تبين بوضوح شديد أن زميلى الجديد يلتزم الصمت الأبدى طوال بقائه بالعربة وكأنه قد فرغ تماماً من إدراكه لحكمة الحياة الأزلية بمجرد جلوسه إلى جوار عثمان.

لم يبق إلا أن أشترى قميصا جديداً لعثمان منتهزاً فرصة حلول أحد الأعياد حتى لا تكون هناك شبهة حرج من أى نوع، رغم أنى اشك فى أن عثمان يتمتع بحاسية تتعلق بعفة النفس. ذلك أننى شهدت له أكثر من موقف حين كان على استعداد لأن يبيع رجلا بسيجارة، فضلاً عن أن الإفلاس الدائم سواء عند عثمان أو عند غيره من أمة خلقه غالبا ما يسحق مثل تلك الحساسية ويزيل مثل ذلك الحرج. انتظرت فى اليوم التالى أن تكون فى مواجهة عينى ياقة نظيفة مشدودة بفعل كىّ المصنع، لكن الواجهة لم تتغير: قفاه الوسخ وياقة قميصه الأوسخ!

تجاوزت كل الحواجز الممكنة وسألته بوقاحة لا شك فيها:

-لماذا لم تلبس القميص ياعثمان؟

-أعطيته لإبنى يابيه.

-أنا أعطيته لك أنت لا لإبنك

-ولأجل من أعمل بالنهار والليل غير أبنائى؟!

قررت الاستسلام ولكنى لم أتنازل عن قرارى بزجره وحثه علنا على الاستحمام أو على غسيل قفاه بصفة يومية كحد أدنى، وإن أراد ثمن قص شعره كل شهر فسوف أدفعه له بلا تردد.

وأذعن عثمان أخيراً بعد أن رشوته بعلبة سجائر ذات فلتر مخصوص، وتغيرت معالم قفاه تغييرا جوهرياً من حيث النظافة والحلاقة ولكن لونه لم يتغير فتلك خلقة الله الكريمة.

ظننت أن الأمر قد اقترب من نهايته وأنه لم يعد لى مبرر للتبرم بمخلوقات الله من بنى الإنسان الذين أعجز عن تحمل عيونهم وأنيابهم وأقفيتهم. لكن حالى لم يتغير فالقفا فى وجهى كل يوم حتى أصبح يشكل لى كارثة تحوى فى طياتها كل عوامل عجزى عن الانصهار فى بوتقة اخوانى من بنى الإنسان.

عدت إلى مملكتى أستعرض جندى ومعداتى ومؤنى وذخيرتى، فانتفخت أوداجى وطالت قامتى وطال لسانى واتجهت إلى كرسى العرش لأجلس بأنف تتساقط الأوهام من فتحتيه كمطر منهمر، فقد انتهى كل شئ!!..

ما أن جلست حتى أصابتنى ذبحة صدرية كادت أن تودى بحياتى!..

أول من زارنى من زملاء المؤسسة كان عثمان.. إرتدى جلبابا أبيض وقص شعره واستحم قبل أن يأتى إلى بيتى.

ما أن رآنى فى حالتى الخطرة حتى أجهش فى البكاء بغير سيطرة على نفسه، وسقط من بين يديه كيس صغير من فاكهة رخيصة.. أما بكائى فقد استمر حتى بعد انصرافه.

****

الــــزوال

-1-

لست أدرى لماذا أو كيف التهبت ذاكرتى فجأة بحُمىّ استدعاء الموتى الغائبين من كل زمان ومكان منذ أن وعيت بالدنيا وحتى الأسابيع القليلة الماضية التى مات فيها ثلاثة من أقاربى وصديقين عزيزين وشجرة عجوز على ناصية حارتنا الضيقة.

لم أكن أتوقع أننى أتمتع بذاكرة شديدة الحدة بهذه الكيفية المفزعة. إنها تبتعث الشخوص من عدم الزمان المنصرم فى تعاقب منطقى مثير، يحتوى الأموات وآخرين ممن اختفوا من حياتى لأسباب الدنيا المعروفة وربما لا يزالون على قيد الحياة لأسباب الآخرة غير المعروفة.

من المستحيل أن أفكر فى تسجيل هذه الشخوص ابتداء من الجد الأكبر وبائع الفول والبليلة ومدرس الدين الابتدائى وانتهاء بالكائنات الست التى أشرت إليها من قبل. إن هذا الأمر بحاجة إلى عقل الكترونى لضمان الدقة والتسلسل والتصنيف المتجانس وانعدام السهو، فالناس كثيرون: منهم الأهل والأقارب ومنهم الجيران وأصدقاء المدرسة والجامعة والعمل ومنهم الرؤساء والأساتذة والمعلمون والمعارف العديدة المتنوعة التى نشأت بحكم ظروف وقتية، ثم راحت لحالها مع غسيل المطر لأوراق الشجر وأتربة المدينة وقلوب المخلصين..

فكيف لى أن أسجل بأمانة هذا الجيش البشرى الذى تسرب من حياتى بالتدريج حيناً وبالمفاجأة حينا آخر؟.. إنها لمسألة بالغة الصعوبة، فضلاً عن أنها قد تكون لا تكون أكثر من تجربة عديمة الجدوى لمن يطلع عليها.. والكارثة أن تنعدم جدواها عندى أيضاً، وبذلك لا يكون هناك معنى لأى شئ منذ لحظة سقوطى إلى الحياة، حتى لحظة سقوط المطر الذى تحدثت عنه!

أعترف أننى عاجز عن ملاحقة ذاكرتى، فهى تكتسحنى للمرة الأولى بهذه الكيفية ولفترة زمنية وجيزة لم تتجاوز بضع دقائق من الشرود المكثف لتلقى بى فى تلك البحيرة الراكدة فى الوعى بين الحياة والموت.. بسهولة أنجو من الغرق رغم شلالات الشخوص الهادرة الغائبة، لا لأننى أجيد السباحة فى ذلك البرزخ المخيف، وإنما لأن خالقى قد شاء على وجه اليقين نجاتى إلى أجل مسمى، ولحين أن ينقضى هذا الأجل ستكون أشجار جديدة قد نمت وبيوت كثيرة شيدت وأخرى هدمت، وعصافير هاجرت من قارة إلى قارة، وربما ملايين أطنان من لحوم البقر أكلت ورصاص أُطلق ونساء اغتُصبت ورجال فقدوا ذكورتهم، وأشياء أخرى لا أعرفها سوف تحدث لكل من له لسان ينطق به كلمات يمكن تدوينها وفهمها وتأويلها فى أى اتجاه.

لقد انتقل معظم هؤلاء الناس إلى الدار الأخرى مثلما غاب بعضهم فى هذه الدار الموقوتة بعد أن ترك كل منهم أثرا فى حياتى ولو بنظرة عين أو إيماءة رأس أو حتى بتجاهل وجودى بين الأحياء! من هنا فقط كان يمكن أن أبدأ حتى أستطيع استثمار تلك الظاهرة الكونية المفاجئة التى ألمت بى على غير انتظار. كان على أن أكتفى بتدوين الآثار بغض النظر عن أسماء الراحلين أو الغائبين، حتى أستطيع ملاحقة الاندفاع الصاروخى للذاكرة دون أن يفوتنى أثر واحد .. وأظن أننى نجحت فى ذلك إلى حد كبير.

-2-

واقع الأمر أن خلاصة متابعاتى كما دونتها فى الورقة الصغيرة لم تكن مجموعة من أحداث جليلة مرت بى مع هؤلاء الذين استحضرتهم ذاكرتى فاستخلصت منها نتائج محددة قد تهم بعض الناس فى دنياهم التى تشتعل ناراً لا يطفؤها مطر، وإنما هى مجرد مقولات ليست من إبداعى، إذ عثرت عليها منذ أعوام عديدة بين صفحات كتاب لا أذكره لكاتب لا أذكره نقلها عن عالم كبير لا أذكره.. ومنذ أن عثرت عليها لم تفارق ذاكرتى أبداً، وكلما تذكرتها اجتاحنى شرود يموج فى حزن يذوب فى شجن جميل.. العبارات جميلة بسيطة واضحة، ورغم جمالها فإنها مخيفة، ورغم بساطتها فإنها مركبة، ورغم وضوحها فإنها قد تستعصى على فهم أعظم العباقرة حين يعملون عقولهم فى النفاذ إلى سرها الرهيب.

ما زلت غائصا فى أغوار تلك التجربة الغريبة. شلال ذاكرة الموتى الغائبين. صعوبة الملاحقة. الاكتفاء بتسجيل الآثار فى الذاكرة. محاولة التوصل إلى نتيجة ذات جدوى قد تفيد الآخرين. المقولة التى تمزج الدين بالفلسفة رغم ما بينهما من تناقض.. النزول إلى المجال التطبيقى بعرضها على نماذج مختلفة من الناس فى الطباع والثقافة والمستوى الاجتماعى وما إلى ذلك، ثم تدوين نصوص الحوارات واستنباط نتائجها.

-ولكن ما جدوى هذا التعب كله؟

-على الأقل نتسلى معا بشئ من الرياضة الذهنية.

-كيف؟

-تحللين معى نتائج اللقاءات لنرى كيف يفكر أحياء اليوم فى أموات الأمس

-أنا أفضل أن نتسلى معا بشئ من الرياضة البدنية!

اقتربت منى وكانت نظراتها توحى بمعنى محدد لا يحتمل الشك فواصلت كلامى غير عابئ:

-وكيف يفكرون فى أحياء المستقبل وكيف..

التحمت بى فى عناق لم أتمكن من الاستجابة له. قالت فى دلال:

-مسكين .. ألا تعرف أن متعة الجسد أروع فى أصالتها من متعة الذهن؟!

لست أدرى ما الذى دفعنى إلى الإفضاء إليها بسر ما حدث لى، وكأن السر قد ارتبط بتواجدها معى عقب عودتنا معاً بعد دفن جثمان صديقنا المشترك.

فتشت فى عقلها عن مساحة تفهُّم لتلك الحمى التى انتابت ذاكرتى عن معنى الحياة التى عاشها الأموات ولكنى وجدت الحياة تحتل مساحة عقلها كاملة، فامتنع التواصل بيننا.. وحين كنت على يقين من أن متعتى الذهن والجسد إلى زوال ككل الأشياء سألتها:

-أين الورقة؟

أخرجتها فى لا مبالاة من صدرها، وكان واضحاً أنها لم تفكر فى قراءتها قراءة صحيحة ولو من باب المجاملة. قالت لى:

-وجدت بها كلمة الموت فانتابنى خوف شديد على حياتى.

-لم لا نقرأها معا ونتأمل معناها؟!

راحت تحتمى بصدرى وكأنها ستموت بعد قليل.

-أنا أفضل أن تحتفظ بها لنفسك.

-3-

كنت قد دونت العديد من الحوارات المنبعثة من الذاكرة المتدفقة، واحتفظت بها فى ملف صغير أوليته بالغ عنايتى .. ثم عدت فاختزلتها فى عبارة واحدة بهذه الورقة. ألجأ إليها كلما صدمتنى الأقدار بما لا أملك دفعه عنى. أتصور أن الكون على وشك الانتهاء بينما تتصور صديقتى أننى محوره الوحيد، والعبارة المختزلة تقول:

-من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آتٍ آتُ

أهداها إلى بائع جوال يمر بحارتنا كل يوم.. لم يشعر أننى حين سمعتها تنفست بعمق، فانبسط صدرى وغصت فى ملذات الحكمة وهجرتنى الصديقة.

****

هجرة الطير الأخضر

كان عصفورنا الأخضر أرق من النسمة حين حط على حياتنا فى براءة وكأنه منحة من السماء، ينشد أغنية الكون ويترنم بأسرار الحياة. يتقافز من حولنا فى بهجة والإشراق يطل من عينيه الجميلتين. يلتقط الحب بمنقاره الدقيق فى طمأنينة يقينية. يرفرف حول جداول المياه منطلقا فى حرية لا يعوقه عائق. يلهو بيننا فى نشوة. نداعب بأناملنا جناحيه الرقيقين ونتحسس ريشه الناعم. يقبلنى مرة ويقبلها مرة فيبعث فى قلبينا طمأنينة ويبث فيهما قوة لا ترهب ضوارى الوحوش ولا تخشى عواقب الأيام أو غدر الأزمنة. سلمنا له روحينا وطرنا معه إلى ملكوت السماء. عشنا عاما فى ظل الجلالة والرحمة وهمنا فى جنات تجرى من تحتها الأنهار. لم نكن ندرى أننا كلما ابتعدنا عن الأرض ازددنا اقترابا منها. لم تعرف نوايانا الطيبة أن هناك أفاع ونمور تترقب هبوطنا إلى الأرض. تنتظر فى خسة أن تفتك بعصفورنا لتقطع الحبل الصرى الذى يصل دمى بدمها حتى نموت.

آه أيها الزوال اللعين.. لو كنا نعرف لما هبطنا إلى أبد الآبدين!..

قالوا لنا إن الحب محرم علينا وإن الماء محرم على عصفورنا. أمرونا أن نحبسه بيدينا فى قفص، ولما امتنعنا انهالوا علينا بسياط نارية حارقة موجعة تنفذ آلامها حتى النخاع. كان الشرر يتطاير من عيونهم لحظة أن وقعنا بين أياديهم ذات الحوافر الحديدية المدببة.

بأيدينا وضعنا عصفورنا فى القفص وأغلقنا عليه بابه، حيث لا حب يلتقطه ولا ماء يرويه. تركونا مكبلين بقيود من فولاذ. كان قلبانا يتفطران ألما وحزنا على وهن العصفور الصغير ونحن نسمع بكاءه ووصوصاته النائحة الخافتة الحزينة. ودّ كل منا لو افتداه بعمره، وامتزجت على وجنتينا دموع القهر وقلة الحيلة حين أخذ بنا الإجهاد فرحنا فى غيبوبة الألم المقدس.

حين أفقنا لم نجد عصفورنا فى قفصه ، وإنما وجدنا ثغرة رقيقة تمكن من الهرب منها والنجاة بحياته مهاجراً إلى حيث الحَبّ والماء والحرية.

جاء الأفاعى والنمور وفكوا قيودنا وانصرفوا.. وبعد قليل مضى كل منا إلى طريق!!.. وكنا قد تعاهدنا أمام عصفورنا المهاجر ألا يفرق بيننا إلا الموت.

****

"مسائل كونية"

- **الجنسية:**

كنت على موعد فى السفارة المصرية حين التقيت مصادفة بسيدة قاهرية قالت إنها جاءت خصيصا إلى السفارة حتى تجد من تتكلم معه باللغة العربية على الرغم من إجادتها للسويدية . أشفقت كثيرا على حنينها للغة الوطن . وعند لقائى بالملحق الثقافى تبين لى أنها تستميت لأجل الحصول على الجنسية السويدية.

عندما غادرت المبنى كان يشغلنى التفكير فى الفرق بين الجنسيات المصرية والسويدية والاكوادورية، فعدت إلى رحم أمى قدر ساعة من الزمان ثم غادرته إلى أزمنة هرمس ورعمسيس وأخناتون ، وكنت فى تلك اللحظة خلية واحدة عديمة الجنسية .

****

- **الملوك والحكام:**

أمام القلعة الملكية باستوكهولم التى يحرسها عدد قليل من الجنود ، أقف مبهورا بروعة المكان المطل على النهر . يفاجئنى جندى بتأدية تحية عسكرية جادة، فألتفت من حولى فى دهشة لأتأكد أنه يقصدنى فعلا بهذه التحية .

عندما لاحظ دهشتى قال لى إن وظيفة رجل البوليس هى خدمة الشعب وضيوفه ، وواجبه الأول احترامهم ....

وعندما سألته عن حياة الملك بانبهار عظيم واحترام لا يخلو من مبالغة قال لى :

ـ يجب أن تعلم أن هذا القصر يسكنه موظف وضعه الشعب فى خدمته وأعطاه لقب الملك .. وعندما بعث بن المقفع فى رسالته الرقيقة إلى الخليفة المنصور العباسى ينصحه بجسن اختيار معاونيه والرفق برعيته ، فإن أمير المؤمنين أمر على الفور بتقطيع أطراف الرسول قطعة بعد قطعة ، وشيهاً أمام صاحبها ثم أمره بمضغها وابتلاعها أمامه وقال عبد الناصر العظيم - وصدقت قوله - إنه لم يكن يعلم أن أتباعه كانوا يدربون الكلاب على مضاجعة معارضيه وأعدائه ..... أما الأسد السورى فإنه يكتفى بدك المدينة المعارضة بدباباته فى زمن قياسى حتى لا تجرؤ طوبة بعد ذلك أن تفتح فمها ، ولهذا فإن الشعب العربي آثر الصمت عملا بالمثل الشائع حول رأس الذئب الطائر أو " اضرب المربوط يخاف السائب "

ومما زاد الطينة بلة أن الجندى السويدى عاود تأدية التحية العسكرية لى عندما اتجهت للانصراف من باب القصر الملكى .

****

- **شجرة العائلة:**

على ضفاف بحر البلطيق فى هود يكسفال دعوتها لنتناول القهوة فى مقهى صغير . قالت إنها بلا أب فسألتها عن أمها . قالت إنها تعمل وتعيش فى مدينة أخرى .

ـ فمن يتكفل بمصروفات دراستك وسكنك ومعيشتك ؟

ـ المسكن تمتلكه أمى، وعملى يكفل لى قيمة المصروفات الدراسية ، أما ثمن الطعام والكساء فترسله لى أمى شهريا .

ـ وهل تعيشين وحدك بالمنزل ؟

ـ نعم ولكن صديقى يزورنى مرة كل أسبوع

ـ ولماذا لا يقيم معك؟

ـ لأن له سكن خاص فى نفس المدينه.

ـ فلماذا لا تقيمين معه ؟

ـ لأنه يعمل بمدينة آخرى !

****

- **لغة الطرشان:**

فى مطعم للبيتزا بضاحية إيجسند ترامى إلى سمعى شجار للمرة الأولى منذ حضرت إلى السويد . دفعنى حب الاستطلاع إلى دس أنفى فى المشكلة . توجهت إلى صاحب المطعم الثائر . تعجبت أنه يصرخ بألفاظ إيطالية ولا ينطق كلمة سويدية واحدة . تبادله الصياح بالإيطالية سيدة أكثر هدوءا وبينهما يقف شاب وقد عقد ذراعيه فى برود على صدره دون أن ينطق حرفا .

وبقليل من الجهد توصلت إلى أن السيدة السويدية هى زوجة الإيطالى ، وأن الاثنان يتفقان معا على كراهية السويد بسبب عنصرية شعبها، وأن الرجل يرفض رفضا قاطعا أن يتعلم السويدية ، وأن الحوار بينه وبين ابنه مقطوع تماما لاختلاف اللغة !

- **صوت الصمت :**

فى ربيع هود يكسفال تشرق الشمس فى الثالثة صباحا ولا تغرب قبل العاشرة . يطول بى النهار فأتجول فى الخلاء الواسع ولا ألتقى بمنزل إلا بعد وقت طويل .... ولا ألتقى ببشر فى الطريق إلا بعد وقت أطول . أما نوافذ المنازل فلم ألمح من خلفها وجه مخلوق يؤكد لى أننى أسير على كوكب الأرض .

أتوقف فجأة أما بيت صغير تحيط به حديقة رائعة، فقد رأيت امرأة جميلة تقف خلف زجاج إحدى نوافذ البيت . شعرت بالأنس والطمأنينة ورغبت فى أن ألقى عليها تحية عابرة أثناء مرورى فلوحت لها بيدى لكنها لم ترد التحية . تعجبت لذلك ولكنى لم أيأس فكررت المحاولة دون استجابة .. ولما اقتربت كثيرا من المنزل تبين لى أنه تمثال نصفى لامرأة موضوع خلف النافذة، وأن هذا البيت الصغير ماهو إلا محل أنيق لكوافير سيدات .

****

- **رأيت أخاك:**

هربت من السيريلانكى كولانتاهاى كوماران الذى يبسبس بأسنانه أثناء تناوله الطعام وبعد الانتهاء منه حتى يصل بى إلى حد الغثيان . كان قد اتفق معى على الخروج فى جولة لاستكشاف الضاحية الجديدة التى جئنا لزيارة مصنع كبير بها ومشاهدة قطع أخشاب الأشجار فى فيزلاند بأحدث الأجهزة الأوتوماتيكية .

لم يكن موقفى منه نبيلا ، لكنى لا أكاد أطيق سلوكه وأفعاله فهو يخطف الطعام ولا يتناوله ، وهو يكسر الأكواب دون قصد ويتهافت على النساء بحيوانية مقززه .. لكنه كان قدرى فى هذه الرحلة المحدودة بحكم توزيع أعضاء البعثة على مجموعات من حين لآخر .

عدت إلى مقر الإقامة فلم أجده . نزلت أبحث عنه وقد انتابنى هاجس بأنه توغل فى الغابة فأكله أيل أودب .. فى الطريق لمحت صبيا يبتسم لى فى دهشة فحييته بحرارة حين قال لى مشيرا إلى أحد مداخل الغابة :

ـ رأيت أخاك يسير منذ قليل فى هذا الاتجاه !

****

- **أرق الرفاهية:**

جئت من بلاد أعمل بها كثير وأكسب قليلا ولا أجد وقتا للفراغ واللهو ، وإنما أنام مجهدا فيعلو شخيرى فى الآفاق.

وفى السويد قال لى موظف كبير إنه يشكو من الأرق والملل والشعور بلا جدوى الحياة !

كان راتبه يعادل خمسه آلاف دولار فى الشهر ومنزله مؤنث بأحداث الأجهزة الكهربائية والترفيهية.

كرر شكواه فقلت له كاتما غيظى:

ـ هل تسألنى النصيحة لتعمل بها ؟!

ـ نعم

ـ أشك فى ذلك

ـ قلها ونتناقش
ـ تبرع بثلثى راتبك لأية جهة محلية أو خارجية لفعل الخير.
بدا مندهشا لقولى فتابعت دون أن أعبأ به :
ـ ثم تخلص من كل الأجهزة المكدسة فى بيتك.
فتح فمه دهشة وهو يظن بى الجنون فواصلت :
ـ واذهب لتعمل فى الحقل أو الغابة ودع وظيفتك بعد ذلك وتوكل على الله .
ـ ولم هذا كله ؟
ـ لتشفى من الأرق والملل والشعور بلا جدوى للحياة .
****

- **الدجاجة والبيضة:**

قلت له لائما :
ـ أنتم ترفعون سعر خشب السويد وكذلك منتجاتكم الصناعية كل عام .
ـ لأنكم ترفعون سعر البترول .
ـ لأنكم ترفعون سعر الخشب وسائر المنتجات.
ـ لأنكم ترفعون سعر البترول .
ولست أذكر أينا كان البادئ بالتوقف عن الكلام .
****

- **نشيد الكون السعيد:**

امتطيت الدراجة وانطلقت إلى الغابة . توغلت بداخلها وتحذيرات كارل ترن فى أذنى عن الدببة والأيائل .انتشيت برائحة الشجر وأجنحة الطيور الملونة وانسياب ماء البحيرة فى لحن بديع . دعتنى فرحة الطبيعة لمراقصتها فى هذا الفضاء الشاسع الذي يخلو من البشر . لم أجد غير الأرض صدرا أحضنه ويحتضننى لنغنى معا نشيد الكون السعيد !.. رحت أتمرغ بملابسى فوق الخضرة والدراجة ملقاة بعيدا عنى . ولو كان بمقدورى أن أتوحد برمال التربة السوداء وأتلاشى بين ذراتها لما ترددت ... وأغلب ظنى أن هذا ماكان .
****

- **الانفصام:**

قال لى فياندور الكوبى إن مظهري الكلاسيكى وسلوكى الترددى ووقارى الشرقى، ما هى إلا ستائر داكنة يختفى من خلفها عربيد متمرد يعشق الجنون والانطلاق. قلت له دون اعتراض على تشخيصه الدقيق :
ـ لكنك نسيت شخصا آخر فى داخلى .
ـ فمن هو ؟
ـ ذلك الذى يقرر متى يظهر الوقور ومتى يظهر المتمرد العربيد .
****

- **الدكتورياتس:**

أفنى ثمانين عاما من عمره فى دراسة تخصصية بالغة الدقة لليفة السليولوز المجهرية . أدرك خواصها الطبيعية وتوصل إلى أسرارها الكيمائية .
ها هو يقتلنى بهذه التفاصيل ساعة كاملة في محاضرة من محاضراته الدسمة ، لكنى أتوق إلى التجوال على ضفة النهر وتدخين سيجارة في مقهى بالحى العتيق ، والرقص مع حسناء فى ملهي ليلى .
أشعر بالاختناق فأتخيل مخه وقد استحال إلى تراب بعد موته ، وأما الليفة السليولوزية الخائنة فتأبى أن تذكره أوحتى تمشى فى جنازته .
****

- **صراع الحضارات:**

بانتفاخ قاتل دعانا مستر بورش لحفل استقبال ابنه العائد من أمريكا بعد حصوله على شهادة عالمية في شئ لا أذكره . سارع الجميع إلى الحفل فى لهفة . بقيت فى غرفتى بالمقر أقرأ صفحات من رواية لوليم فولكنر حتى غلبنى النوم . فوجئت بمدير البعثة يطرق بابى متعجبا لعزوفى عن الحفل . شاهدت هزيمة كبريائه فى عينيه الكاذبتين وهو يسألنى بأدب شديد:

ـ نحن نفتقدك فى الحفل يا مستر سالم . سوف ننتظرك .

وانصرف واثقا من حضورى ولو من باب المجاملة الاضطرارية ، وكان منزله قريبا من المقر بحيث يستغرق الوصول إليه دقائق معدودة.

بعد انصرافه واصلت النوم بعمق أشد .. وفي صباح اليوم التالى قال لى بما تبقى فى نبراته من كبرياء جريح :

ـ فاتتك ليلة من ليالى العمر .

وشعرت بلذه الانتصار لكنى تعجبت من نفسى إذ كانت بى رغبة قوية فى حضور الحفل !

****

- **الحرية :**

لم أتمالك نفسي من الضحك ذهولا بينما أرقب فى التلفزيون برنامجا خاصا عن الشواذ . يتحدثون عن الحب الخالص لبنى الجنس الواحد بعضهم البعض ، وكيف يتعرفون بسهولة على ميولهم المشتركة . ثم عرض البرنامج مظاهرة كبرى يطالبون فيها بتشريع رغباتهم وتحويلها إلى حقوق دستورية . نظرت فى حيرة إلى أوجومباميرو النيجيرى مستفسرا عما يقصدون . قال بهدوء :

ـ يطالبون بحرية زواج الرجل من رجل أو المرأة من امرأة !

ـ يا الله !!

ـ لا تندهش .. فالحرية لا حدود لها ..

وأعترف أن الدهشة حاصرتنى بقوة أشد بعد مرور خمسة عشر عاما على ذلك المشهد المقزز، وحين عقد مؤتمر دولى بالقاهرة أطلقوا عليه مؤتمر الإسكان ، إذ أقر المؤتمر كل هذه الحقوق!

****

- **الأكذوبة الكاذبة:**

مللت تهافتهم على الفتيات أكثر مما مللت تهافتهم على الطعام والشراب . كل من يلقى زميله يسأله إن كان قد نجح في إقامة علاقة وثيقة مع فتاة . وينهمر غيث من أعراض الحرمان والجوع والفقر فى كل شئ ، فتنطلق الأكاذيب الفاضحة من أبناء العالم الثالث الذين جاءوا إلى السويد وهو يعتقدون أن الفتيات سوف يتقاتلن لأجل الحصول على لمسة من جلودهم البرونزية والسمراء .

كان لابد أن أختلق كذبة أنا الآخر حتى أنجو من هذا المطب السخيف . وانهالت على الأسئلة بلا رحمة :

من هى . ما اسمها . كيف عرفتها . أين . ماذا فعلت بها . ماذا قالت لك .هل أعجبتها . هل استمتعت بها أكثر مما تستمتع ببنات قومك ؟!!

ولما ازداد الحصار من حولى حتى كاد أن يفتضح أمرى قلت لهم بوقار:

ـ لقد كانت خرساء ولم تكشف لى عن جنسيتها ، وأغلب ظنى أنها سائحة مصرية !

****

- **الجنرال الصبور:**

عند زيارتى لقلعة الملك كارل الخامس عشر ترددت أسطورة جنراله الشهير الذى تقدم للزواج من فتاة فرفض طلبه .. عاد إلى الحديقة فزرع شجرة ، واستمر على هذا الحال حتى صار بالحديقة اثنتا عشرة شجرة ! .. ولكنى لست أذكر هل وافقت الفتاة الثالثة عشرة على الزواج منه ثم مات ، أم أنه مات قبل أن يزرع الشجرة الثالثة عشرة ، أم أنه شعر بالملل فامتنع عن زرع المزيد من الأشجار ثم مات ، أم أنه مات ثم تزوج بعد ذلك ولم يزرع شجرة جديدة .. أما الذى سأظل أذكره دوما ، أن الجنرال الصبور قد فنى منذ عشرات السنين وبقيت الأشجار !

***

- الأعمال بالنيات:

فوجئت للمرة الأولى بعاملة النظافة تطرق باب سكنى بمقر البعثة . دخلت ومعها المكنسة الكهربائية وبعض أدوات النظافة والمناشف الورقية والقماشية . راقبتها وهى تعمل باجتهاد غير عادى وحب شديد .. قررت أن أمنحها بضع كورونات كمكافأة تشجيعية . اقتربت من زجاج النافذة المطلة على المدخل لأبحث فى الدولاب المجاور عن حافظة النقود . فوجئت بها وقد أنهت عملها وانصرفت دون أن أدرى .. كانت تفتح باب عربتها الفولفو بعد أن وضعت معدات النظافة بالصندوق الخلفي .. لم أفق من دهشتى إلا على صوت الموتور القوى .

***

- نوم الهنا:

على المقعد المواجه لمقعدى مباشرة فى القطار المتجه إلى جوتتبرج استغرق الفتى وصديقته فى قبلات مرحة وكلمات دافئة . وبمضى الوقت قلت الكلمات وازدادت أزمنة الاستغراق فى القبلات الصامتة . كنت أسمع أنفاسهما تتردد وأري الرغبة فى عيونهما تتأجج . إجتهدت أن أتحاشى النظر إليهما مباشرة قدر استطاعتى فهذا شئ لا يعنينى وإن كان يثير فضولى ، ويبدو أننى شردت قليلا حين ساح خيالى إلى مصر ، حيث يستحيل أن يحدث مثل ذالك المشهد . فوجئت بالمقعد خاليا . سارعت عيناى بتعقبهما . لمحتهما يدخلان معا دورة مياه الرجال بنفس العربة . لم يلتفت إليهما أحد على الاطلاق . بعد فترة زمنية كافية خرج الاثنان عائدين إلى مقعدهما . نامت فى استرخاء على صدره ، أما هو فقد أخرج من حقيبته كتابا صغيرا واستغرق قراءته دون أن يدرى بما حوله ، ولم يلبث أن نام هو الآخر .

***

- غناء

غناء .. أول من عرفت فى حياتى من حاملى الجنسية الإسرائيلية من الجنسين . يهودية يمنية قبيحة الوجه حلوة الروح . التقيت بها فى القطار المتجه إلى " ليسيبو " . قدمنى لها الثرثار السيريلانكى كولانتهاى كوماران بناء على طلبها وموافقتى ثم تركنا ومضى سعيدا بما فعل . لم أكن أعرف فى بداية الحديث أنها من أصل عربى فظللنا نتحدث عن السلام ونمتدح السادات بالانجليزية حتى قالت فى سقطة لسان مفاجئة : " معلوم "!

بعد ان اكتشفت ملعوبها سألتها عن ذلك السويدى الجميل الوجه النائم بجوارها ففوجئت بأنه زوجها . شجعتنى روحها المرحة على تخفيف حدة التحفظ فقلت لها :

ـ كيف حصلت عليه؟

ـ مثلما تحصل أى امرأة على رجل تريده

ـ أين ؟

ـ فى اليمن حيث جاء ضمن مجموعة عمل فى مشروع بصنعاء

وبغير تخطيط مسبق تخليت عن توجسى تماما فسألتها وأنا أغمز بعينى :

ـ ولكن هل له بسخونة أهل الشرق؟

ـ فى البداية كان باردا كالثلج

ـ ثم ماذا بعد ؟

ـ جعلته مدمنا للبهارات اليمنية .. معلوم !

حتى لو لم تكن شهور أربعة قد مضت على مبادرة السادات ، فإن هذا لم يكن ليحول دون الضحكات والقفشات والنكات العربية المتبادلة بيننا طول الطريق .

بعد عودتى إلى عربتى تعجبت لماذا انتابتنى رهبة شديدة وسيطر علىّ قلق بالغ عندما جاءنى كوماران قبل ساعة يعرض على فكرة الالتقاء بغناء .. تلك الإسرائيلية القبيحة الوجه ، واليمنية حلوة الروح .!

****

- **الحنين :**

أمام خريطة العالم أقف واعيا بحجمى وكيانى ومقدارتى مستسلما لأقدارى . أنظر إلى تلك البقعة الصغيرة فى منتصف العالم . على كل هذا البعد السحيق تنتظرنى الآن زوجة محبة وطفلان جميلان وأم رائعة .. تفصل بينى وبينهم محطات شاسعة ، لكنها لا تستطيع مهما تلاطمت أمواجها أن تقطع ما بينى وبينهم من وصل جميل .

إنى بشوق جارف إلى أزقة بلادى وشوارعها وأناسها المتزاحمين المتصارعين على لقمة العيش، المتحدثين بلغة القرآن .. شوق تعجز الكلمات عن وصفه حتى أننى تعجبت من نفسى كيف أضيق بعد أسابيع قليلة بهذا الجمال الذى أبهرنى منذ وطئت قدماى أرض السويد .. فمن ذا الذى يضيق بالنظام ويحن إلى الفوضى ، ومن ذا الذى يضج من الرخاء فيبحث عن الفقر ، ومن ذا الذى يمل الهدوء فيشتاق إلى الزحام والضجيج ما لم يكن بعقله عطب ما .

أردت أن أقارن نفسى بغيرى من المبعوثين فسألت البعض منهم إن كان الحنين إلى الوطن قد عاوده أم أن تلك الحياة المشبعة قد أنستهم حياتهم .

ولما علمت أن معظمهم أكثر حنيناً منى إلى أوطانهم أدركت أنها ظاهرة إنسانية تشد الإنسان إلى جذره ومنبته وانتمائه ، وأن من لا ينتابه مثل هذا الحنين فإما أنه عديم النخوة وإما أنه عالمى الانتماء قد بلغ من الفكر ذروته ، فاتخذ من الأرض بأسرها وطنا له وأصبح وجوده على أى بقعة منها لا يختلف فى شئ عن وجوده على بقعة أخرى .

استعرض خيالى صور المبعوثين جميعا لأنتقى منهم أصحاب الانتماء العالمى فلم أقف عند أحد منهم .. الكل يقدس وطنه ويراه أجمل الأوطان ويتعصب لفقره وتخلفه بلا تبصر ، حتى الحاصلين منهم على الدكتوراه فى العلوم !

سارعت إلى غرفتى أكتب الخطابات لأسرتى وأصدقائى فى مصر .. ولا مفر من مواجهة شعورى الحقيقى الذى تبينته فى تلك اللحظة بأن انتمائى لتلك البقعة الصغيرة من الأرض والتى تقع فى منتصف العالم هو فرع متين من شجرة انتمائى إلى الكون وخالقه العظيم .

****

" الرقصة الأولى "

يا ويلتى .. ماذا أفعل بنفسى لو تقدمت إليها ثم رفضت دعوتى للرقص ..؟

إنـى أشـتهى تلـك الفتنـة المتألقـة المتوهجـة المشـتعلة بنـار الجمـال الحـارق .. يقيـدنى بالفولاذ ذلك التراث الطويل العريض العميق من القهر الفردى والجماعى والفكر الموروث الذى تكاتف الزمن والموقع والدين والحكام والتاريخ فى تكبيلي بـه . يقتلنـى التـردد يعذبنى . يكـوينى بلهيب الخوف من المحظور وسوء الظن وخشية سوء الفهم ، وشئ من الإحساس منذ طفولتى عن حضارة آلاف السنين .

أطفأت سيجارتى وتقدمت نحوها بخطى غير واثقة .. اقتربت من مائدتها التى يجلس من حولها مجموعة من الفتية والفتيات ، فوجئت بعيونهم تتطلع نحوى فى دهشة ممزوجة بالحياء . ابتسمت فى رقة .. لم تلتفت إلى تعثرى فى الكلمات وإنما قامت واقفة على الفور لتزيل عن صدرى جبل الجليد .

ضحكنا من الأعماق وتحولت الموسيقا الصاخبة فجأة إلى إيقاع التانجو الهادئ .. وها هى معشوقتى المجهولة الحالمة بين أحضانى . تخاطبنى فى أذنى مباشرة حتى لا تغلب الموسيقا على همسها فأشم رائحة أنفاسها الزكية . ليتها تدرك أن همسها أروع من الموسيقا وأطرب ، وأن زفيرها العطر قد بعث الحياة من جديد فى روح جدتى إيزيس بعد آلاف السنين منذ حمل أبوللو معبودته طائراً بها من جبال الأوليمب إلى نيل مصر الساحرة .

لفت نظرى بشدة أن جسدها يرتعش . ظننت فى البداية أن الخمر قد لعبت برأسى ففكرت أن أسألها لماذا ينتفض جسدها ولماذا هو ساخن ملتهب هكذا .. أهو خوف أم ارتباك أم خجل أم رغبة ؟ .. وإذا كان هذا حالها وهى ابنة الشمال البارد الغارق فى الثراء فكيف يكون حالى والحياء يكاد يقتلنى كعذراء تتعرى أمام رجل للمرة الأولى .. إنها تلتصق بى فى تعمد غريب فأبتعد فى ارتباك مستتر. لعلها نسيت الآن صديقها المسافر الذى حدثتنى عنه وتريدنى أن أضمها إلى صدرى لتسبح فى أنهار شوقه الطويلة.

تصبب عرق على جبينى فقررت المجازفة، ثم عدلت عن قرارى ، ثم ترددت بين القرار والعدول عنه ، ثم آثرت السلامة متوهما شدة احترامها لى لكونى مختلفا عن الآخرين فى تهافتهم عليها والتهامهم لمفاتنها بعيون العالم الثالث الجائعة .. وما أن انتهت الرقصة حتى أعدتها إلى مائدتها وقبلتها مثلما يفعل الآخرون ثم عدت إلى مائدتى ثمل الأعطاف أجتر وقائع التجربة الأولى فى عمرى للرقص مع فتاة فى شمال غربى الكرة الأرضية.

****

" فيرينا مازالت تذكرنى "

وصلنى خطاب من أوروبا . ظل على مكتبى لساعات طويلة دون أن أشعر بحافز على فتحه، إذا استبد بى شعور بأن فتحه أو تركه مغلقا أمران متساويان ، ثم تحول هذا الشعور بعد ذلك إلى رغبة فى تمزيق الخطاب دون قراءته مادام الأمران متساويين .

****

فى لحظة صفرية من عمرى المستدير على الأرض الكروية ، تراءت لعينى الخيوط المضببة التى تشدنى فى خبث إلى العالم وتربطنى به، فهالنى مالحق بها من تمزق فى البعض ، وتشابك عنكبوتى فى البعض الآخر ،حتى أن بعض الخيوط كادت أن تفقد تواصلها الجذرى معى ، بل إن البعض منها قد قطع، والبعض استطال وتمطى وتثاءب واسترخى فنام .

والحق أنى فرحت كثيراً بهذا الاكتشاف غير المنتظر ، خاصة أننى علمت من رجل ذى معرفة أحترمه كثيراً أن المتشبث بالدنيا لا يختلف كثيرا عن الكلب المتشبث بجيفة ! .. صحيح أننى تقززت من التشبيه فى بداية الأمر، لكن عدد الخوازيق الصلبة التى أقعدتنى عليها الدنيا بعد ذلك جعلتنى أصدق هذا الرجل .

فمنذ ولدت وأنا مجبر على التعامل مع خيوطى برفق وحذر أو بعنف وشجاعة كل فى حينه وطبقا لمقتضيات الحال وضرورات الحياة من دم وهواء وماء وفن ومحبة ومعرفة وتوق إلى الحرية . لكن الحقيقة التى لم يكن أمامى بدّ من مواجهتها هى أن معظم الخيوط قد تهرأت بفعل الزمن وهول الأحداث فأصبح من المتعذر على أحد أن يذكرنى مثلما أصبح من المتعذر على أن أذكر أحدا .

وكان السؤال الذى يؤرقنى دوماً هو :

ـ هل تستحق الحياة كل هذا العناء وكل تلك المكابدة ؟

غير أننى لم أتوصل إلى حقيقة مؤكدة ، ذلك أن الحياة ظلت تراوغنى كلبؤة حرون ، فتارة تلقى إلىّ بلذة فأنطلق وراءها فى نهم وحماس دونما تقصير فى جهد أو عناء ، وتارة تشدنى بعنف لتضعنى رغم أنفى على خوازيقها ، وما أن أنجح فى الإفلات منها حتى أقول لنفسى وأنا أداوى جروحى النازفة :

ـ اللعنة عليها .. إنها لا تستحق الاهتمام !

وعلى الرغم من ذلك فقد قررت مواجهة لحظتى الصفرية بشجاعة جراح لا يعرف التخاذل ، وقررت التخلص من الخيوط العنكبوتية المتشابكة ، وإزالة ماسببته من تعقيدات للخيوط الأخرى، واستئصال الخيوط المهترئة التى فقدت اتصالها بجذورها ، طالما أن انقطاعها عنى لم يختلف كثيرا عن اتصالها بى .

وبالطبع لم يخطر ببالى أن أفكر فى إنشاء شبكة خيوط جديدة ، فذلك خارج عن إطار لحظتى الصفرية وعمرى المستدير ، فضلا عن أن الخيوط الكائنة جميعا ليست من صنعى ، وإنه ليس بمقدور كائن بشرى أن يدعى ـ فى صفاقة أو تواضع ـ القدرة على أن يصنع بنفسه خيطا واحدا من تلك الخيوط .. قد يمكنه فقط أن يرتقها أو يغذيها بما ينقضها من أسباب البقاء المتصل بالأصل ، أما من يتورط فى اعتقاد مخالف ، فقد ينتهى به المطاف إلى الهوس !

على ضوء ما سطعت به اللحظة من بريق التمع فى ذهنى وتوهج ،كان لابد أن أقوم بأفعال بهلوانية منطقية ، وأن أقول كلاما جميلا غير معقول ، وأن أذهب ماشيا على يدى إلى بعض الأماكن التى لم توجد بعد ، وأن أتحاشى بعض الأماكن التى لم توجد بعد ، وأن أتحاشى بعض الناس الذين تواجدوا فى هذه الأماكن بمحض الصدفة ، وأن ألتقى بالضرورة بالبعض الآخر ، وإن كنت أشك أن أحدا على وجه الأرض ما زال يذكرنى حتى أعلن له بكل فخر نتيجة عمليتى الجراحية الفاشلة .

حينئذ أسفرت تلك اللحظة عن شعور بالحنين إلى أمى فوجدت أنها قد ماتت ولم تعد تذكرنى ، ولم أشك فى ذلك أبدا لأننى رأيتهم بعينى وهم يهيلون التراب على جسدها داخل حفرة فى الأرض ، حين أدركت أنه لا معنى لنظرة تستجدى من الحبيب ، أو لبضعة جنيهات مستحقة عند صاحب العمل .

وقادنى الحنين إلى قلوب أصدقاء قاسمونى يوما حلاوة المشاركة فيما جادت به أواصر الخيوط من مسرات ونعم ، فوجدت أنهم تفرقوا بفعل قنابل الزمن الموقوتة التى أخذت بشتات خيوطهم ما أخذت من الأهل والأخوة الحاضرين الغائبين والرفاق الأحياء والأموات ،وذكريات الزمن السعيد .. فصارت بعض القلوب رمادا وبعضها أحجارا صماء فقدت نبض الحياة .

هكذا صرت فى لحظة كائنا هلاميا قد انفصل بمعجزة عن مخلوقات هذا الكون المخيف ،وما جاد علىّ شئ ببصيص من نور الفرحة بالتوحد مع إنسان أعرفه أو أحبه أو حتى أذكره .. حتى الحنين إلى الماضى فقد أثره وقطع دابره .

****

فتحت المظروف وقد ملّ انتظار أناملى أن تفتح بابه المغلق على وهم ، مهما ظن كاتبه بأهمية ما احتواه من حروف متصلة ومنقطعة .

فيرينا نيلز ..

من هى فيرينا هذه .. ولماذا يصلنى منها خطاب فى هذه اللحظات بصفة خاصة ؟! أحقا إنها تلك الفتاة الفنلندية التى فرق بينى وبينها يوما بحر صغير ؟! ..

أتسأل عنى بعد مرور ستة عشر عاما على حديثنا التليفونى الحزين ؟ .. تعبر البحار والمحيطات والأزمنة والقارات بكلماتها الحلوة لتطمئن على صحتى و أولادى وحياتى ورؤيتى للمستقبل ؟!

ياه ..... !!

إن أخى الذى يعمل بالخارج لم يبعث إلى برسالة واحدة منذ عدة أعوام وهو الذى نزل معى إلى الدنيا من مكان واحد ، لكن الخيط بيننا قطع وتبدد ..

تحدثنى عن ابنتها وقد تخرجت فى الجامعة وعن زوجها وقد أحيل إلى التقاعد وعن عملها وقد تركته إلى عمل آخر وعن مدينتها وقد غادرتها إلى مدينة أخرى .

ياه ...!

ظللت ألهث بعينى حتى نهاية السطر الأخير من رسالتها باحثا عن السبب الرئيسى الذى ربما يكون قد دعاها إلى الكتابة إلى ، فلم أجد غير التحيات والأمنيات الطيبة ..

ياه ....!!

على الرغم من بعد الزمان ... وبعد المكان ...، فما زالت فيرينا تذكرنى !

****

أعباء الذاكرة

غادر المقهى متراخياً. اتجه إلى الشاطئ. مشى بمحاذاة النهر فى خطوات بطيئة. على زبد الموج تطفو شذرات من الذاكرة: رشفة قهوة. ضحكة من القلب. أنفاس سيجارة. نسمة نيلية منعشة. قبلة حب. كسرة خبز طازج. رائحة شواء مثيرة.. وعطر يتسلل بسحره حتى ينفذ إلى خلايا الدم.

لا داعى إذن للأقراص المهدئة فوجه الحياة يبدو باسماً باحتوائه على كل تلك المسرات – ممارسة واجترارا- فى لحظة واحدة، ولا عجب حين تخطر السعادة متهادية على أطياف ذكريات عبرت أفق الزمان بعد أن غابت طويلا فى كهوف الماضى.

لم يكن يريد شيئاً. انحرف حول الجزيرة متجها إلى الخلاء. أنِس إلى الصمت والخلوة فتنقل من فكرة إلى فكرة. هام فى الفراغ، وتساءل أمن الأفضل أن يتناول المزيد من القهوة ليكون أكثر انتباها للزمن الآتى أم يبتلع المهدئ ليصرف انتباهه عن كل الأزمنة. تراءى له أن الصحوة والغيبوبة قد تساويا من قبل فى كثير من الأحيان، وإذ به يتذكر فجأة إنساناً لم يره منذ كان طفلاً فى السابعة.لم يدر كيف أو لماذا استحضرته الذاكرة من عدم، ولأن الدنيا تمنع مثلما تمنح، فمن العبث أن يتعقبها بالدرس والتحليل والتفسير.

تساءل أيضاً أين موقع هذا الكائن الإنسانى الغائص فى عمق الغيب من تلك البقعة المرتبكة على أرض الكوكب الدوار. ترى أمازال يسكنها ويتشيث بتلابيبها، أم انه قد آثر الفناء فى جوفها المترب لسبب أو لآخر، أو ربما بلا سبب؟!

إبراهيم محروس.. يتذكره الآن جيداً وكأنما قطع الزمان طريق الأمس البعيد على اللحظة الكائنة، فالأمر أقوى بكثير من التذكر والاسترجاع. إن إبراهيم أمامه الآن بتضاريس وجهه التفصيلية المميزة .. ببنيانه الجسدى الهائل مقارنا بأنداده.. ببراعته فى كرة القدم والجرى والسباحة. رفيق الطفولة ولا شئ أكثر من ذلك. لاحدث. لا مفارقة. لا واقعة بعينها تستدعى حضوره بهذه القوة المكثفة إلى يؤرة الذاكرة لدرجة التسلط.. ولكن أين هو الآن؟!

استقل عربة خاصة متجها إلى بيت الأسرة القديم. هنا ولد وعاش طفولته وارتعش القلب بأولى نبضات الحب. هنا صدم بضرورة التنافس وأهمية التفوق وحب التميز.. من نفس المئذنة الجميلة ينطلق أذان المغرب. يالها من تراكمات هائلة قاسية على النفس ينبغى إزالتها واستئصال جذورها حتى يستشعر نفس أحاسيس الصبا لدى استماعه للأذان .. خطوات الناس إلى المسجد تختلف كثيراً عن تلك الخطوات البائدة التى لا تتكرر. . لعلها الطمأنينة قد ضاعت أو لعله ذلك الشعور الغائب بالنبل والكرامة وجميل الرضا حين ينعكس على وجوه الناس القدامى ذات السماحة الآسرة.

-كيف حالك يا عم حسين؟

-نحمده ونشكر فضله ولا نسأله إلا حسن الختام.

-متعك الله بالصحة .. هل تذكر آل محروس؟

-يووووه.. لقد رحلوا مثلما رحل غيرهم من زمان.

كان عم حسين النجار قد فقد بصره بعد تسعين عاماً من التجوال فى أزقتنا الشعبية يصلح الكراسى ويصنع الموائد والأسرة وعشش الفراخ. فى قبوه العتيد لم يزل، والتسليم العزيز قابع على خطوط وجهة المتشابكة فى قدم عظيم .. الجديد فقط هو تلك النظرة الشاردة المتعبة المطلة من عينيه الجامدتين بفعل الظلام الدائم الذى حل بهما.

آه يا بيتنا القديم. يا أياما رحلت ويا عمرا تبدد. أين أنت يا إبراهيم ولماذا أبحث عنك وماذا أفعل بك إن وجدتك؟! ربما لا تعرفنى. ربما أصابك الغنى أو الفقر بضعف فى الذاكرة.

وربما التقينا بعد كل هذا العناء بلا حماس فلم يجد أحدنا ما يقوله للآخر، ويسود الصمت ويسيطر السكون.

فى فناء هذا البيت العتيق لعبنا صبيانا وبنات. كانت تظلل أحلامنا شجرة جميز ضخمة لم يعد لها أثر. معاول الهدم تزحف على الحى بأكمله متجهة إلى زقاقنا ثم إلى بيتنا. الزمان الجديد لا يهنأ ببقاء القديم إلى جواره. بعد أشهر قليلة سترتفع عمارات شاهقة لتحل محل البيوت الوديعة الواطئة.. وتموت طرقات عم حسين بشاكوشه الأزلى على رؤوس المسامير .. وتذهب الأيام الحنون الهانئة إلى غير رجعة.

قال عم حسين إن آل محروس قد انتقلوا منذ الحرب إلى الإسكندرية ولم يعد أحد من الأسرة يتردد على القاهرة إلا لمصلحة عابرة.

فى القطار كان عازما على مواصلة البحث بجدية من ينجز عملا مثمراً، ولحسن الحظ أن له العديد من الأصدقاء بهذه المدينة الفاتنة. سنوات الشباب والفتوة هى الإسكندرية.. أيام عشق المعرفة والجمال كانت بين أروقة جامعتها ومنتديات آدابها وفنونها الجميلة.. أما نسماتها البحرأوسطية فقد كانت تنزل على القلب بردا وسلاما.

ما أن خطا خطواته الأولى أمام باب المقهى حتى بدت له كتمثال رخامى أصيل لربة من ربات الحكمة والمعرفة.. جالسة إلى مقعدها فى مواجهة النصبة وأمامها النادل يضع الماركات، عيناها تترقبان فى هدوء ودربة كل حركة بالمقهى وكل سكون ..

أم زغلول صاحبة المقهى وقد تربعت على مقعد الإدارة بعد وفاة زوجها بليلة واحدة. استقبلته بترحاب بنت البلد وأصرت على أن يكون مجلسه بجوارها مباشرة.

تحدثا عن أيام الجامعة وتقصت أخبار رفاقه الذين كانوا يسهرون بالمقهى ليلة الجمعة من كل أسبوع يستمعون إلى شرائط أم كلثوم ويدخنون ويضحكون، حتى تطردهم أم زغلول من المقهى فى أمومة نادرة.

أطلعها على عنوان آل محروس الواقع خلف مقهاها مباشرة فبدا أنها تعرف عنهم الكثير. سألته فى توجس:

-من منهم تريد؟

-إبراهيم محروس.

-لماذا؟

-ليس هناك سبب

-أشك فى ذلك. أتسافر من القاهرة إلى الإسكندرية بلا سبب؟!

-هذا ما حدث.. مجرد أننى تذكرته فجأة

قالت بعد صمت موح وتأمل عميق:

-لم يعد فى هذه الدنيا شئ يثير دهشتى!

حكت له عن صراع الأخوة بعد موت الأب. لم تكن قيمة الميراث الهزيلة لتستحق ذلك النزاع الذى أسفر عن قطيعة بين الأخوة وقضايا رفعت فى المحاكم ووشايات ودسائس وشراء ذمم وتحديات مثيرة تركت آثارها اللئيمة على الأسرة المفككة حتى الآن.

-ولكن أين إبراهيم؟

ما أن انتهى من سؤاله حتى تبادر إلى ذهنه مشهد قديم جاءت به تداعيات الذاكرة من مكان وزمان مجهولين، مثلما تجئ بالعديد من الأسرار المدفونة فى قاع النسيان فجأة وبدون أدنى تمهيد.. "مجموعة من الشباب يجلسون فى صحن مسجد. يستمعون فى وقار الكبار إلى درس يلقيه شاب ضخم حليق الذقن لا تختلف ابتسامته فى شئ عن ابتسامة طفل غارق فى براءته".. ما معنى أن تستدعى الذاكرة فى هذا الظرف مشهدا كذلك المشهد؟ أيكون ذلك الشاب هو إبراهيم محروس؟.. ولماذا يكون هو لا غيره؟!

-عاد من الحرب مصاباً وقد حقق بطولات مذهله.

-وماذا فعل بعد ذلك؟

-يقول البعض إنه اتجه إلى الكتابة الأدبية.
-هل أنت واثقة من ذلك؟.. إننى لم أسمع إسمه يتردد فى هذا المجال.
-ويقول أحد إخوته إنه تفرغ للعبادة فى المساجد.
-ولكن أين يعيش الآن؟
-فى القاهرة هربا من اخوته وميراثهم المشئوم.
أعطته عنوان أخيه الذى تعرفه، لعله يدله على ضالته.
فى قطار العودة لم يشعر بتعب أو ندم أو قلق، وكأنه مسخر بقوة خارقة للسير فى طريق البحث عن إبراهيم محروس بلا سبب سوى أن ذاكرته قد ابتعثته فجأة!
فى القطار عاوده مشهد ذلك الشاب ذى الوجه المشرق بالنور والذى كان يحاضر الشباب فى صحن المسجد. اعتصر ذهنه وأنهك ذاكرته حتى توصل إلى مكان ذلك المسجد وقرر أن يذهب من فوره إليه.
كان واثقاً أنه سيعثر هناك على الشيخ إبراهيم محروس، وغالباً ما سيجده متكئاً على عصا وقد هزل بنيانه الجسمانى الضخم فتحول بفعل الزمن إلى جلد على عظم.
فى الطريق إلى المسجد يمشى يتنازعه خاطران. أولهما أن معجزة العثور على إبراهيم محروس –بعد كل هذا العمر – فى ذلك المسجد لمجرد ورود الفكرة على باله قد تصيبه بذهول أبدى لا إفاقة من بعده. وثانيهما ماذا سيفعل معه وماذا يريد منه وماذا سيقول له لو تحققت المعجزة؟!
عندما اقترب من الشارع المؤدى إلى المسجد صدمه شاب يجرى بدراجة مسرعة، ورغم أنه وقع على الأرض إلا أنه لم يعبأ بما حدث على الإطلاق، وإنما تمنى فى قرارة نفسه ألا يجد إبراهيم محروس، وألا يراه إلى الأبد.
انحرف عن الشارع متجهاً إلى الشاطئ. مشى بمحاذاة النهر فى خطوات بطيئة. كانت صفحته رائعة حين ساح عليها ببصره المكدود وقد انصرف ذهنه عن كل ما كان يشغله منذ لحظات.
اتجه إلى المقهى. ما أن جلس حتى أهدته الذاكرة قبلة عمرها أكثر من عشرين عاما. أمامه عبرت امرأة فاح عطرها فى الطريق. تذكر أمه واستبد به حنين إلى المجهول. ارتشف القهوة بانتشاء غامر وترحم على كل أموات ذاكرته ووعيه وقال مرة ثانية انه من العبث تعقب الدنيا بالدرس والتفسير والتبرير، وإنه لمن الخير نسيانها – كالذاكرة- لتفعل بنا ما نشاء حينا، وما تشاء فى معظم الأحيان.

****

قانــون الحـب

هو:

يا صغيرتى .. لا مبرر لخوفك وحيرتك وارتباكك. لا معنى لهذا الشعور المكثف بالذنب يطغى على كيانك. المسالة يا حلوتى أنك حديثة عهد بالحب رغم تجاوزك سن النبوة، وأنا أريد أن أعلمك أن للحب قانونه الخاص الذى لا شأن له بسائر القوانين، فهو نفحة إلهية من النور تشع بطاقتها على الوجود كله لتمنحه جوهر الحياة، وتبعث فيه الفرحة والنشوة والحرية، وتسكب عليه من عطرها القدسى ما يجعل القلوب تتوهج بألق السعادة.. اطرحى من خلفك كل ما عرفت من قوانين وافتحى صدرك لقانون الحياة.

هى:

حبيبى أنت مجنون. جسمك مكهرب بطاقة زائدة. عقلك يشع أفكارا غير عادية. قلبك قلب عصفور لكنه مشحون بحب الكون كله. لو سلمتك عقلى لانقلبت حياتى رأسا على عقب. إنى لا أستطيع الصمود أمام حبك لأنه يجمح بلا قانون .. ولو كان له قانونه الخاص كما تدعى لأمكن لعقلى استيعابه واحتماله. إنك تجرنى معك إلى هاوية مجهولة لا يعلم مداها إلا الله.. لهذا يدق لى عقلى جرس الإنذار كلما كاد يجرفنى تيارك العاتى ، ويجعلنى على وشك الاستسلام للفيضان.

هو:

أخشى أن أكون قد غامرت بعمرى من أجل لا شئ، فقانون الحب يجرمُ أُطُر العقل البادرة وحوافه المدببة وحدوده الشائكة. إننى لست أفرض عليك هذا البركان المتفجر حبا، فكفانى أن يهدر به صدرى مدى الحياة، لكنى مازلت مصرا على أن للحب قانونه الخاص حتى لو لم يقبله عقلك العنيد الذى سوف يضيع عليك أجمل ما فى عمرك كله.. الذى مضى، والذى هو آت.

هى:

أسألك باسم هذا الحب أن تصدق انى لم أحب سواك أبدا، ولكنى أخشى من عواطفك الثائرة على معنى شفيف مقدس أنشده فى حبنا. إنك تحطم جدران الزمن بكلمة، وتدمر التقاليد بنظرة، وتنسف الأعراف بلمسة من يدك. انى أحبك فوق ما تتصور، لكنى لا أرغب فى أن أذوب فيك.

هو:

أنا لست مجنونا، بل الجنون هو ألا تتعلمى كيف تحبيننى مثلما أحبك، وألا تعرفى أن الحب يجعلك أكثر قربا من الله. العقل هو أن تتركى روحك لتسكن فى سراديب قلبى. الجنون هو ألا تعرفى كيف تحتضنين مشاعرى على صدرك وبين ذراعيك وفى أحضان قلبك وبعمق عينيك اللتين لا أرى الحياة إلا من خلال بريقهما الأخاذ وحنانهما الآسر.. حبيبتى.. الحب هو الذوبان، ولا مفر أمامك من الاختيار.

هى:

خذنى لجنونك.. خذنى!

****

ما بصدرى

بكل ما أحمل من أثقال السنين جلست. اختارتنى أبعد مائدة فى أقصى ركن لأجلس إليها فاستجبت. سارعت إلى علبة سجائرى. وضعت سيجارة مصرية فى الفم العاجى الفرعونى الأنيق، واستبقيته فترة بين أسنانى بينما ألقى بنظرة فاحصة قلقة على رواد المكان، ثم أشعلت السيجارة الأولى.

خلف الزجاج كان الربيع يذيب الشتاء، فيتسلل اللون الأخضر البهيج فى فضاء الغابة الواسع من بين طبقات الثلج التى تراكمت عبر شتاء قارس على فروع الأشجار وأغصانها.. أما الشمس فقد طالت إقامتها الذهبية حتى الواحدة صباحاً، تبث سحرها الغامض فى سماء السويد وتعبث موسيقاها الدافئة فى حنان جميل بدقات القلوب.

أثار ظهورى المفاجئ بهذا المكان النائى فى أقصى شمال غربى العالم انتباه الحاضرين، فالجميع فى طور الشباب يتنفسون المرح ويرقصون الأمل ويغنون الحياة.

تتساءل عيونهم فى دهشه ممزوجة بالفضول، وتطل ابتساماتهم فى توجس يميل إلى الترحيب.. من أنت أيها الرجل الأسمر الأنيق ذو الحلة الكلاسيكية وربطة العنق الشابة والابتسامة الخجلى، وماذا يعنى شعرك الفضى اللامع؟..

.. ما الذى جاء بك من عالمك البعيد إلينا، ولماذا، وهل تعرف كيف ستمضى الوقت بيننا أو كيف سيكون مصيرك لو كنت تروم البقاء؟!

لو دخلت إحداهن صدرى لما ترددت أن تمضى بقية عمرها فى جناتى ووديانى وقمرى وأنهارى وعصافيرى وكلماتى وألحانى وألوانى وغنائى.. وهاهى تجئ كما الحلم.. حورية تسعى إلى مائدتى تطلبنى على استحياء للرقص.. تحف بها هالة من نور الخالق الأعظم.. أذوب فى سحر الجمال فأرقص وأتفانى وأفنى فى ملكوت سرمدى لا يفرق بين التقدم والتخلف، ولا بين الشباب والكهولة.. ولا بين الشمال والجنوب.

****

الموت على الجسر الذهبى

كان يحيا على مسلمات راسخة، منها أن الحب هو خلاص الإنسان على الأرض، وأن الإيمان هو خلاصه فى السماء، وأن الفن هو الجسر الذى يصل ما بين الشاطئين. لهذا عاش فرحة عمره حين التقاها، إذ كانت ذلك الجسر الذهبى الذى نقله بمسلماته إلى بر اليقين، فعاش حياة رائعة يحسده عليها الإنس والجن، دامت أكثر من سنوات أربع، هائماً فى همسات الحب هنا، سابحاً فى نفحات القرب هناك، سعيدا فى السماوات والأرض.. حمل إليها تاريخه الطويل بما حفل به من زهر وشوك ووعى وغفلة، فكان ذلك التاريخ جواز مروره إلى جزيرتها الشامخة النائية والتى ظلت من الأزل نائمة فى صمتها الغامض قبل أن يسوقه إليها قدره.

****

على مشارف الجزيرة استوقفنى حارسان تبارك الخالق الفنان فى ابداعهما. فى البداية خلتهما عصفورين ورديتين تترنمان بأناشيد الخلد العلوية .. كانت رائحتهما تفوح بمسك الجنة، ولما اقتربت منهما ولامستهما حسبتهما جمرتين من مرمر عنيد تتقدان بنار العشق ونور الهوى ووهج الجنون، فطار صوابى من الفرحة وقلت يا ألله !!.. حبيبتى جزيرة بكر تنام وادعة فى قلب الجمال. هى من أودعتها منذ مولدى كل أسرارى وخبراتى وأدق خلجاتى وأفرغت فى قلبها أفراحى وأشجانى الفائته والآتية من قبل أن تراها عيناى.

أمام محرابها أقف خاشعاً .. تتربع على عرشها لؤلؤتان عسليتان غارقتان فى بحر من نور.. سكانها يا بديع السماوات والأرض لا يتخاطبون بالكلمات وإنما يتهامسون بأحرف الموسيقى، وأنا من يعشق الطرب ويفنى فى الرقص والهمسات. أتوه يامولاى فى أحراش جزيرتك الساحرة التى اخضرت بمقدمى .. تسكرنى فواكهها التى لا تعرف الفصول، وتقر عيناى بمهرجان الألوان الفرحة الذى تقيمه زهورها لتشع فى الكون البهجة والحبور.. وترقص أعطافى لانسياب جداول الماء والعسل والحب بين جنباتها، أما النشوة الحقة فمن أين لها أن تحلق بى فى السماوات العلا بغير نشيد الإنشاد تغرد به الطيور وهى تتقافز فى طمأنينة على فروع الأشجار وأوراق الورد.

تعالى ياحبيبتى من هموم العالم وغروره فأنت التى لم يستكشف أرضها غيرى. تعالى كما أنت. أحزينة أنا أعزيك. أمريضة أنا أشفيك. أمحتاجة أنا أعولك. أخائفة أنا أطمئنك. أباكية أمسح دموعك.

أنت المخلوفة الوحيدة التى بيدها أن تطلق الطيور لتغرد على رؤوس الأشجار فتفجر فى قلبى ينابيع الفن والجمال، وتمنحنى أنفاس الحياة. لقد أفنيت عمرى أبحث عنك فى محاجئ الصخر فى ستر المعاقل فى شقوق الصخور وفى مخابئ طيات الجبال. هل أنت مهمومة؟ "ألق على الرب همك فأنا أعولك".. هل أنت متعبة؟.. "تعالى إلىّ وأنا أريحك".. أعليك مشقات؟.. "صلى .. أسمعينى صوتك".

****

قال له أحد الحارسين بحروف من نغم جميل:

-إن دخول الجزيرة مرهون بشروط.

-ماهى؟

-أولها المحبة.

-فما بالك بصبَ يفدى بروحه المحبوب ولايبالى؟!

وقال له الثانى:

-وثانيها الفناء فى المحبوب

-أنا الحبيب والمحبوب والسر الذى يجمعنا أرواح ثلاثة قد حلت فى جسد واحد.

سمحالى بالاقتراب فلما دنوت أكثر أصابنى عبيرهما الفواح بغيبوبة مقدسة، رحت على أثرها متنقلا بين الأرض والسماء وقد خلعت عنى أوصافى وسكنت فى ملكوت النشوة ولذة الوصل.. ولما أفقت ابتسمالى وقالا فى وداعة آسرة انهما يعلمان أننى الجدير وحدى من دون العالمين

بدخول الجزيرة لأنى محب عظيم بكل ما لايخطر على قلب بشر من حقائق ودقائق ورقائق. ثم قادانى إلى نهر الحياة وسألانى فى مودة أن أحقق الشرط الثالث، قلت فما هو، قيل أن تشرب من النهر فإما أن تصمد وإما أسكرتك حلاوته فطاش عقلك، ولك الخيار بين البوح والكتمان.

قلت إنى غريق النهر من قبل أن تمسسه يداى وتلمحه عيناى، فما جدوى الحياة على ضفتيه دون الغوص فى لجة نعيمه حتى الفناء.

ابتهج الحارسان بإصرارى فتركانى أقذف بأنينى وحنينى و أغوص بروحى فى قلب النهر، فحلولى فى قاعه منيتى ومرادى لتحل معى حيرتى وأسرارى وأفراحى وأسقامى.

ولدرايتهما بأسرار العشق الأزلية أدركا أنى تجاوزت الحد فى المحبة فخشيا على من الغرق وأخرجانى من لجته قبل أن أتلاشى، وأمرانى بالتمهل والانتظار وأضفيا على من حنانهما الملائكى ما يسعدنى عمرا فوق عمرى.

أجلسانى بينهما يجففانى لبرهة لا تقاس بزمن الدنيا، فإذا بدفئهما القدسى يغيبنى من جديد.. ولكم تمنيت أن أظل غائباً فى غيبوبتى حتى يوم أبعث لئلا ألقى مصيرى المأسوى الذى تنبأت به أساطير الإغريق وكتب الأولين لكل من تسول له نفسه تحدى الزمن بإيقافه عن السريان أو بمحاولة إعادته إلى الوراء.

****

كان كمن عثر على كنز لا مثيل له ولا نظير فى الدنيا، فتحير فى كيفية الحفاظ عليه والأنس به والامتزاج معه. بذل من فكره وروحه ودموعه، وحبس دمه فى شراييه عن قلبه الرهيف خشية أن ينهار الجسر أو أن تزل قدمه من عليه فيسقط إلى هوية الموت المحتوم.

ولشدة خوفه وقلقه ورجائه اشتدت لهفته على محبوبته واشتعل حنينه واشتياقه إلى دوام القرب منها ورؤياها وسماع صوتها وارتشاف الشهد من كرزتيها.. ولم تكن رأسه الملتهبة بالعشق والوجد لتهدأ أو تستكين إلا على صدرها الحانى، وأناملها الرقيقة تتحسس شعره برفق أم رؤوم، وتربت على ظهره الذى ينوء بما حمل من أثقال الوعى وأعباء السنين.

أيتها المريدة الغافلة عن فضل معلمك الذى طال وقوفه ببابك ودام اعتكافه برحابك وزرع فى حديقة قلبك المسحورة بذور العشق الجميل، ففتح لك مغاليق أسرار حياة كانت خافية عنك. تتعطشين للخروج من قمقمك الرهيب وحين أهبك الحرية وأنتشلك من كآبة الوحدة وكابوسها المظلم إلى نور الأنس والسرور فأنت تكابرين وتضنين وتترددين .. ألا ما أشقى عسل الحب حين يسيل هدرا بين شفتيك الثريتين اللتين طال هجرهما.. دعينى أرويك من نبع الحياة فى جنتك المشتهاه.. إن عشقك ياحبيبتى أسكنك فى دمى بروحك وعقلك ودينك وجسدك وأحلامك ونظرات عينيك ورائحة عرقك وتفاصيل المنمنمات الدقيقة تحت جفنيك وعلى بشرة وجهك الجميل.. أما آن لى أن أحتويك فى صدرى. أضمك بكل العنف والرقة وأصب بكل الوجد فى أذنيك همسات الحب والعشق والحنان. لقد كانت جزيرتك خاوية على عروشها قبل أن أرويها بدماء قلبى الوله.. إنك ويا أسفى تدمرين بجحيم عقلك ما تبقى لنا من عمر قليل يدعونا إلى استقطار ما تبقى لنا فيه من نعم، واستحلاب رحيقها الأخير قبل فوت الأوان.

لقد عشت فى صدرى عمرا بأكمله أراك فى صحوى ومنامى بعين الراهب المتبتل، أتوسل إليك تارة بحق الساعات التى جمعتنا فى الترحال والسفر، وتارة بحق لحظات الوداع بتلويح الأيدى على محطات القطار، وتارة بحق صوتك الدافئ الودود حين يأتينى من قارة تفصل بينى وبينها محيطات .. كم توسلت إليك يعينين دامعتين بالأمل والزهور والفرحة والترقب وقلق الحياة الجميل. . أكل هذا لم يصل إلى فهمك؟! انك تعشقين قمقمك، فكبرياؤك أقوى من حبك ونرجستيك أقسى من قلبك، وعقلك عاجز عن استيعاب حبى وتصديقه وكأنه عندك معجزة مستحيلة التحقيق فى عالم الأغيار .. ورغم احتياجك الحيوى للمساتى وهمساتى وكلماتى النازفة بالمحبة، فإنك ظللت تقفين صامتة قليلة الحيلة أمام قلب يذبح وإنسان يموت فى بطء بين عينيك.

****

بدأ يقينه فى الاهتزاز وراحت مسلماته تضطرب أمام عينيه الذابلتين، ورغم ذلك كانت صورته لا تجتلى إلا فى صورتها، وأنفاسه لا تتردد إلا أملا فى التفاتة من عين قلبها توحد بينها وبينه وتحل فيه وتمتزج به .. لكن ملكاته بدأت فى التعاكس والتذبذب والتضاد والتناحر، وكأنها تنذره بنهاية عهدها بالانسجام والتجانس الذى تتميز به شخصيته.. ومأساة الدنيا تكمن فى التغير والزوال .. ولأنه يحفظ هذا الدرس جيدا بل ويخشاه كما الموت، فإنه كان دائم البحث والترقب لظهور شواهد المأساة المرتقبة وعلاماتها التراجيدية الرهيبة.

حتى جاء ذلك اليوم المشهود حين أدرك.- وبالشدة مرارته – أنها عاجزة بحق عن تصور معنى حبه لها، بل إنه كاد يشك فى تصديقها له.. لابد أنه معنى يتجاوز قدرتها على الفهم والتصديق والتصور وكأنها تجزم بعدم استحقاقها للسعادة.

فى ذلك اليوم أدرك أن النهاية المرتقبة آتية لا محال. إنه يوم قد حفرت ثوانيه فى أخاديد قلبه مقبرة تحمل اسم محبوبته، حين تثبت من أن الحب عدل والعدل حب، وأن كل جميل فى هذه الدنيا لا يتصف إلا بالعدل.. فالله نفسه اسمه العدل.

ولأنه يقدس تلك الصفة الربانية العليا بكل جوارحه، فإنه لم يعد يرتضى بل ولم يعد يستطيع أن يرتضى لنفسه أن يكون ظالما لمحبوبته فحاجتها إليه ليست بقدر حاجته إليها.

****

وبدأ ينزف...

أنت ياسيدتى رزينة متعقلة حتى الموت، وأنا لا أريد من أحد فى هذه الدنيا شيئاً ، وأنت كائنة قدت من عقل، ولم يعد لدى شئ أعطيه لأحد، وكل الهوى صعب على الذى يشكو الحجاب ، وناد يا رحمان يا رب يا منان انى حزين ، وأدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى، وشغلى بها وصلت بالليل أو هجرت فما أبالى أطال الليل أم قصرا، وكلما ضنت تباريح الجوى فضح الدمع الهوى والأرقا، وإذا حل ذكركم خاطرى فرشت خدودى مكان التراب..

وراح النزف يزداد..

لأجل عينيك الجميلتين أعفيك من عبء حبى، ولأجل قلبك الطيب الغافل عن روعة حبى أريحك من حمل عشقى .. أحررك من جنونى وتقلبى وشططى وهيامى.. أعتقك من أسرا أنانيتى ومن تشبنى بروحك كطفل عنيد، فحبى يفوق طاقتك على احتمال الحب، ويعظم على قدرتك على العطاء.. حفظك الله ورعاك من كل سوء..ولابد يوما أن تأتى لحظة ينتهى فيها النزف!

****

الفهرست

المعضلة الكبرى
يوم من الأيام
تحت البنج هلوسة قصصية
الولايات المتحدة العربية
عنبر الأكياس
النقطة
لحظة التوقف
رحلة الصعود والهبوط
الكذاب
مكالمة من مجهول
الدورة
الليلة التالية
باب النجار
قانون الأربعين
انه فى العام التاسع والأربعين
تأملات عصرية
هوى الخمسين
الحبيبة..الزوجة..الصديقة
الظاهر والباطن
زمن الانترنت
المسعور
المواطن
ترانيم قصصية
الأحمال
السماء والأرض
المرتبك
الموت مرتان
الشريك
الحالم السعيد
رحيق الروح
أرق الخمسين
التمثيلية
النادى
المعاش
الانتفاضة والملل
الألم
الفرح
الفصل والوصل
كف مريم
حكايتى مع الخواجات
عشرة قصص قصيرة جدا
القصة المكررة

تقاسيم قصصية
أخى
رجع الصدى
البوتقة
الزوال
هجرة الطير الأخضر
مسائل كونية
الرقصة الأولى
فيرينا مازالت تذكرنى
أعباء الذاكرة
قانون الحب
ما بصدرى
الموت على الجسر الذهبى

****

تعريف مختصر بالكاتب سعيد ســـالم

E mail: saidsalem62@yahoo.com,saidsalem170@hotmail.com

-سعيد محمود سالم.... من مواليد الاسكندرية 1943 - اسم الشهرة: سعيد سالم-عضو اتحاد كتاب مصر.رقم العضوية 400

-عضو اتحاد الكتاب العرب.رقم العضوية 624-عضو لجنة النصوص الدرامية بالادارة المركزية للإذاعة والتليفزيون بالاسكندرية سابقا-عضو هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية-عضو أتيليه الكتاب والفنانين بالاسكندرية

-عنوان المنزل 5شارع علي باشا ذو الفقار شقة 10 بمصطفى كامل.الاسكندرية-تليفونات:المنزل 035462869 الموبايل01224390259 -المؤهلات:1-بكالوريوس الهندسة الكيمائية 1964.كلية الهندسة.جامعة الاسكندرية

2-ماجستير الهندسة الكيمائية 1968. كلية الهندسة.جامعة الاسكندرية-المهنة: مهندس استشارى بالمعاش

•• **مجمل أعمال الكاتب حتى عام2020**

(37)عملا مابين الرواية والمجموعة القصصية بخلاف المسرح والدراما التلفزيونية والاذاعيةوغيرها

1-في مجال الرواية: 25) روايـــة2-في مجال القصة القصيرة: (12) مجموعة قصصية

-في مجال الدراما الإذاعية: عشرات المسلسلات والسباعيات والسهرات الدرامية بإذاعتى القاهرة والاسكندرية.

-في مجال المسرح:.الجبلاية (كوميدية)أدب ونقد فبراير2016 – عاليها واطيها (كوميدية)أدب ونقد مارس 2017

في مجال النقد الأدبى:مجموعة دراسات عن أعمال بعض الكتاب المصريين والعرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.

3-في مجال المقالة:- مجموعة مقالات ثقافية وسياسية واجتماعية نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.

4- كتاب بعنوان: " نجيب محفوظ الإنسان"..الهيئة المصرية العامة للكتاب2011

5- كتاب نقدى بعنوان"الاسكندرية قبل25يناير طوفان من الابداع المتألق"..مكتبة الاسكندرية2015

6-في مجال الدراما التلفزيونية:1-مسلسل كوميدى "عاليها واطيها"من انتاج صوت القاهرة عام2008 من اخراج وائل فهمى عبد الحميد عن رواية عاليها واطيها للمؤلف.2-مسلسل"المقـــلب" عن رواية المقلب للمؤلف و الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة عام2009..تحت التنفيذ .

•• أهم الجوائز التى حصل عليها الكاتب

1 -جائزة الدولة التقديرية فى الآداب لعام 2012 / 2013

2-وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى عام2013

3-جائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة لعام94/95 عن مجموعة"الموظفون" الصادرة عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

4-جائزة إحسان عبد القدوس الأولى فى الرواية لعام1990 عن رواية "الأزمنة" الصادرة عن روايات الهلال بالقاهرة.

5-جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام 2001 عن رواية "كف مريم"

6- جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام2010 عن رواية المقلب.المجلس الأعلى للثقافة

7-رشح لجائزة النيـــــل 2017

مجالات نشر قصصه القصيرة:

على مدى مايقرب من خمسين عاما نشرت له مئات القصص القصيرة والمقالات فى الجرائد والمجلات المصرية والعربية :

الأهرام-الأخبار-أخبار اليوم-أخبار الأدب-الجمهورية-المساء-أكتوبر- حواء-مايو-الهلال-الثقافة-الكاتب-إبداع-آخر ساعه-روز اليوسف- القصة- عالم القصة-البعث-تشرين- الموقف الأدبى-الآداب-الثورة-الأسبوع الأدبى-البيان-الأنباء- العربى-الفيصل-المجلة-الحرس الوطنى-الشرق الأوسط-الدستور- الرأى-اليوم السابع-صباح الخير- الكويت-البحرين الثقافية-الرافد.

الروايات (25روايه)

1-جلامبو	**جماعة أدباء الاسكندرية**	**1976**
2-بوابة مورو	**جماعة أدباء الاسكندرية**	**1977**

3 -مجنون أكتوبر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979
4-آلهة من طين *الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة أولى 1985 * دار الجليـــل بدمشق 1986 طبعة ثانية
5-عاليها أسفلها *طبعة أولى وزارة الثقافة بدمشق 1985 ثم *طبعة ثانية دارالمستقبل بالقاهرة 1992 بعنوان"عاليها واطيها" ثم* طبعة ثالثة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995
6-الشرخ دار طلاس بدمشق 1988
7-الأزمنة روايات الهلال بالقاهرة 1992
8-الفلوس دار المستقبل بالقاهرة 1993
9-الكيلو101الوجه والقناع.. طبعة أولى دار المستقبل بالقاهرة 1997 *طبعة ثانية - الهيئة الهيئةالمصرية العامة للكتاب 1999
10-كف مريم اتحاد كتاب مصر طبعة اولى 2001ثم* طبعة ثانية مركز الحضارة العربية 2017
11-حالة مستعصية روايات الهلال 2002
12- الشيء الآخر دار ومطابع المستقبل بالفجالة ومكتبة المعارف ببيروت 2004
13-المقلب المجلس الأعلى للثقافة 2009
14-الحب والزمن نشرت على حلقات بجريدة الدستور عام2007 ثم*طبعة اولى بروايات الهلال فى يوليو2011 ثم *طبعة ثانية بدار غراب 2018
15 -الفصل والوصل"هيئة الكتاب2016"
16- استرسال..*طبعة اولى مطبوعات الرافد بالشارقة عدد ديسمبر2016 و*طبعة ثانية دار المعارف2017
17-قصة حب مصرية... روايات الهلال نوفمبر2017
18مذكرات فتاة لم تعثر على عريس... 2018(دار المعارف)
19- صعاليك الأنفوشى 2019 هيئة الكتاب
20- أعيش.. دار غراب 2020
21-هذيان2019 دار المعارف.
22-رحلة الصعود والهبوط. 2019دار الشروق
23- الولايات المتحدة العربية تحت النشر دار غراب2020
24- مفتاح السر تحت النشر.دار المفكر العربى
25- الصمت والكلام والمسخرة تحت النشر
26-مختارات روائية 2020: تضم "كف مريم" و"الشيء الآخر" و"المقلب" و"الحب والزمن"

<u>المجموعات القصصية (12مجموعة قصصية):</u>

1-قبلة الملكة اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1987 2-الموظفون اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1991
3-الجائزة قايتباى للطباعة والنشر 1994- 4- رجل مختلف الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995
5-الممنوع والمسموح مختارات فصول 2002
6--أقاصيص من السويد* طبعة اولى هيئة الكتاب 2005و *طبعة ثانية دار المعارف 2017
(ترجمت المجموعة الى الانجليزية ونشرت بدار نشر (Echo for publishing)
7- قانون الحب الكتاب الفضى 2006
8-هوى الخمسين نهضة مصر 2011
9- الكشـــف. هيئة الكتاب 2013
10-رحيق الروح المجلس الأعلى للثقافة 2017
11- المعضلة الكبرى..مختارات قصصية 2020 هيئة قصور الثقافة.
12-حكايات العمر تحت النشر

****

<u>نقاد وكتاب تناولوا أعماله بالنقد:</u>

نجيب محفوظ-يوسف ادريس-د.صلاح فضل-د.على الراعى- أنيس منصور-د.سيد حامد النساج-د. حامد ابو احمد-د. احمد فؤاد-يوسف الشارونى-د.محمد مصطفى هدارة-د. يوسف عزالدين عيسى-د.عبد العزيز الدسوقى-د.محمد زكريا عنانى-د. السعيد الورقى-د. احمد المصرى...وغيرهم